صفحات من التراث 3

الشَّيْخُ القَرَادِيّ



الحاج أيّوب إبراهيم بن يحيى

1923 - 1989م

رسالة في بعض أعراف وعادات وادي مزاب

1615

[illegible] بن [illegible] حاج أحمد

نشر
جمعية النهضة
العطف - ولاية غرداية
الجزائر

ملك جمعية
أبي إسحاق إبراهيم أطفيش
لخدمة التراث

صفحات من التراث (3)

الشيخ القرادي

الحاج أيوب إبراهيم بن يحي

1923 - 1989م

رسالة في بعض

أعراف وعادات وادي مزاب

تقديم وتحقيق

أ. يحي بن بهوى حماج الحمد

نشر جمعية النهضة

العطف - غرداية

طباعة: العالمية للطباعة والخدمات

(Mondial Print Service)

الطبعة الأولى

2009

إلى روح الشيخ القرادي _ رحمه الله _ في عليائها .

إلى والدي الكريمين "رب ارحمهما كما ربّياني صغيرا" .

إلى كل طالب علم يسعى في ذلك إلى نيل رضا الله تبارك وتعالى .

وإلى كل من اقتنى هذا الكتاب للإطلاع والتطلع لتحقيق المعرفة والتعارف والاعتراف ،

وللوقوف على بعض أسرار هذا التنظيم الاجتماعي الرّباني الذي كتب الله له الخلود

قرونا ولايزال ، بفضل أئمته وعلمائه والرجال المخلصين الموفين لأداء الرسالة وتبليغ الأمانة ،

معاهدين الله على ذلك راجين ما عنده "وما عند الله خير وأبقى" .

"فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" .

وإلى كل مخلص ساعدني في البحث من قريب أو بعيد

إلى هؤلاء جميعًا أهدي هذا العمل المتواضع ...

يحي بن بهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد بن عبد الله، الرحمة المهداة الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، ويخرج الناس من أوحال الشهوات إلى جنات القُربات، ونصلي ونسلم على آله وصحبه الأطهار الهداة المهتدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

إن الباحث أو المتأمل في التراث الإنساني عامة والإسلامي منه خاصة، قد يستوقفه أمران أساسيان وهما: الدقة والتنوع، وذلك في معظم الحواضر الإسلامية، القديمة منها والحديثة، ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن تلك الأشكال حملت معها من التواصل الحضاري عصارات فكر أجيال متعاقبة، فوضعته أمام إنسان اليوم، وهو في أوج تحضره ورقيِّه، وفي أوج تحكمه بتكنولوجيات عصره الدقيق، ليقدم لنا نتائج بحوثه ودراساته وما اكتشفه بعد البحث، والتنقيب!!

فيا تُرى هل فهم إنسان اليوم ما أراده إنسان الأمس في الحياة؟ وما يريده إنسان الغد؟! _هذا على العموم_، أما بالنسبة لنا نحن المسلمون، فهل عرفنا مبادئ السلف في الحياة؟! وهل وعينا مقاصدهم ونُظمهم التي نالوا بها وخلالها خيري الدنيا والآخرة؟!..

أما المخطوطة التي بحوزتنا فهي رسالة في بعض عادات وأعراف وادي مزاب، من تأليف الشيخ إبراهيم بن يحي القرادي[1] منسوخة بخط يده، وهي بدون عنوان في الأصل، فالعنوان من وضعنا وهو نفسه تقريبا الذي اقترحه الأستاذ سماوي صالح بن عمر الباحث في التاريخ، والذي كان قد جلس إلى الشيخ القرادي مرات عديده وتباحثا مادة الرسالة، وقد أفاد منها الأستاذ سماوي كثيرا في رسالته لنيل درجة الماجستير في التاريخ، كما جعلها من أهم المصادر في دراسته خاصة ما تعلق منها بجانب الحياة الاجتماعية والأعراف التي تحكم المجتمع المزابي جنوب الجزائر، أين قال: "..(الرسالة عن وادي ميزاب)، من أهم ما غذى البحث هذا المخطوط النفيس الذي ألفه الحاج أيوب إبراهيم بن يحي القرادي، لم يضع له عنوانا، فاقتبست جزء من الفهرست وهو: (الرسالة)، وأضفته إلى (عن وادي ميزاب)، طلبت منه أن يضع لبحثه هذا عنوانا فلم يتفرغ لذلك، فألححت عليه بعد انتهائي من كتابة البحث وربما اقترح له عنوان (عادات وتقاليد في ميزاب)..."[2].

في هذا القول ما يثبت نسبة المخطوطة إلى صاحبها "الشيخ القرادي"، والأستاذ سماوي صالح من أعرف الناس بالشيخ في المجال الاجتماعي والديني خاصة فهما عضوين بارزين في حلقة العزّابة[3] بالعطف، وهذه شهادة أخرى منه في حق القرادي ورسالته، يقول: "..وحلل جوانب العادات والتقاليد والحياة العامة بـــ(وادي ميزاب) تحليلاً علميا وفكريا أفاد البحث كثيرا، مصادره شفوية من المشايخ و"العزّابة" والمُسنين، بل قام بدراسة ميدانية في البيئة التي يعيش فيها ويحتك

[1] – القرادي: بقاف مثلثة.

[2] – صالح عمر سماوي، العزّابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، المطبعة العربية غرداية، ط1، ج1، ص58.

[3] – الحلقة الدينية التي تنظم الحياة الاجتماعية للمزابيين، وسيأتي الحديث عنها في الرسالة بتفصيل.

بها، فهو اجتماعي بالطبع وله اطلاع واسع، ودراية بكثير من الأمور، يتمتع بذاكرة قوية..، تمتاز كتاباته بالدقة والتحري والاستنتاجات.."[1].

وتجدر الإشارة إلى أن النسخة المصورة الموجودة بحوزتنا هي نسخة مصورة طبق الأصل، أما الأصلية فلم نعثر عليها بعد مع البحث الدقيق، وإن كنا نعتقد ـــغير جازمينـــ بأن الشيخ قد أعارها في حياته لأحد الطلبة أو الباحثين ولم يرجعها له، وتشاء الأقدار أن يحتفظ ـــرحمه اللهـــ بنسخة مصورة منها في مكتبته، تكون الشاهد على جزء من تراثه المنسوخ وإبداعاته الفكرية في هذا الباب.

قد يضطر المحقق أن يحقق الكتاب على أصل مخطوط واحد، في حالة عدم وجود نسخة مخطوطة أخرى[2]، ونظرا لأهمية هذه المخطوطة وحاجة جمهور القراء إليها بصفة عامة، وكذا الطلبة والباحثين في تراث المنطقة وعادات وأعراف سكانها بصفة خاصة، وحتى لا تضيع النسخة المصورة ـــلا قدّر اللهـــ فإننا ارتأينا تقديمها للجمهور حتى تحصل الفائدة المرجوة منها، والله من وراء القصد.

أما تاريخ تأليفها فهو غير معلوم بالضبط ولكنه يرجح أن يكون في أواخر السبعينيات من القرن الماضي وذلك حسب شهادة ابن المؤلف وهو يحفظ عن والده الكثير، ذكر له السيد بكلي بابا أحمد (الطالب بلال) وهو صديق حميم للمؤلف وكان عضوا معه في حلقة عزّابة المسجد العتيق بالعطف وما يزال، قال: " كنا رفقة الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي في حمام ريغة فقرأ علينا الشيخ القرادي فصولاً من رسالة في عادات وأعراف وادي ميزاب، فقال له الشيخ عبد الرحمن مشجعًا أُنحُ هذا النحو.."[3].

[1] – ينظر: نفسه. ج1، ص58–60.

[2] – يحي وهيب الجبوري، منهج البحث وتحقيق النصوص، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993، ص136.

[3] – لقاء مع الأستاذ قرادي محمد بن الحاج إبراهيم في منزله بحي نامو بالعطف، بتاريخ: 2009/04/24.

أخي القارئ سأقودك في جولةٍ تاريخية أدبية، ورحلة تربوية اجتماعية إلى أمة من أمم الإسلام التي لا نعرف عنها الكثير، لتتأمل بعيون قلبك ونور عقلك جلال الإسلام في أخلاق ومعاملات هؤلاء، ولاشك أنك ستذهل من حيوية هذا المجتمع ومن نُظمه الإسلامية الراقية، فتتمنى أن لو وعت مجتمعاتنا المسلمة اليوم مثل هذه السبل أو اهتدت إليها، فإنها لارتاحت وأراحت.

لقد ضرب المجتمع المِزابي بجنوب الجزائر، أروع الأمثلة في الوفاء لتعاليم الإسلام ومن أجلّها المعاملات، مصداقًا لقول الرسول الكريم ﷺ "الدين المعاملة"، فقد أحقوا الحقوق وأدوا الواجبات، ولنا في هذه الرسالة المختصرة التي تفضل بها شيخنا الجليل إبراهيم القرادي ـرحمه اللهـ، والتي رصد فيها ـبكل موضوعيةـ أهم الأسئلة التي تشغل ذهن الكثيرين من هواة المطالعة والباحثين في علم الاجتماع الإنساني، انطلاقًا من الروابط الإنسانية التي تجمع هذه الفئة البشرية، مُعرجًا على ذوقهم السليم في البناء المعماري المطابق لتعاليم الدين الحنيف من احترام الجار ومراعاة حق الطريق.. إلى غير ذلك، وقد انبهر الغربيون من هذه العبقرية فكيف لنا بالمسلمين، وفي هذا الصدد يقول المهندس المعماري الفرنسي "أُندْرِي رَافِيرُو" (André Raverro) الذي بذل جهدًا موفقًا في التعريف بأصالة المعمار المزابي: "ليس في كل ما نراه في الدُّور القديمة مكانٌ للصُّدفة أو الجهل بفن البناء، فحاولوا أن تستنطقوا هذا البناء لتفهموا حكمته، فإن لم تفهموا حكمته فسلِّموا حتى يأتي ذلك اليوم الذي تفهمون فيه مقاصدهم، فحافظوا ثم حافظوا ولا عليكم"[1].

يحي بن بهون حاج امحمد.

المَديَّة، يوم الأحد: 01 جمادى الأولى 1430هـ

الموافق لـ: 26 أفريل (نيسان) 2009م

[1] -- ينظر: محمد ناصر، الشيخ القرادي حياته وآثاره، نشر جمعية النهضة العطف، المطبعة العربية غرداية، ط1، 1990.

حياة المؤلف في سطور:

هو الشيخ الحاج أيوب إبراهيم بن يحي، الشهير بـ"القرادي"، عالم فذ من مواليد 31 مارس 1923 ببلدة تَجْنِينتْ العطف، وادي مزاب بجنوب الجزائر، انتقل في سن مبكرة إلى الجزائر العاصمة أين بدأ مشواره الدراسي، ثم رجع إلى مسقط رأسه بعد ثلاث سنوات ليواصل تعلمه ويحفظ القرآن الكريم.

أصيب بمرض جسماني سنة 1931، مما اضطر والده إلى بعثه إلى تونس من أجل المداواة، فمكث بها ثلاث سنين لم يغادر المستشفى، واستغل تلك الفرصة لتعلم اللغة الأجنبية وتنمية شخصيته العصامية[1]، وفي سنة 1937 التحق بمدرسة الحياة بالقرارة، ثم معهد الحياة، فتضلع في علوم الشريعة والأدب مشائخه الأعلام ومنهم: الشيخ إبراهيم بيوض والشيخ شريفي سعيد وإبراهيم أبو اليقظان

وكان عضوًا بارزًا في النشاطات الأدبية والاجتماعية المحيطة بالمعهد، فسعى في تأسيس أول فوج للكشافة الإسلامية الجزائرية سنة 1943، وشارك في مجلة "الشباب" التي كانت تصدر بالمعهد، بكتاباته الغزيرة وقصائده العصماء.

وبعد أن أنهى مرحلة التعلم درَّس ثلاث سنوات بالمعهد، ثم التحق بمسقط رأسه سنة 1947 ليشارك في مسيرة المجتمع، فبدأ عمله التربوي معلّمًا بمدرسة النهضة، ثم عين مديرًا لها إلى غاية 1978. وقد انقطع عنها ثلاث سنوات بين 1963 و1966، إذ انتدب لإدارة المطبعة العربية، وللمساهمة في تحرير مجلّة "الفكر الإسلامي"[2]، وقد التحق في نفس الفترة بجمعية القيم الإسلامية بنادي الترقي، في الجزائر العاصمة.

[1] - ينظر: السابق، ص13.

[2] - ينظر: معجم أعلام الإباضية، مجموعة من الباحثين، المطبعة العربية غرداية، ط1، 1999، ج2، صفحات 67-68.

وقد كان إلى جانب اضطلاعه بمهمة التعليم عضوا فعَّالا في الهيئات الدينية والاجتماعية لبلدته العطف، فقد ترئس عشيرته "آت عبد الله بن احمد" سنة 1948 وعمره 25 عاما، وشارك بحماس في نشاطات جمعية النهضة وفي حلقة العزَّابة التي انضمَّ إليها سنة 1961، وأسندت إليه مهمة الوعظ والإرشاد فأفرد دروسًا خاصة للنساء لما له من أثر فعال في إعداد الأجيال الصاعدة وترتيبها على أسس إسلامية صحيحة وعلمية عصرية، كما استطاع هو وإخوانه في الجمعية أن يبعثوا مركزًا للتكوين المهني للبنات لاستكمال تكوهن وإعدادهن.

ونظرًا لما كان يتمتع به الشيخ القرادي ـرحمه اللهـ من رزانة وحصافة وأري ونُضجٍ رغم صغر سنه فقد أسندت إليه مهام رئاسة عشيرته في الخامسة والعشرين من عمره، فكان نعم الرائد، وساهم في إرساء دعائم الأخوة بين أبناء البلدة كافة[1].

برز الشيخ في الحركة الإصلاحية، فكان من روَّادها سندًا للشيخ إبراهيم بيوض والشيخ إبراهيم أبو اليقظان، كما كانت للشيخ صلات بشخصيات بارزة منها: الشيخ البشير الإبراهيمي والمفكر مالك بن النبي، وقد لازم حلقاته الفكرية التي كان ينظمها في داره، وبخاصة بين سنة 1963 و1966، وقد شارك الشيخ في جل ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تنظمها وزارة الشؤون الدنية.

ومما اشتهر به الشيخ معارفه العسيقة واطلاعه الواسع في مجال التاريخ والأعراف والبناء المعماري بوادي مزاب، ممَّا جعله قِبلة للباحثين مسلمين وغربيين، وهذا الاهتمام دفعه إلى التفكير في إنشاء جمعية التراث، فكان بحقٍّ من أبرز المؤسسين والمشجعين لأعمالها ونشاطاتها.

---

[1] - ينظر: السابق، ص14.

توفي ـرحمه اللهـ بالمدينة المنورة يوم الثلاثاء 01 ذو الحجة 1409هـ/ 04 جويلية 1989م، وهو يتأهب لأداء فريضة الحج للمرة التاسعة، وذلك بمسجد الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ ودفن بالبقيع.



الشيخ القرادي، في عرس ابنه "عبد الله" بالعطف، نوفمبر 1985م.

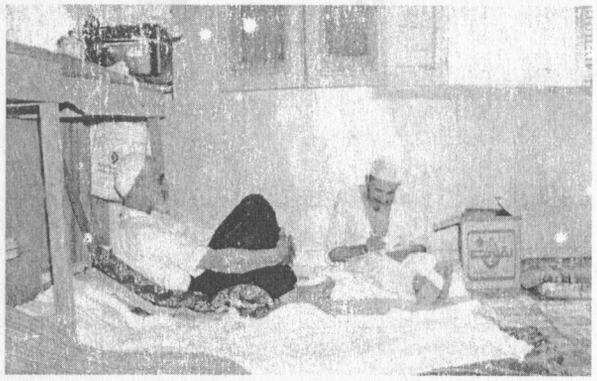

الشيخ القرادي (على يمين الصورة)، بالحجاز يسجل مذكراته، وقد كانت آخر صورة التقطت له قبل وفاته هناك ـرحمه اللهـ.

رسالة في بعض

عادات وأعراف وادي مزاب

(بلدة العطف أنموذجًا)

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على محمد النبي الأكبر الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ويُعلم، وعلى آله وصحبه الأطهار الهداة المهتدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فإني لم أر فيما رأيت من المناطق في أرض الجزائر منطقة استأثرت بأقلام الكتاب سيما الأجانب منهم مثل ما رأيت عن ميزاب، هذه الرقعة الضيقة التي أثارت إعجاب السُّواح الزائرين أو الحكام المتسلطين أو المؤلفين النُّزهاء، الزائرين على اختلاف نزعاتهم وأهدافهم واتجاهاتهم، فلو ذهبنا نعدد ما كتب من المؤلفات والمقالات منذ قرن من الزمن لوجدنا ما قد يدهش الإنسان منه كثرة وتنوعًا.

ولكن ــ والأسف ملء الجوانح ــ لا يوجد في كل هذه المؤلفات إلا عددا ضئيلا مما كتبه أبناء المنطقة، وهذا بالطبع يرجع إلى كثير من العوامل المعقولة وأعظمها ــ فيما نرى ــ نقص الكفاءة، والمعاصرة، وعدم وجود المصادر الكافية، وتضارب أراء المعاصرين ممن يحفظ التاريخ أو يعلله، كل هذا يجعل الكاتب الذي يريد أن يؤرخ أو يسجل الأحداث التي يرويها عن المعمرين[1] من المعاصرين على الطريقة الأنتربولوجيه[2] في حرج، يحتاج معه إلى كثير من التراهة والموضوعية لكي يستطيع أن يرجح بين الروايات المتعددة والمتضاربة أحيانا، ولكي يطمئن إلى حقيقة قد لا ترضي الكثير من الناس، وكل هذا ما جعلني أتحرج أن أكتب في هذا الموضوع الشائك كتابة ترضي الحقيقة وترضي الضمير الحر، وتنصف هذا المجتمع المظلوم حينا والمغموط الحق أحيانا.

---

1 – يريد: من طال عمره حتى أدرك عصرنا الحالي.

2 – هو: علم الأجناس.

وبناء على كل ما قدمت سوف لا أكتب عن التاريخ إلا قليلا من الحقائق الموجزة بها، ثم أتوسع في دراسة المجتمع المزابي كما هو عليه الآن مع بعض التطورات التي حدثت فيه منذ وطئت أقدام المستعمرين هذه الأرض، سائلا الله العلي القدير أن يوفقني لأعرض صورة صادقة لهذا المجتمع الذي لا يزال ـ رغم كل ما أصيب به ـ مجتمعا مسلما على وجه العموم، وسأحاول ما استطعت الاختصار فالموضوع واسع والجوانب التي يجب الكتابة فيها متعددة وفقنا الله إلى اختيار أهم هذه الجوانب حتى نكون قد أدينا بعض الواجب لهذا المجتمع وللمجموعة التي تكونه إنه سميع الدعاء.

ملامح المجتمع المسلم

إن هذا المجتمع الإسلامي على قلة عدد سكانه وعلى ضيق الرقعة الضيقة التي يسكنها يختصر حضارة من أعرق الحضارات الإسلامية، فهو يقوم في جميع شؤونه على الدين الإسلامي في إطار المذهب الإباضي ولا يزال إلى يومنا هذا، رغم كثير من التحديات التي تعرض لها منذ وصول الزحف الفرنسي إلى الأغواط سنة (1853) واحتلال الجيش الفرنسي لميزاب سنة (1883) وما استتبع هذان الحدثان من توالي التحديات والنكبات والضغوط إلى سلسلة من القوانين العرفية استمرت إلى سنة (1951) كل هذا بلور في ميزاب كثيرا من أساليب المقاومة، وكون طرقا جديدة من الكفاح الدائب المستمر، فلم يزدد هذا المجتمع إلا تمسكًا بالدين وصمودا في الكفاح حتى بعد أن استقلت الجزائر، وتوالي ظلم ذوي القربى[1]، واشتملت طرق المقاومة على كثير من ذوي الرأي الحصيف.

[1] - إشارة إلى محاولة محو آثار الهيئات الاجتماعية والدينية والثقافية في المنطقة، وإلى نكران بعض الناس لتضحيات المزابيين في سبيل تحرير الجزائر منذ قرون غابرة تمتد من صد محاولات الإسبان لاحتلال الجزائر وبعدها، وهو ما دفع بالمجاهد حمو بن محمد عيسى النوري إلى تأليف كتبه الأربع الشهيرة، "دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديمًا وحديثًا" ط2، دار البعث قسنطينة، 2000، أنظر تقديم كتاب "دور المزابيين..": ج1، ص: 11- 18.

بعد كل هذا كما سيأتي بيانه مفصلا، نرى كثيرا من الظواهر التي تدل دلالة صادقة على أنه مجتمع مسلم ومعتز بإسلامه والحمد لله، فأوامر المساجد لا تزال لها قداستها وتُحترم أكثر من القوانين الوضعية، والمظاهر العامة لا تزال إلى يومنا هذا مسلمة، والمواعيد بين الناس لا تزال مرتبطة بالصلوات في المساجد[1]، والمرأة المحظوظة ليست هي التي تملك مالاً وذهبًا ولكن التي أدت فريضة الحج، ومشاريع البر والإحسان متوالية ومستمرة والفقراء في معظمهم مكفولي النفقة، ورمضان شهر يتمناه الفقراء لما ينفجر فيه من الإحسان، والوصايا الفردية مستمرة ومحافظ عليها، وولائم الأفراح والأعراس متوالية، المساجد تُجدد وتوسع وتنشأ ويُتوسع في مرافقها، المدارس تزداد أقسامها وتلاميذها كل سنة، وميزانياتها[2] تتضخم تبعا لذلك، مؤسسات الإيواء[3] تتوالى وتُجدد وتكون في كل مكان وُجدت فيه مجموعة حية من المزابيين، وليس معنى هذا أن جميع أفراد المجتمع ملتزمون بحرفية القرآن، فهذا ما لم يوجد حتى في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن أي فاجر لا يستطيع أن يتحدى عواطف الجمهور ويُجاهر بشرب خمر أو بأكل رمضان أمام الناس، أو أن يتحدى أوامر المسجد في أعياده أو أفراحه وأحزانه، وهذا هو واقع اليوم، والأولاد كلهم يعلمون ما تيسر من القرآن ويعلمهم لهم والديهم الصلاة عند البلوغ، والبنات بحمد الله محتجبات يتدرجن في المدارس ويتعلمن العلوم مع المحافظة على الدين والأخلاق، ووفود الحجاج تتوالى كل عام لأداء الفريضة، وتحجيج الوالدين أمر يعتبره الشباب من أجلّ القُربات عند الله،

[1] - يريد: أن الناس يضربون المواعيد للقاءاتهم بعد خروجهم من المساجد عصرًا أو عشاءً.

[2] - لا يكاد ينكر أحد بأن المزابيين عصاميون في تسيير مشاريعهم الخيرية والتربوية..

[3] - هي: "ديار العرش" التي أنشأها المزابيون في كل ربوع القطر وحتى خارجه، وذلك لتفقد أحوال بعضهم البعض.

وتسعون بالمائة من السكان يملكون دارًا يسكنون بها، أوكيلا يكفيهم مؤونة العام وعملا متواضعا يكفل لأب كل عائلة عيشا كريما على حسب دخله.

لا توجد خادمة في دار بل كل امرأة خادمة في دار زوجها، تقوم على إعداد طعام زوجها وأولادها مهما كان مستواها، ولا توجد أم تمتهن في خدمة بنتها المحظوظة شبيهة بالخادمة، والمنطقة أقل النواحي طلاقًا وأكثرها زواجًا، ولا توجد في الشوارع متسولة أو متسول رغم وجود العدد الوافر من الفقراء والأيتام والأرامل، ولا يوجد معربدون في الطرقات رغم وجود عدد ضئيل من المدمنين، ولا يوجد مدخن واحد في رائعة النهار وإن وجد بعض المتسترين وعدد أقل من القليل.

أليست كل هذه ملامح مجتمع مسلم ؟! إن هذا المجتمع تعرض لكثير من التحديات ولو ذهبنا نعددها لضاق بنا المقام، ولكنه رغم جميع التحديات والعوامل والفتن التي يتعرض لها أبناء الجيل، لا يزال متماسكا يصارع ويُغالب ولن يقهر إلاَّ إن كفر بالإسلام الذي ضمن تماسكه، وهذا ما لا يكون ولن يكون بحول الله، فما خرج الإسلام طيلة عهده من بلد حل فيه، الزكاة تؤدى بانتظام في إنعاش جميع مشاريع البر والإحسان والتعليم، وأكثر المشاكل والخصومات تفض بطريقة سليمة بدون التجاءٍ إلى المحاكم إلا عند الضرورة، وتنفيذ الوصايا وقسمة المواريث تحل دائما في محضر الجماعة وليس على الموثق إلا التسجيل، ولا نجد _إلا نادرًا_ ميتا بالغا يموت بدون وصية مهما كان مستواه المادي أو الاقتصادي.

ميزاب[1]

هذا الاسم الذي سمي به سكان الوادي وادي مزاب نسبة إلى مُصاب أحد فروع قبيلة زناته التي عمرت هذه النواحي منذ القِدم، ومن المعلوم أن حرف الزاي يستبدل به المزابيون حرف الصاد فيقولون "أَزُومِي" للصوم، ويقولون "أَضْزَالِّيتْ"[2] للصلاة، فمُصاب ومُضاب ومُزاب اسم واحد أما اسم الوادي فقد نسب إليهم و لم ينسبوا إليه، وهذا يؤكد لنا نسبتهم إلى قبيلة زناته البربرية، هذا هو الأصل واللغة التي يتكلم بها الميزابيون شاهد عدل، وإن كان هذا لا يمنع أن تكون هناك عائلات عربية استوطنت ميزاب وانتسب إلى بعض عشائرها فالإسلام الذي هو دين الجميع يَمحو هذه الفوارق الجنسية بطبيعته كما هو الشأن في معظم سكان الشمال الإفريقي المسلم، فقد نستطيع أن نوزع السكان في المناطق إلى مجموعتين عربية وبربرية، ولكن هذا غير مستطاع بالنسبة لكل فرد على حدة ولا نستطيع أن نطمئن إلى أنساب العشائر المكتوبة والمحظوظة فهي كلها تتسابق إلى الالتحاق بمولاي إدريس لتعد تلك القبيلة من الشرفاء أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك تقليدا وتقربا للفاطميين الذين حكموا الجزائر فترة من الزمن غير قصيرة.

وإذا أقررنا أن معظم المزابيين ينتمون إلى قبيلة زناته، فليس معنى ذلك أنه لا توجد فيهم عائلات أو عشائر عربية بل قد توجد هذه العائلات بكثرة في مختلف القرى ولكن العنصر الغالب هو العنصر البربري المنتمي إلى قبيلة زناته، فسكان ميزاب ليسوا مجموعة جنسية ولكنهم مجموعة دينية قبل كل شيء، فالدين وحده هو الذي كون في هذه المجموعة تلك الخصائص التي قاومت بها جميع التحديات وأعظمها _فيما نرى_ الطبيعة القاسية، وقد قال أحد المؤرخين إنه لا

---

[1] – وهي أيضًا "مْزاب" من دون ياء، ويعتبرها الكثير من الدارسين التسمية الفعلية والأصلية.

[2] – ينطق حرف الزاي مفخمًا في الكلمتين المزابيتين معًا.

تكفي الإرادة البشرية القوية ولا المعجزة فوق البشرية لتكوين حضارة في هذه الطبيعة القاسية العاتية لو لم يصحب هذه الإرادة الإيمان بالله، فالإرادة البشرية مهما قويت لا تستطيع أن تصنع معجزة إذا لم تصدر عن الإيمان، وهذا ما حدث بالفعل في وادي ميزاب.

تَاجْنِينْتْ أو العَطف[1]

لا نستطيع على وجه التحديد معرفة تاريخ تأسيس قرى الوادي بدقة، إلا أننا نرى تسجيل ما تواطأت أو توافرت به الروايات وهو أن العطف أو تَاجْنِينْتْ هي أقدم القرى الموجودة حاليا، وتكاد الروايات تتفق أن تأسيسها كان سنة 403هـ على أن هذه الروايات تُنكر أن " أَغَرمْ نْ تَلَزْضِيتْ "[2] عُمِر منذ 92هـ أي قبل العطف الحالية بقرنين ونصف، وتذكر كذلك أن قصر "أُوخِيرَة"[3] قد عاصر تَلَزْضِيتْ وأن خراب أُوخِيرَة كان على يد رجل يسمى بَالَّة، وتقول رواية أخرى أن تخريب قصر أُوخِيرَة كان يوم عيدٍ على يد سكان تَلَزْضِيتْ، ويؤكدون هذه الرواية بعادة فتح الصومعة للصبيان يوم عيد الفطر وقت الصلاة فيصعد الصبيان غير البالغين للصومعة ينادون الناس للصلاة لكي يوهِموا كل من يتربص وقت صلاة العيد لينقض على البلدة، فإذا انصرف الناس من الصلاة انزَلوا الصبيان من الصومعة فقد انتهت مهمتهم الإستراتيجية، هذه رواية الشيخ عبد الرحمن[4] عن السيد بوكابوس سليمان بن بهون[5] الذي عمَّرَ مئة وتسعة عشر عامًا.

---

1 - وتكتب "تَجنينت" أيضًا.

2 - "أغرم" هو: القرية، و"تلزضيت" هي: الصُّوفَة، وتوجد آثارها جنوب بلدة العطف الحالية بنحو 2كم.

3 - لم يبق من آثار هذا القصر إلاّ المسجد والمقبرة التي بجانبه، ويقع مقابل قصر العطف الحالي على ضفة الوادي.

4 - هو: الشيخ عبد الرحمان بن عمر بكلي أحد أركان الحركة الإصلاحية بالجنوب، من بلدة العطف، وقد سكن بريان وحمل لواء الإصلاح فيها، أديب وخطيب مصقع، ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج3، صفحات 521 وما بعدها.

5 - هذا العلم من "آل الحاج إبراهيم" من عشيرة "آت الحُجَّاج" من بلدة العطف لأن هذه الكنية خاصة بهم فقط.

ومما يقال ويكاد يكون متواترًا أن أهل العطف كانوا معتزلةً من أتباع واصل بن عطاء وفي هذه النقطة لا نملك أدلة قاطعة على هذه النقطة بالذات، إلا أنه يقال إن وجود مسجدين بصومعتهما منذ القديم مع عدم وجود أي من ذلك في كل قرى الوادي دليل يؤيد هذه النظرية، ونكتة أخرى أريد أن أسجلها هنا هي أن مقبرة "بَالَّه وَمْسَلَّمْ"[1] وهي التي يقال أن فيها قبر سليمان بن عبد الجبار المعتزلي وهي قريبة من "بَاب الْخَرَّاجَة"، بالرغم من وجود عدد كبير من العلماء المتأخرين مدفونين فيها، وبالرغم من وجود مصلى لا يقل اتساعا عن مصلى "الشيخ بَلْحَاجْ"[2] فإن مقابر الشتاء لا تعقد فيها بل تعقد في مصلى آخر بعيدا عن هذا فما السبب في هذا ؟!

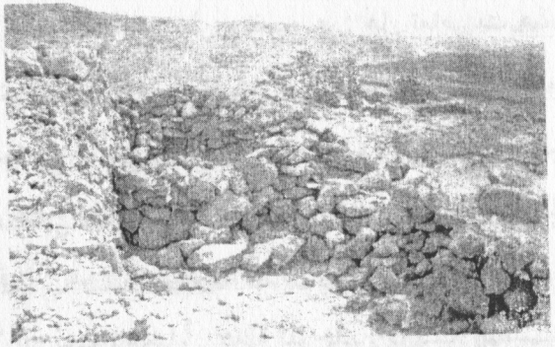

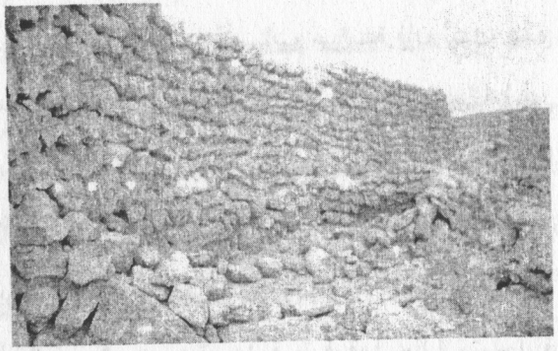

الصورتين:
من آثار "أَغَرمْ نْ تَلَزْضِيتْ" وتقع 2كم جنوب بلدة العطف الحالية، وهي تطل أيضًا على "سد أحباس".

---

1 - توجد أسفل القصر الحالي من جهته الغربية، وفيها ضريح بارز يقال أنه لسليمان بن عبد الجبار المُعتزلي.

2 - هو: الشيخ بلحاج بن كاسي القراري نزيل العطف ودفينها من العلماء الأعلام ومن تلاميذ عبد العزيز الثميني.

وهذه النكتة وإن كانت بسيطة إلا أنها تقوِّي احتمال نسبة هذه المقبرة إلى المعتزلة، ومما يستأنس به في هذا الباب ما دُمنا نفتش عما يؤكد نظرية وجود المعتزلة في العطف وجود اسم " بَالَّه "، ومن الممكن أن يكون " بَالَّه " الذي خرب أُوخِيرَة هو "بَالَّه وَمْسَلَّمْ " ولذلك لم يريدوا أن يعقدوا فيه معروف المقبرة في الشتاء لأنه قد يكون مات من غير توبة، والله أعلم.

ملاحظة أخرى، إن المعتزلة قد وُجدوا بِتَجنِينْتْ منذ زمن بعيد ولهم فيها مقبرة، وفي "آتْ مْلِيشَتْ" أيضا مقبرة لهم، والتي توجد في أدنى القرية العليا الحالية ويقال أن مقبرتهم تسمى "بَالَّه"، واسم باله موجود كذلك في "مْلِيكَه" إلى الآن، ولا يوجد في غير مليكه والعطف، ثم إننا إذا رأينا كثرة القرى الخربة حول القرى الحالية وجدنا أنفسنا في حيرة، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل تعاصرت هذه القرى؟ أم انتقل أهلها إلى القرى الأخرى من اختيارهم أو لأسباب طبيعية أو اضطروا في حلبة الصراع لينتقلوا إلى موضع جديد أو أبيدوا وتركوا بيوتهم خاوية؟! هذه كلها احتمالات تحتاج إلى بحث لتدعيم النظرية التي نختارها، وهناك من يقول إن أبا إسحاق الميورقي[1] هو الذي خرب ثلاثين قرية في وادي ميزاب، وهذه نظرية لا تكون حجة إلا إذا ثبت تاريخيا أن دولة الموحدين دولة إباضية أخفت اسم مذهبها لأسباب سياسية فإن ثبتت هذه الحقيقة التاريخية فإن الميورقي من المحتمل أن يكون قد خرب هذه المدن انتقاما من الموالين للموحدين، ولا بأس بسرد هذه القرى على حسب ما نجد من معالم وأثار، فعن العطف توجد: "قرية الصُّوفَه" أو "تَلَزْضِيتْ" و"أَغَرم نُولَوَالْ" و"أُوخِيرَة" زيادة على القرية الحالية، وفي بني يسڤن توجد قرى "بَحْيَاوْ" و"مُمُو" و"تِرشِين" و"تَافِيلاَلَت" المتصلة بالمدنية الحالية، وفي بنوره توجد قرية فوقها خالية وتوجد قرية أخرى تسمى "بُوعَزُّون"،

[1] - هو: يحي بن إسحاق الميورقي، المعروف بابن غانية، الذي خرب سدراته من بلاد وارجلان سنة 626هـ/1229م.

وأخرى تسمى "تِغْزَرتْ" وهذه الأخيرة ذكرها أحد المؤلفين الأوروبيين، وفي ملكية توجد قريتان أحدها هي "تِمِيزَارْتْ" التي يقال أنها قرية للمعتزلة والثانية "أَغَرمْ أَوَّادَّاي"[1]، في غرداية يوجد قصر "بَابَا السَّعد" وقصر "الضاية" القديم.

ويؤيد من يقول بغزوة الميورقي إلى ميزاب نظريته بتسمية الجبل الذي يَمر به طريق السيارات الحالي إلى العطف "أَوْرِيرْ أَنْ مُورْكِي"[2] مقابل بُنُورَة، وهناك من يقول إن العطف الحالية كانت فيها قريتان ومسجدان ثم امتد العمران حتى اتصلت القريتان وأصبحتا قرية واحدة ذات مسجدين، وهذه النظرية يرفضها العرف الموجود في ميزاب قديما، فقد يسمحون لقرية أن تنشئ مسجدا ثانيا ولكن لا يسمحون بقيام صومعة، وسيأتي الكلام مفصلا في العرف المتبع في إنشاء الصوامع.

وهناك جانب مهم يتعلق بهذا البحث هو: هل تأسيس القرى الموجودة الآن والتي انفردت كان على يد الإباضية في أول الأمر، أم وجدت هذه القرى قبل وصول المذهب الإباضي إلى شمال إفريقيا؟!، ولا يقدح طرح السؤال في كون سكان ميزاب من قبائل زناته البربرية، فهذا أمر مُسلَّمٌ به لدى الجميع، فإن قلنا إن هذه القرى كانت عامرة بسكانٍ بربر كانوا مسلمين فقط أو كانوا وثنيين أو كانوا مسلمين معتزلة، وإن الإباضية نزحوا إلى هذه المنطقة يحملون معهم أصول مذهبهم ويتزلون على بني عمومتهم فيؤوونهم بدافع الحمية ثم يدعونهم إلى المذهب وينتهي الأمر باعتناق سكان المنطقة للمذهب الإباضي والتمسك به.

والنظرية الثانية تقول: إن هذه القرى الموجودة الآن أسَّسها الإباضية يوم فروا من سدراته بوارجلان بعد حملة الميورقي، وإنه لا وجود للحياة في هذا الوادي

[1] - تقرأ هذه العبارة متصلة، وتفيد بالعربية "القرية السُّفلى"، وعكسها "أَجَنَّا" أي القصر الأعلى أو القرية العلوية.

[2] - أَوْرِيرْ هو: الجبل بالمزابية.

قبل الإباضية، وأنهم تحدُّوا الطبيعة واختاروا هذه الشبكة القاسية ليطمئِنُّوا وليكونوا بعيدين عن غارات الطامعين.

إن لكل من النظريتين أنصار ولكنهما تحتاجان إلى بحث عميق حتى يمكن لنا أن نرجح ونطمئن إلى آرائنا فيها.

ويمكننا أن نجمع بين النظريتين بأن نقول مثلا: إن المنطقة كانت مأهولة بالقرى المتناثرة هناك وهنا، فلما وفد الإباضية بعد هزيمتهم في وارجلان ووادي أريغ آواهم بنو عمومتهم، ولكنهم أسسوا القرى الموجودة الآن على كيفيات منظمة، وأعجب السابقون بهذه التنظيمات التي لابد أن تكون أعرق في الحضارة والعمران وأصبحوا ينتقلون إلى القرى الجديدة فأخلاها السكان وسكنوا القرى الجديدة، وبهذا نستطيع أن نحترم نظرية القائلين بعمران ميزاب قبل وجود الإباضية فيه والقائلين أن هذه القرى الموجودة الآن أسسها الإباضية لأن معمارها وأنظمتها لا يمكن أن تكون بدائية ولا دخل للمصادفة في كل ما نراه من بناءات.

أسماء القُرى وتعريبها

إن نظرة بسيطة على أسماء القرى قد تبعث فينا حيرة ودهشة وهي: لماذا تسمى غرداية باسم عربي وسكانها بربر؟! لماذا لا تسمى غرداية "تَغَرْدَايتْ" كما يسميها سكانها وكل الميزابيين؟!، وهو سؤال يمكن أن يطرح لكل قرية من القرى الأخرى، والجواب كما نرى يتخلص في نقطتين، هو أن المزابيين لا توجد بينهم وبين اللغة العربية أي فجوة فهم معتزّون بها ويتعاملون بها ويؤلفون، لأنهم يعتبرونها لغة الإسلام الرسمية فهي جزء من كيانهم مثل الدين الإسلامي الحنيف، فهم في كتاباتهم القديمة كانوا يعربون هذه الأسماء، وإن كانوا في الاستعمال البربري يذكرونها بانبربرية، ولذلك لم يحاولوا يوم وقع احتلال ميزاب أن يتعصبوا للأسماء البربرية و لم يعيروا لهذه القضية أي اهتمام، ثم إن تهربهم من العمل كموظفين بِجيش

الاحتلال قد ترك الفراغ لغيرهم من جهة أخرى، وإن كانت هذه التصرفات لم تضرنا كثيرا مثل ما أضرَّ بنا اتصال الفرنسيين بهؤلاء الناس، فكانت هذه المجموعة من التشويهات التي تحوم حول أسماء القرى كالقصة التي اختلقها الفرنسيون حول "غَار دَايَة" وأنها امرأة كانت تسكن هذا الغار وأن رجلا عابرا مر بها وتزوجته.. إلى آخر الحكاية المفضوحة المختلقَة، فهذا الغار يسمى "لاَلَه سَاهْلَه" فلماذا يُعطى له اسم "دَايَة"؟! ولماذا تبقى في جبل وحدها والمنطقة تكاد الحياة تكون فيها مستحيلة؟!! ثم إن الأسطورة تقول أنها عجوز فكيف يمكن أن تلد؟!!! ثم إن المفروض أن اسم غرداية يكون للقرية القديمة فكيف يوجد الغار في القرية القديمة والفرنسيون يسمون في كتاباتهم قرية الضاية (daia) باسم هذه المرأة، فيكتبونها (daia ben dahoua) إلى غير ذلك من المتناقضات التي يُلفقونها، ومن الغريب حقا أن هذه الأسطورة أخذت تستقر في أذهان الكثيرين ويأخذونها بدون بحث ولا تروي، وقُل مثل ذلك عن مليكة ويترجمون لها (reine) مع أنه لا وجود لأي ملك ولا ملكة!!، ثم لماذا يكتبونها مْلِيكَه ولا يكتبونها مَلِكَة إذا كانوا يقصدون مؤنث الملك، إلى غير ذلك من الخُزعبلات، وقل مثل ذلك عن بني يسڤن إذ يقولون: "ابْنِ وَاسْكَنْ"!! وبُونُورَه مأخوذة من النور la lumineuse.

الخلاصة أن تعريب الأسماء كان عفويا قبل الفرنسيين وفي أول استقرارهم، ولكن التفسيرات التي ابتكرها الكتاب الفرنسيون أو أخذوها من المخازنية[1] الجهلة هي التي شوهت الحقائق واختلقت أشياء من قبيل الأساطير، وهذا الاختلاق مقصود ومُبيَّتٌ وهادف، ولو ذهبنا نُعدد الطعنات التي سددها الكُتاب الأجانب لتاريخنا لكتبنا كتابا مستقلا في هذا الموضوع، ولعلنا سنعقد فصلا لهذا الموضوع

[1] - هو: لَمْخَازني، أمين مكتب أو كاتب بأجرة عند الفرنسيين.

المهم، ولسنا وحدنا في هذا الميدان فهذا جزء من حملة التشويه التي قادها المستشرقون ضد الإسلام في كل أرض.

وقبل الخوض في الأسماء وأصولها، تمتَ شيء هو أن أسماء القرى لم يكن بالعربية إلا مؤخرا، وقد جرى دهورا قبل ذلك بكل عفوية من طرف سكان مزاب الذين لا يعتبرون اللغة العربية إلا جزءا من الإسلام، ولكن جدال الكتاب الأوربيين الذين كتبوا عن ميزاب اختلقوا أساطير حول كل قرية إما بقصد الطعن وإما حبًّا للإغراب كما هو الأعم الأغلب إذا كانوا يكتبون عن بلد في مجاهل الصحراء، حتى يظهروا عند مواطنيهم في أوروبا من الرواة أو المكتشفين فيكسبون بذلك أشرف الألقاب.

وإذا أردنا الرجوع إلى المنطق المعقول فإننا يجب أن ننظر إلى هذه القرى وننعتها بأسمائها البربرية كما لا يزال سكانها يسمونها اليوم، ثم نحاول أن نبحث عن مدلول هذه الأسماء، وإذا لم نجد لها تفسيرا أو مدلولا اقتصرنا على تحقيق الأسماء وأمسكنا عن التعليل فإن الأسماء لا تُعلل.

1- تَاجْنِينْتْ: واللفظ القريب لها بالبربرية هو " تَاڤْنِينْتْ " وهو الإناء الذي يُصنع من سعف النخل ويطلى من داخله بالقطران ليستعمل بعد ذلك للماء أو اللبن، أو تاجنيت هي اسم لَلجْنِينَة أي الحديقة الصغيرة وفي بعض الكتابات القديمة يقول أحد الشعراء: "حازت الفضل عنهم تاجنينت"، أما بالعربية فتسمى العطف أو العطفاء وذلك لأنها جاءت في أحد منعطفات وادي ميزاب.

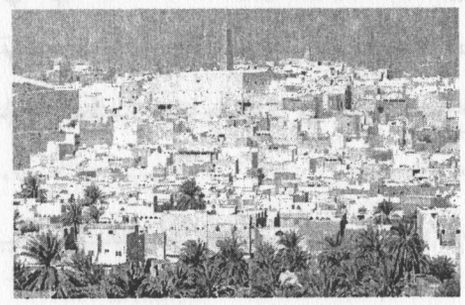

* "أَغَرمْ نْ تَجْنِينْتْ" القصر الوحيد ذو المسجدين، وفي الصورة تظهر مئذنتي المسجد "العتيق" و"أبي سالم".

2- آت امْلِيشَتْ: وهو الاسم البربري لِمْلِيكَة وهو اسم لقبيلة بربرية سكنت هذه القرية ويقال أنه توجد هذه القبيلة إلى الآن في نواحي "إِيغِيل عْلِي" من بلاد القبائل الصغرى يقال لهم بالقبائلية "مْلِيكَشْ" فلا وجود لملكةٍ إلا في خيال الأوروبيين أو روادهم من الَمْخَازْنِيَّة المرتزقة.

3- آتْ بُنُورْ: وبُنُور اسم لجد إحدى القبائل التي تنتمي إلى زناته، أو هو اسم لـ"سيدي بَنُّور" الذي يطلق في عاصمة الجزائر على مقبرة بني ميزاب، هذا ومن المعلوم أن لفظ آت أو آيت أو نايث هي بمعنى آل باللغة العربية، وإن كان النون في أول "نايث" يدل على إضافة ما قبله للفظ "آيت" وهذا مشهور.

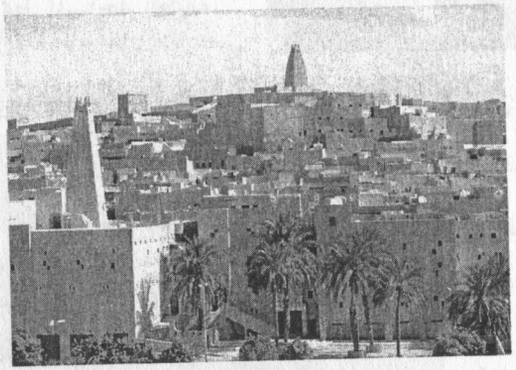

"أَغَرمْ نْ آتْ بُنُورْ" المسجد السُّفلي بُنِيَ حديثًا على عهد نشاط الحركة الإصلاحية[1].

4 - آت بَسْڤْنْ أو مَسْڤْنْ: اسم لهذه القبيلة، ويذكر ابن خلدون أن أبناء هذه القبيلة هم الذين بنوا مدينة وهران، كما أنه توجد في ناحية عين الفكرون قرب قسنطينة قبيلة شاوية وهم كما هو معلوم من زناته يسمون "السڤنيَّة" وفيهم أولاد خالد و"أولاد عْنَانْ" و"أولاد موسى" وهذان الأخيران هما العرشان الكبيران في بني يسقن الآن أما أولاد خالد فهم في فرع "أولاد عْنَانْ"، والفرع الثالث الذي تتفرع إليه البلد مع الفرعين السابقين فهم "أولاد يَدَّر" و"أبي إسماعيل".

---

[1] - كل الصور والتعاليق التي تحف الرسالة هي من وضعي، وقد جاءت أساسا لتثري الموضوع ولتزيل بعض الغموض الذي قد يلفُّ القارئ الذي لا يعرف "واد مْزاب" وهذا للتشابه الكبير في هندسة قصوره..

5- تَغَرْدَايتْ: وهو بالبربرية اسم لواحة على جانب الوادي وتسقى به، فلا داية ولا غار إلا في خيال المستشرقين، والغار الذي يحوكون حوله الأساطير هو "لالة ساهلة" وقد سبق الكلام في هذا الموضوع في الرد على الطعن الذي أرادوا أن يلحقوه بمؤسس غرداية وعلاقته بـ"داية" الأسطورية.

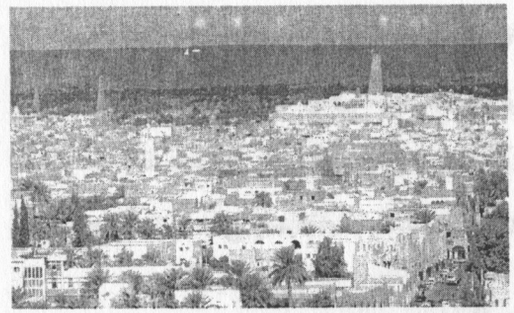

* "أَغَرمْ نْ تَغَرْدَايتْ " يمين الصورة المساجد الأخرى جاءت مع التوسع العمراني للمنطقة، وقد آثر أصحابها إقامتها على نمط المساجد العتيقة..

6- بريان: فهو إما "بَرّْ رَيَّان" وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة أو إضافة هذا البر إلى اسم أحد السابقين وهو ريان، أو هو بئر ريان، وأضعف ما سمعت أنه اسم بربري وهو أمريان كاسم أب الشيخ أبي صالح جِنَّون بن إمريان، فهو: "بر إمريان" ثم حذفت الميم للتخفيف.

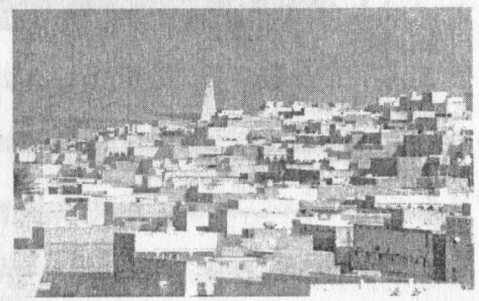

"أَغَرمْ نْ آتْ اِبَرْڤانْ " أو "بَرَّيان" قصر تغذيه كثير من الأودية منها: "السودان"، و"بالُّوح"، و"الزرڤي" و"المداغ".

7- الَڤرَارَة: وهو باللغة الدارجة جبل صغير، ويقال أيضا لهذا الجبل الصغيرة: الڤارة، كما يقال: "ڤارة الطعام" و"حاسي الڤارة"، وقرب الأغواط توجد مجموعة من هذه الجبال الصغيرة يقال لها: "الڤرارير الحمره" وهو جمع للقرارة،

ومن أغرب ما سمعت أن القرارة اسم لقبيلة اسمها بالبربرية "زڤرارة" ومنها اشتق "واد زڤرير" وهذه القبيلة مذكورة في تاريخ ابن خلدون.

وعلى ذكر القرارة يحسن بنا أن نشير إلى نقطة جديرة بالذكر وهي وجود قريتين أثريتين بجانبها إحداها تسمى "القصر الأحمر" لا تزال بها أثار مباني منهدمة وهي على الجبل المشرف على المنطقة الصناعية حاليا، سكنها أهل العطف ـيقال ـ، والثانية موجودة قبلة الغابة بين منطقة "بَهَدِّي" والسد المسمى "سَد الفُوسَاعَة" تسمى هذه القرية "الَمْبَرْتَخْ" أو "أَغَرمْ نْوَادَّايْ" أي القرية السفلى، ولم يبق فيها أي أثر سوى بعض القبور، ويقال أن سكانها كلهم من عشيرة أولاد بَاخَّه من غرداية، ولكن هناك من يقول أنهم انتقلوا من غرداية مباشرة إلى القرارة، وآخرون يقولون إنهم سكنوا فترة في الأغواط ثم نزحوا منها إلى القرارة الحالية.

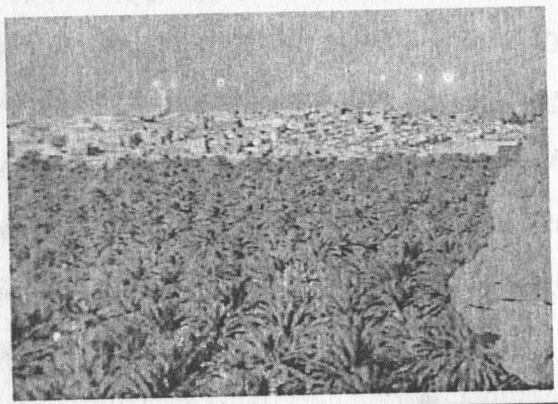

* القرارة من وراء واحاتها

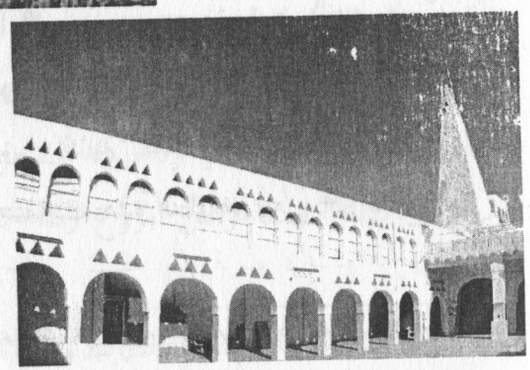

* صحن مسجد القرارة ومئذنته.

هذه النقطة بالذات تحتاج إلى كثير من البحث والتمحيص حتى نستطيع أن نطمئن إلى التاريخ المحدد الذي يحفظ، فكل الناس يجمعون على أن العطف هي أقدم القرى وأنها أسست في 402هـ ثم تتابعت القرى في خمسين عامًا، قبل الحديث عن القرى الموجودة أو المذكورة وكيف يمكن أن نوفق بين هذه التواريخ ووصول الشيخ أي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي[1]، وما قيل من أنه وجد أهل العطف معتزلةً فدعاهم إلى المذهب الإباضي حتى رجع أكثرهم في حياته، ومن المعلوم أنه عاش إلى 445هـ فكيف يمكن لقرى أسست في 403 أن يكون بها السكان بعدد يحتاج إلى وجود عالم يدعوها إلى مذهب غير مذهبها، والمدة لا تكفي لأن تزدهر القرية وتعتنق مذهبا ثم تنتقل إلى مذهب آخر في أقل من نصف قرن؟!!.

ولكي نخرج من هذا الإشكال يجب أن نفترض مثلا أن سكان أُوخِيرَة أو تَلَزْضِيتْ كانوا معتزلة فجاءت أول دفعة من الإباضية بعد أن قرروا الالتجاء إلى هذه النواحي فبنوا قرية العطف الحالية وجعل الشيخ "عمي امحمد"[2] يدعوا إلى المذهب الإباضي سكان القرى الأخرى المجاورة، وهذا الفرض قد لا يستقيم إذا تحققنا أن مقبرة "بَالَّه وَمْسَلَّمْ" مقبرة معتزلة، فليس من المعقول أن تبعد المقبرة عن القرية بأكثر من 3كيلومترات بالنسبة لقرية تَلَزْضِيتْ، أما بالنسبة لقرية أُوخِيرَة فإن مقبرتها بجانبها.

وإذا أردنا أن نجمع بين هذا الفرض ووجود مقبرة في "بَاب الْخَرَّاجَة" تنسب إلى المعتزلة، فلترد فرضا آخر هو أن العطف الحالية تشتمل قريتين متجاورتين إحداهما كانت حول المسجد العتيق والثانية كانت حوالي "تَاقْرْجُونْتْ" أو "تَزَارِينْ"، فإذا رَجَّحنا هذا الفرض استقامت هذه النظرية، وهي أن الشيخ عمي

[1] - هو الشيخ واضع نظام العزّابة وأصله من فرسطاء بجبل نفوسة، كان يزور مزاب وله روضة بالعطف إلى اليوم.

[2] - هو نفسه الشيخ أبي عبد الله، ويعرف عند العامة بـ"سيدي امحمد السايح".

امحمد وجد قرية معتزلة وهي إحدى القريتين فنزل في قرية الإباضية التي أسست حديثا وصار يدعو أهل القرية القديمة إلى المذهب حتى تم انضمامهم للإباضية.

هل جاء المزابيون دفعة واحدة أم في فترات؟!

وهذا السؤال جدير بالجواب أو بالبحث حتى نرى كيف يمكن أن نجيب عنه جوابا نطمئن إليه ويتساوق مع الحقيقة، وقبل أن نبحث عن الجواب نزيد بعض أسئلة تتعلق بالموضوع وتوضحه في آن واحد، هو: هل كان مجيء الإباضية بقرار سبق بعد خطة مدروسة أو أنهم جاؤوا فُلُولاً هاربين بعد هزيمتهم في وارجلان وسدراته؟! وهذا السؤال كذلك يتصل بما سبق أن باحثناه في موضوع تأسيس القرى، هل كان على يد الإباضية أم أن قبائل زناته هي التي سبقت وكونت قرى والتجأ إليها الإباضية بعد وصولهم من وارجلان وسدراته ووادي أريغ؟!! ونحن ما دمنا نبحث نبدأ بما حفظناه في هذه النقطة، ولننظر هل هناك تعارض منطقي بين ما يروى لنا وبين الموضوعية أو المنطق، يقول أغلب الكبار إن وادي ميزاب أسسه الإباضية بعد مجيئهم في فترة تتراوح بين أربعين إلى خمسين سنة، ويقول أحد المشايخ إنهم اجتمعوا في وادي أريغ بعد خراب الكثير من مدنه فقرروا بعد مشاورات في مؤتمر "بْلِيدَة اعْمَر"[1] أن يستوطنوا وادي ميزاب لمناعته وقساوة طبيعته ووجود قبائل من بني عمومتهم.

وقال أحد الباحثين إن قرى وادي ميزاب كانت موجودة منذ القرن الأول وطيلة عهد الرستميين، وبعد انقراض الدولة الرستمية وكانت العلاقات بين سكان هذه القرى وسكان آفلو وتَاجْرُونَه والبيَّض وسْعِيدَه إلى تيهرت وتلمسان فهذه القرى كلها كانت مواطن لفروع زناته الذين تنتمي إليهم قبيلة مُصاب، وبعد

[1] - توجد قرب تُقّرت الحالية وتضم الغار الذي كان يرابط به الشيخ أبي عبد الله الفرسطائي، وبها أيضًا ضريحه.

انقراض الدولة الرستمية واستحالة إعادة الدولة في وارجلان رغم ازدهارها نزح الإباضية إلى بني عمومتهم في وادي ميزاب وكوّنوا النظم الاجتماعية التي حفظت كيانهم إلى اليوم، بعد أن تحصنوا في هذه القرى تساعدهم الطبيعة القاسية وشطف العيش والجبال الصحراوية القاحلة على حفظ كيانهم، وكل هذه الآراء لا تتعارض ويمكن الجمع بينها فهي لم تحدد لنا تاريخنا وليس لنا على وجه التحديد إلا غزوة الميورقي في سنة 624هـ كما ذكر المؤرخون، فلنحاول ترتيب هذه النظرية على نحو منسجم لا تعارض فيه.

ولعل الكثير من أبنائنا أو من إخواننا الذين رأوا في التنظيم القبلي طابعا من البدائية ونادوا بوجوب إلغائه لأنه لا يتلاءم وروح العصر، وهذه فيما أرى نظم سطحية قد تبدو أول مرة مقبولة عقلاً ولكن الذي درس المجتمع الميزابي ورأى كيف استطاع هذا المجتمع المسلم أن يستفيد من هذا التنظيم بدون أن يحترق، بما قد يكون فيه من خطر الفتن العمياء التي قد تثور بين أناس لا ينتمون إلى الإسلام إلا بألسنتهم، أما المجتمع المسلم الذي يؤمن بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلكم لآدم وآدم من تراب" فلا يجد في هذا النظام إلا الخير والسعادة.

ولكي أوضح نظرتي أذكر حقيقة تاريخية تدل على مدى تبصر أجدادنا وسادتنا والتزامهم بحرفية القرآن الكريم أنهم قبلوا انضمام أي إنسان مسلم جاء يطلب الانتماء إلى عشائرهم، فهناك مثلا في غرداية قبيلة بني مَزْزُوف كانت دائما وأبدًا ضمن عشيرة أولاد الحاج مسعود، وفي العطف نجد أولاد يعقوب الذين نزحوا إلى وادي ميزاب من آفلو نزلوا في عشيرة "أولاد الحجاج" بالعطف، ونجد "آل بُوستَّه" نزلوا في عشيرة "أولاد بَاكَّه" بالعطف، بل إن في هذه العائلة أخوان لأب وأم أحدهما يصلي مع الإباضية وهو من جماعة حفاظ القرآن التي تقدم ذكرها، بينما نجد أخاه الشقيق يصلي مع إخواننا المالكية في مسجد أبي بكر

الصديق وهذا لم يؤثر إطلاقا في علاقتهما العائلية، ولو ذهبت أسرد الأمثلة لطال بي المقام وذلك أني أريد أن أؤكد أن تخوف الكثير من العصريين من وجود هذا النظام تخوف لا أساس له، وسنذكر قبل أن ننهي هذا الباب الحسنات التي لا نزال نجنيها في هذا النظام، وملاحظة أخرى أريد أن لا يفوتني ذكرها في هذه العجالة هي أن هناك عشائر متفرقة في كثير من القرى وتنتمي كلها لجد واحد، وعشائر أخرى انفصلت عن بعضها وعشائر انتقلت من قرية إلى قرية أخرى واتخذت اسما جديدا في مقرها الجديد، وعائلات كانت منتمية إلى عشيرة فانتقلت إلى عشيرة أخرى تحت تأثير ظروف عارضة، ولَهذه كلها أمثلة واقعية نتحاشى ذكر كل التفاصيل لما قد نثير من حساسيات قد يكون من المفيد أن لا نذكرها، ولربما عدنا لها إذا ما أشير علينا بذلك بحول الله.

وقبل أن نتعرض للدور الذي لعبته العشيرة في وادي ميزاب في عصرنا الحاضر يحسن بنا أن نعود قليلا إلى تاريخها ودورها الاجتماعي[1].

تأسيس القرى ومعمارها

لعل أروع أثر موجود استرعى انتباه المعاصرين سيما المعماريين الأوروبيين منهم: هو هذه الهندسة التي شيدت بها هذه القرى في مجموعٍ والتوزيع المنظم الهادف لمرافق القرى حسب متطلبات أو حاجيات الإنسان وحده، وإذا قلنا هذا في القرى فإنه يظهر في الدُّورِ أكثر فأكثر، فمن المستحيل أن تكون الدُّور أو المدن بنيت اعتباطا هكذا بدون تفكير ولا تخطيط، والهندسة المعمارية ـ كما هو معلوم ـ تعبير عن نوع من المعادلات وكل ما وجده الباحثون من الميزات في القرى أو في الدُّور يوحي بأن وراء هذه الروائع عقولاً حصيفة ذات مستوى حضاري في أرقى مراحله، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون فيها للصدفة أثر، ويقول البعض

[1] - سيأتي الحديث مفصلا عن العشيرة ودورها الاجتماعي في مزاب، وإن شئت عد إليه في مكانه من الكتاب.

سيتقدم الفن المعماري ويتقدم ولكنه سيجد أمامه هذا الفن الموجود هنا، وما من شكل أو قاعدة هندسية تخضع لها قوانين المعمار في ميزاب إلا ولها ما يسندها في هذا الفن، فلا دخل للصدفة في كل ما نرى وسنسرد ملاحظات وجدت عندنا وأثارت إعجاب المعماريين المعاصرين.

أولا: توزيع القرى.

1- كيف وزع المزابيون قُراهم على مساحة عشرين كيلومتر عوض أن يبنوا مدينة واحدة كبيرة يضعون فيها كل إمكانيتهم ويجمعون فيها جهودهم؟! إذ هم في حالة دفاع أو فرار من عدو يتوقعون دائما ملاحقته لهم؟! أهو الصراع القبلي؟ لا، لأن لهم عقيدة واحدة ومذهبا واحدا اعتنقوه وجاءوا إلى هذا المكان القاحل واختاروا أن يسكنوه.

والجواب الذي اختاروا لهذا التوزيع هو أنهم وزعوه حسب الأرض التي تكفي لزراعتهم فالمساحات التي أخذتها القرى متقاربة فلو أنهم تجمعوا في مكان واحد لبُعدت المسافات بين قريتهم ومزارعها، وفي هذا ما فيه من إضاعة الوقت اليومي للعامل، وهذا ما يرمي اليوم المعماريون من عدم توسيع المدن فإن حياة الإنسان تكاد تكون سجنا في كبريات المدن بالعكس في القرى والمدن الصغيرة.

2- لماذا يبنون على الجبال ولا يبنون في الأرض السهلة؟! والجواب هنا بسيط، أولا: ضرورة الدفاع، ونكتة أخرى هي: المحافظة على الأرض التي يمكن زراعتها، فلا يمكن أن نأخذ من المساحة القليلة المستغلة زراعيا ولو مقدار ما تبني بها دارا، وإذا قلنا ذلك في توزيع الأراضي فلنقل ذلك في توزيع فروع الأودية التي أعطيت لكل قرية.

وإذا جئنا إلى داخل كل قرية وجدنا نظاما واحدا متبعا في كل القرى وهذا ما يوحي أنه كانت وحدة مسيرة لكل القرى.

1- البدء دائما بالمسجد في أعلى قمة من القرية هو بناء هادف ودليل قاطع لما في نفوس الناس من تقديس للمسجد وإعطائه الأولوية في البناء والرفعة الحسية في المكان وتسمية صومعته بالحارس "أَعَسَّاس"[1].

2- السوق: وما حوله هو وحده منتدى الرجال ومركز الحركة، ولا يمكن لأي إنسان كان أن يفتح في داره دكانا أو أي مركز للحركة، وهذا ما يفعله المعماريون اليوم في المناطق السكنية المبنية حديثا فلا مرور للسيارات .ولا أي دكان داخل التجمعات السكنية بل تُجمع كل الحركات الاقتصادية سيما التجارية منها في مكان واحد.

3- تضييق الشوارع وبعض التواءاتها في حين أنه يمكن أن تتخذ الشوارع خطًّا مستويا، وهذا فيه اختصار للمساحات وتشويش على الأجنبي الذي لا يعرف القرية.

4- السقائف: وفيها كسب مساحة من جهة وتخفيف لحرارة الشمس في الشوارع، وفسحة لبعض المناسج التي لا يمكن أن تنسج في البيوت الضيقة.



* درب مسقّف بالعطف.

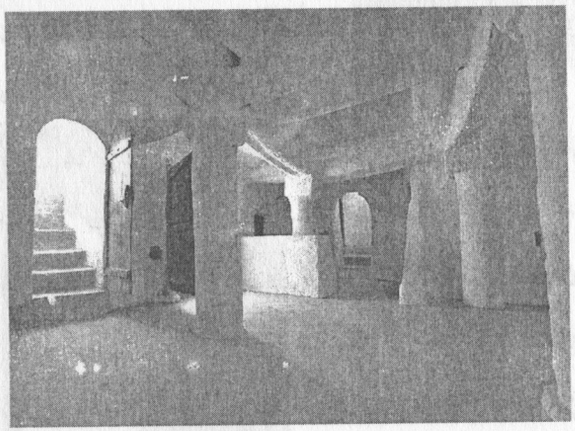

* منزل بمزاب ما يزال محافظًا على هندسته المحلية.

[1] - لما زُرت ليبيا صيف 2007 سألت سكان نفوسة عن الصومعة بالبربرية عندهم فقالوا لي هي: "تِوَتْرِيوِينْ".

وإذا جئنا إلى داخل الدُّور وجدنا الملاحظات الآتية:

1- إنه ليست هناك أنواع مختلفة من الدور بل شكل الدار واحد، قد يختلف اتساعا وضيقا تبعا لحاجة كل عائلة على حسب عدد أفرادها، أما العلو فهو واحد والشكل واحد، فليس هناك دار للغني ودار أخرى بشكل آخر للفقير، وهذا يدلنا دلاله صادقة على مدى المساواة التي كانت منتشرة بين السكان، وأول ما يستوقف نظرك في الدُّور هو الاكتفاء الذاتي في المواد أو سياسة الإمكانيات، فقد اختاروا مادة "تِمْشَمْتْ" وهي موجودة، والحجر الصغير وهو موجود ولا يحتاج التقاطه من الجبال أو اقتلاعه عناءً، والجريد والأخشاب من النخيل، وأكثر الأثاث الذي يحتاج في الدار مبنيٌّ اقتصادا في الخشب لأنه كان قليلا ونادرا جدا، فيصنعون أبواب الدور والحُجْرات بخشب النخيل، ولذلك يضيّقون الأبواب ويستغنون عنها في المطبخ والمرحاض وما لا ضرورة إليه، ويبنون مرتفعات من الأرض لوضع أمتعتهم والدكاكين[1] للنوم والصلاة.

وكل الدور القديمة التي رأينا والتي لا تزال بقايا منها موجودة تنطق وتعبر تعبيرا صادقا عن مدى ما استعمل الأولون من ذكاء في البناء على بساطته منها مثلا هذه المادة التي يبنون بها فهي لا تتأثر بالحرارة القوية ولا بالبرودة فنجد الدور التي بُنيت بها إلى اليوم باردة في الصيف دافئة في الشتاء، وهو ما يسمى اليوم _تكييف الهواء_ فهذه الدور لا تحتاج إلى تسخين أو تبريد، ثم إن هذه المادة نستطيع أن نبني بها جدرانا صحيحة بحجر صغير وهو موجود بدون عناء، ثم إن تصغير الأبواب يستجيب إلى شيئين أولا: التقليل من حرارة الشمس في الصيف ومن الضوء تبعًا لذلك والتخفيف من حدة البرد، ثم ثانيا: الاقتصاد في الخشب الذي كان نادرا أو غاليا.

[1] - ج دُكّانة: وهي مرتفع قليل من الأرض يبنى لغرض رفع أماكن الصلاة والنوم عن بقية أرض المنزل.

2- جعل الدور مفتوحة نحو السماء منغلقة عن الجيران يستجيب لمطلبين، أولا: أن النساء يقضين أكثر الأوقات في البيوت ولا يخرجن إلا قليلا فلابد لهن من فسحة واسعة يتمتعن فيها بالشمس، وقد رأينا حرصهم على مقدار من الشمس يدخل الدار لما للشمس من أثر على صحة السكان، ثم انعدام الشبابيك وتعويضها بِكُوًّى صغيرة جدا يعطى مثل ما تعطي النافذة من الضوء والهواء، ويحتفظ المحل بكل طقسه البارد في الصيف والدافئ في الشتاء، ثم إن انغلاق الدور يجعل الناس في سرية مطلقة في داخل دورهم فلا يراهم ولا يسمع أصواتهم أي جار ولا أي مارٍّ في الطريق، فالدور على شدة تقاربها تعطينا هذه الحرية والسرية التي ينشدها كل إنسان في بيته.

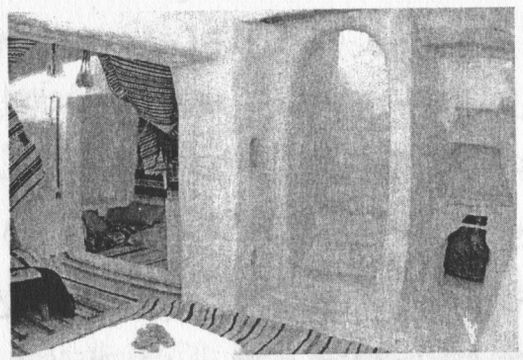

* إن البيت التقليدي في مزاب تعتبره المرأة المزابية "مَملكةً"، وهي تتنقل في أجوائه كالملكة، بحيث لا تحتاج معه إلى الخروج لأن كل شيء متوفر لديها.

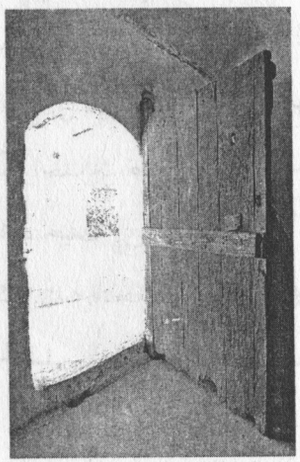

* في هذه الأرجاء الفسيحة تقضي المرأة أوقاتها في أعمالها المنزلية، وخلال فصل الصيف الطويل يُنصب المنسج التقليدي غير بعيد عن باب المنزل من الداخل في السقيفة، حيث يمر الهواء اللطيف الذي يُنعش الجو ويدفع الملل، وفي أبواب المنزل الرئيسية المصنوعة من خشب النخيل السميك كل الأمن، وهي مزودة "براتج خشبي" يسمى بالمزابية "الدَّوَّارة".

3- وإذا استنطقنا هذه المباني فإننا نخرج بنتيجة واحدة لا يختلف فيها اثنان من المعماريين الأكفاء، وهي أن وراء هذه الهندسة عقل عالم ومتتبع لقواعد هندسية معروفة لدى المهندسين المعاصرين، ولنضرب لذلك أمثلة على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، الأعمدة الأربع التي فوق الصوامع، أيمكن أن تكون جعلت للزينة؟ كلا إن المهندسين الميزابيين أعقل من أن يخاطروا بالبنَّاء الذي يخرج من نافذة الصومعة إلى سطحها من أجل الزينة فقط، بل إن الأعمدة إقتضتها هيكلة البناء وتقنيته وذلك لأن سقف الصومعة مُقبَّبٌ وفي غالب الأحيان يجعلون فيه زِيرًا من الفخار فهذا التقبيب يقتضى ثِقلاً لا على كل القبة بل على الأطراف الأربع للجدران، فلو نقوم ونترع من إحدى هذه الصوامع أعمدتها الأربعة فإنها تنحل في مدة قريبة وقد تسقط.

4- ولننظر نكتة أخرى في المساجد القديمة فنرى بالرغم من تقديس الميزابيين للمساجد فأبوابها لا تختلف في طولها وعرضها عن أبواب الدُّور وما ذلك إلا لأنها جعلت لدخول وخروج الرجال لا غير، وإذا كان المسجد كبيرا واحتيج إلى أن يجعل له باب ثاني فإنه يفتح، ولكنه لا يكون عاليا بل عاديا فلا حاجة لأي ارتفاع، فأطول الرجال قامة لا يزيد عن المترين وكل ما زاد عن قدر الحاجة فهو إسراف وتضييع، وقل مثل ذلك في سقوف المساجد فهي لا ترتفع أكثر من خمسة أذرع وذلك أدعى لطقسيتها (climatisation) ولتقليل النفقات، ثم ننظر إلى الكُوَّات التي توجد في كل المساجد وحتى في بعض سواريها، وكذا الرفوف، فكلها ذات منفعة لعُمَّار المساجد كوضع النوى أو الأحذية أو تعليق الملابس الخارجية، كل هذه وظائف نستغني فيها عن الالتجاء لجلب الأثاث من الخارج أو صنعه من الخشب الذي كان لا يزال نادرا، وأقل ما يقال في استغلال الأماكن الممكنة

للرفوف نقول إنه اقتصاد في المواد التي يبنون بها، وفي عُرف الاقتصاد "لا تحتقر القليل، فالبحار تتجمع من القطرات!!".

5- وما قلناه في المساجد نقوله في الدُّور فهناك كثير من الملاحظات تدلنا دلالة صادقة على التفكير العميق الهادف الذي صحبهم في البناء وكذلك خضوع البناءات لأحد قواعد الهندسة الهيكلية للبناء (le micanisme).

فأنت مثلا تراهم يجعلون الأقواس من الجهة الجوفية والجهة الشرقية والقوس الأخير الذي يتصل بالسور لا يجعلون فيه قوسا بل خشبة طويلة وهذه دالة على أنهم يعلمون أن القوس قد يدفع الحائط الخارجي كما يقرره الفنانون الآن (النارڤ).

6- والكُوَّة التي تكون بين قوسين ما مغزاها؟! إنها أولا تنفع لوضع بعض الأدوات الخطيرة كالمقص والموس والكبريت مما يجب إخفاؤه عن الصبيان، ثم هذا يدلنا على علمهم بالهندسة، فهم متأكدون أن الثقل الذي تحمله الأروقة أو الأقواس ينصب فوق السواري، وبالتالي فإن فتح هذه الكُوَّى بين الأقواس لا يؤثر في صحة البناء ولا يُضعفه.

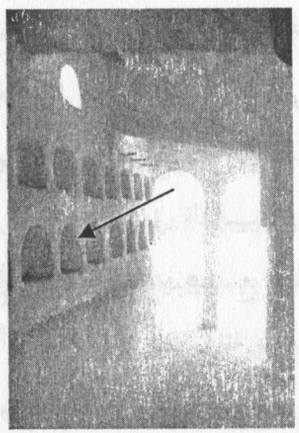

* في الكوة العُليا (أعلى العرصة) تحفظ المواد الخطرة كالموسى والكبريت، وفي الكوّة الوسطى والسفلى نوى التمر.. وفي هذا الدليل على تقدير نعم الله تعالى

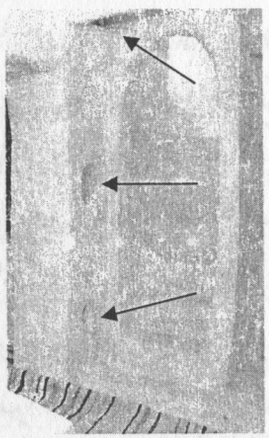

* الكُوَّات التي تنتشر في جدران المساجد والمصليات مهيأة لتحفظ المصاحف وترفعها بعيدا عن الأرض..

كيف أنشئت آبار الواحات حول قرى ميزاب

يكاد يجمع الكتاب الذين تحدثوا عن ميزاب أنها واحة صناعية، فكل الواحات التي تكونت في الصحراء الكبرى من بسكرة والأغواط إلى أدرار وتيميمون نشأت على نقط طبيعة من الماء الحي مثل بعض الأودية الغزيرة أو عيون فوارة..، إلا واحات وادي ميزاب فهي واحة من صنع البشر فليس بها عين فوارة ولا واد مثل الواحات الأخرى، ولقد حفر سكان القرى الخمس "أربعة آلاف" بئر يتراوح عمقها بين 20 إلى 60 مترًا، ويكاد يُجمع الناس أن هذه الآبار حفرت بالطرق البدائية أي أن البارود والمفرقعات لم تستعمل إلا في الآونة الأخيرة، ولقد كان حفر الآبار يخضع للعديد من شبه القوانين والأعراف التي تواضع عليها الناس، وحسن بنا أن نتحدث عنها وإن طالت بنا.

1- كيف يُختار مكان البئر حتى تصادف ماء غزيرا؟

هناك ناس عقلاء يدركون بالتجربة ويتحسسون الأمكنة وهم معروفون في كل قرية، وقد تستدعي قرية شخصا من قرية أخرى، وأغلب هؤلاء ممن يستطيعون أن يقوموا بهذا العمل أو يشرفون عليه، وقد سمعت حكاية بهذا الصدد لا بأس بإثباتها هنا حتى يتعرف عليها أصحاب التكنولوجيا، يقال إن هناك بئرا في غرداية يسمى "وَرْوَرَا نَلْكَعْبُوشْ" والوَرْوَرَا هي البئر الحي التي لا تنضب في أشد حالات القحط، ويقال أن هذه البئر بدأ أصحابها بحفرها وبلغوا إلى مئة ذراع، وهي في الغالب نهاية ما يمكن أن يصل إليه الإنسان ــوهو يأملــ، أما إذا تجاوز هذا العمق فيصبح قليل الأمل في وجود الماء، ولما يجد الحافرون الماء اقترحوا أن يجعلوا لها نفقا بمائة ذراع نحو جبل كان قريبا، فحفروا هذا النفق وبعد أن وصلوا إلى المائة ذراع المقترحة لم يجدوا قطرة ماء، وكان المموِّلون للمشروع على حافة الإفلاس ولكن الحافر لم

ييأس، فأخذ ثلاث قصع صغيرة وهي المسماة عندنا "تَزُوضَا"[1] وجعل في كل واحدة منها نوعا من الصوف يقال لها "تِفِيزَّا" بتفخيم الزَّاي، وكفأ تلك الأواني على الصوف ووضع واحدة في أول النفق والثانية في الوسط والثالثة في آخره ورجع بعد ثلاثة أيام فوجد صوف الأولى يابسا وصوف الثانية يابسا وصوف الثالثة نديا يقطر ماءً فحفر في ذلك الموضع عشرة أذرع وإذا بصخرة يتفجر منها الماء وما كاد يجمع أثاثه وعمّاله ويصعد من البئر حتى امتلأت البئر، وهذه واحدة من مئات الطرق التي يتحسس بها وجود الماء، وهناك ملاحظة عابرة أريد أن أسجلها هنا وهي أن الآبار التي حُفرت خارج وادي ميزاب مثل حاسي الحاج عيسى في طريق متليلي، وحاسي [ ][2] على وادي النساء، وحاسي العرش، وحاسي عومر، وحاسي أُورِيغنُو، كلها لم يجدوا فيها ماء رغم العمق، أما أوريغنو[3] مثلا بلغ عمقها مئة متر.

وكانوا يقسمون البئر إلى أربع وعشرين خَرُّوبَة فمن ملك ستةً فله رُبع البئر، ومن ملك اثني عشرة خروبه فله نصف البئر، وقد تقسم الخروبة إلى أربعة وعشرين ميزونه أو ميزورة وهذا يقع غالبا في الآبار الغزيرة، ومن المعلوم أن استغلال الآبار يكون بالأيام فمن كان يملك نصف البئر قد يتفق مع الشريك على أن يحتل البئر يوما بيوم، وقد لا تكون له دابتان لنضح الماء فيكون اتفاقهم حينئذ أن يشغل أحد الجوانب دائما وشركاؤه يشغلون الجانب الآخر، أما إذا كانت البئر غزيرة المياه في أيام الشدة والقحط فإن الطلب يكثر عليها فيبيع مُلاكها الأصليون عددا من القسمات فيها، فيقسمون الاستسقاء منها بالساعات أو يتبعون في

---

[1] - جمع قصاع وقصعات، إناء خشبي مقعر، يقال لها أيضا "جِفنة وجِفان"، وتُنطق الضاد مفخمة.

[2] - هكذا في الأصل، فراغ قدره كلمة أو كلمتين.

[3] - تقع على بعد 15كم شمال وادي ميزاب، على الطريق الوطني رقم1، على يمين الذاهب إلى بريان.

التوقيت أوقات الصلوات، وقد يستأجرون أمينا ليضبط لكل شريك وقته، وقد يتفق الشركاء حول الوقت أن تكون أغلب الأدوات التي يستقون بها مشتركة فلا يبدلون إلا الدلو والدَّواب لئلا يضيعوا الوقت في تبديل الأدوات مِرارا في اليوم.

وما دمنا نتكلم عن حفر الآبار فلا بأس بذكر نوع من الأجور كان يعطى للعمال الذي يحفرون لاسيما إذا كانوا يحفرون في الصخور، وذلك أنهم كانوا يحاسبون الأجير على حسب ما يقتلع من الحجر فكلما ملأ وعاء بالحجر إلا وملئوه له بالقمح أو الشعير وهذا على حسب الأوقات والظروف، وأما من كان يُصفِّي البئر فهو بالطبع يعمل طول يومه في الماء فإنه علاوة على أجره يعطون له رطل سمن يشربه قبل النزول في الماء لئلا تتضرر صحته بطول الوقوف في وسط الماء، ويجعلون على فم البئر أقواهم وأعقلهم لأن إمساك الغِرارة ــوهي ما تحمل الردم من البئرــ تحتاج إلى المهارة والقوة والتعقل وإلا فإن أبسط غلط قد تؤدي بحياة الذين في أسفل البئر ويعلم الله وحده كم من أناس قضى الموت عليهم، كما وقع في البئر الموجودة في غابة "عَين أَوْلَوَالْ" في العطف وهي ملك "لآل بكلي" قد عمل فيها أخوان من المخادمة الذين جاءوا من وارجلان، كان أحد الأخوان في قاع البئر وكان أخوه يمسك الغِرارة، وذات يوم كان بعض العمال يجرون الغِرارة وهو في فم البئر ليمسكها وقبل أن يمسكها نادى بأعلى صوته "أَيَّاوْ هْنَا" وهو النداء المعروف فلما توقف الذين كانوا يجرون الحبل الذي يحمل هذه الغِرارة غلبته فرجعت إلى البئر وسقطت على أخيه فمات لحينه، وكم لهذه القصة من النظائر في مختلف القرى ومن يدري لعل صاحب هذه القصة هو الذي اختار أخاه ليقف على باب البئر لثقته فيه، وأذكر أن أحد العمال في سنة 1934 كان يحفر في حاسي "اجْدِيدَه" في غابات أولوال في العطف بجانب المبرد الكهربائي فسقط عليه حجر صغير ربما كان

أصغر من بيضة الحمام فمات ليومه، والطبيب العسكري هو الذي قال هذا عندما فحصه وأَذِن بدفنه.

وكثيرا ما تنهار البئر على من فيها من العمال وهنا يُعلن في البلدة نفير عام حتى يُنقَذ المنكوبون، وكثيرا ما يكونون على قيد الحياة إذا منَّ الله عليهم فوجدوا متنفسا وهناك حكاية لطيفة وقعت لأحد الأبطال المعروفين بشجاعتهم وإيمانهم بأن لكل أجل كتاب وهو المرحوم سماوي الحاج اسماعيل بن قاسم أو بن كاسي[1] كما يقولون المتوفى حوالي سنة 1900، فقد انهارت عليه هو وأصحابه بئرٌ وتنادى المؤمنون، وظلوا يحفرون سائر اليوم حتى انقدوهم أحياء كلهم، لأن الله سبحانه مَنَّ عليهم بحجر مصفح كبير مثل الذي يُجعل في باب البئر ويسمى بالميزابية "مَدُونْ"، سقط مُتكئًا وأمسك الرَّدم فوقه فصاروا يتنفسون تحته حتى أدركتهم النجدة، وبعد أن خرجوا من البئر سالمين، ذهب إلى بيته وإذا بوالدته تقول له: إنني لا أقبل بعد اليوم أن تنزل بئرا لقد كدنا نفقدك في حادث الأمس، فقال: يا أماه إن الناس الذين ماتوا على ظهر الأرض أكثر بكثير من الذين ماتوا تحتها، إن الأجل هو الذي يقتل، فوجدت كلامه حقا فسكتت، وقد اختصر طريق الجواب فاقتنعت لحينها.

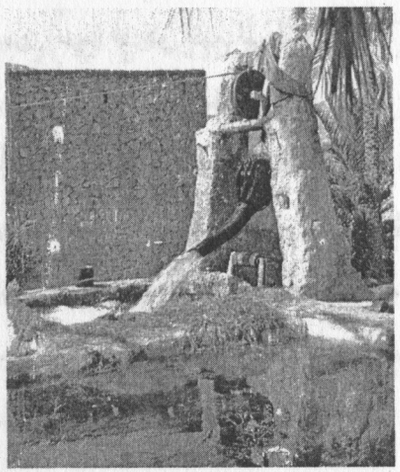

* صورة لبئر بواحات مزاب، وعليها الدلو ينهمر ماءً، ولعله يُسحب بالدواب نظرا لكبر حجمه. وقد كانت البساتين تُسقى باستمرار رغم العناء ولا يكاد أحد يتخلى عن خدمة أرضه ورعاية ما يتركه له أسلافه..

[1] – لا ندري من يكون هذا الشخص بالضبط، ولكنه من عائلة "آت سماوي" من عشيرة "آت الحُجاج" بالعطف..

وما دمنا نتحدث عن الآبار فإن من بين الأعراف المتبعة التضافر الذي يلتزمون به، خاصة إذا ما كانت هناك بئر بصدد العمل أو الربط بالحجارة فأُعلن عن مجيء الواد فإن الناس يتضافرون ويتعاونون على إتمام ربطها قبل أن يصل إليها السيل، فإن بلغها السيل قبل أن يُحكم ربطها بالحجر انطمست و لم تظهر إلا إن أعيد حفرها من جديد.

وفي نفس السياق لا بأس أن نزيد بعض الملاحظات التي لها مدلولها وإن ظهرت تافهة لأول وهلة، إن الآبار المحفورة داخل القرى شهدت مراحل من الكفاح المرير الذي خاضَهُ سكان ميزاب، فهي أولاً كلها لله لا لسقي غابة ولا شجرة بل لتكفيَ ضرورات الناس في الغسل والوضوء، ابتداء من آبار المساجد والأسواق، وانتهاء بمختلف الآبار الموجودة في البلدة، ومن المستحيل أن تجد في قمة الجبل غير الصخر ومع ذلك فقد حفروها، وقد يقضون أكثر من ثلاثين سنة في حفر بئر وذلك طبعا قبل أن يستعملوا البارود، ومن عجيب أمر هذه الآبار أنه لا توجد فيها مياه صالحة للشرب وإن كانت مياهها نظيفة، إلا مدينة بريان فإن آبارها عذبة نسبيا وإن كانت أقل عذوبة من مياه غاباتها، وهذه الآبار تنقسم إلى قسمين منها ما هو تابع للمسجد وإن كانت بعيدة عنها وحبلها[1] وما تستلزم من مصاريف يشرف عليها وكيل المسجد، وكذلك إصلاحها وتصفيتها وترميمها كما سيأتي الكلام في ذلك مفصلا في باب الوقف، ومنها ما حفر بجانب دار من دور المحسنين يفتح من داره كُوَّة يَجر منها الماء لنفسه ويترك القسم الأكبر من البئر خارج داره ويقسمها إلى نصفين قسم للرجال وقسم للنساء ويقوم هو دوما بمصاريف البئر وحبلها، وقد يوزع المجلس البلدي هذه الآبار ويحدد صلاحيتها طبقا لما يقتضيه أمن المواطنين فيقرر مثلا: ثلاث آبار موزعة على حسب التقسيم

[1] - يريد: الحبل الذي يجلب الماء من البئر.

الجغرافي للقرية لسقي عمال البناء لما يكون فيه من احتكار البئر في عشر ساعات من اليوم، ويُلزم البنَّاء أو صاحب الدار التي تُبنى بإتيان حبل من عنده ولا يستعمل حبل الوقف لسقاية البِناء، ففي العطف على سبيل المثال كانت أربعة آبار معدة للبنّائين هي "حَاسِي الشّيخ" في وسط البلدة، و"حَاسِي تَاسَه" في جانب السوق، و"حَاسِي نُونَه" بجانب الرحبة القديمة، و"حَاسِي بِيَّاع الزَّيت" في أبي سالم، وقبله كان سكان أبي سالم يستقون من "حاسي المسجد"، وكان "حَاسِي بَاشْ عَدَلْ" (الحاج محمد بن مسعود) مُختصًّا بالخبَّاز، وهو أعذب ماءً من بقية آبار البلدة.

وهذا التنظيم موضوع أولاً: لمنع الاختلاط مع النساء والأطفال، ثم: لئلا يطول انتظار الناس لو كانت كل الآبار محجوزة لعمال البناء؛ وقد تُغرس بجانب البئر نخلة تمتص ما قد يتدفق من ماء السُّقاة ويُنتفع بجمالها، وتمرها لِحبل تلك البئر، وذلك كله تحت إشراف المسجد، وقد أدركتُ نخلة بجانب مسجد أبي سالم في العطف وهو على قمة الجبل كما لا يزال شاهد ذلك في مْلِيكَة العُليا.

الواحة أو الأجنّة والغـــاية منها

لقد نشأت قرى وادي ميزاب مقسمة بالكيفية الحكيمة التي شاهدنا فيها تقسيم المناطق الزراعية الكافية لكل قرية، ولذلك نشأت حول كل قرية واحة يزرع فيها المواطنون ما يحتاجون إليه من خضر الشتاء والصيف وإن كان اعتمادهم على النخيل أكثر، لأنها تزدهر في جو الصحراء وتصبر على انقطاع الماء وقد تكون بُورًا لا تعيش إلا على مياه الأودية وفيها منافع كثيرة منها أن تمرها يصبر سنوات قد تزيد على العشرة ويحتفظ التمر فيها بحلاوته وإن تغير لونه، ثم إن نواه علف للدواجن والجمال، وأما الخشب والجريد فهم ينتفعون به في البناء، وأما العراجين اليابسة فهي للنكس وللوقود، وكذا لَكْرَبْ "الكَرْنَافْ"، وأما اللِّيف فتصنع منه

الحِبال أو الغَنَانيت[1]، وأما السعف فتصنع منه القِفاف والمراوح وكثير من الأواني كالأطباق والكَسَاكِس والقنينة للماء أو للبن أو الحصير، وقد تصنع من السعف غرائر لحمل التمر من مكان لآخر أو زنابيل[2] وهو ما يعبر عنه بِالشْوَارِي، وكل هذا يرجع أخيرا إلى الوقود، ولكن النخيل على عمومه يحتاج غرسه ومعالجته إلى صبر أيوب فإنتاجه للتمر لا يكون في الغالب قبل خمس سنين، وتَأبِيرُهُ وتعديل عراجينه واقتطافه وقطعه أخيرا يحتاج إلى المجهود المتواصل الدائب الذي لا يكفي فيه الرجل وحده بل لابد أن يشترك جميع أفراد العائلة في خدمته، وهذا ما استلزم إيجاد بعض دُورٍ بسيطة في الغابات يقتصرون فيها على القدر الضروري من المرافق وأغلبها كان إلى عهد ليس ببعيد مبنيا بالطوب وأرضه مفروشة بالتراب، لا يستعمل الجير والحصباء إلى في صقل السطح العلوي المعرَّض للمطر وتغطية أعالي الجدران لأن الطوب كما يقول العامي يقول: "غَطِّ لِي رَاسِي وُخَلِّينِي انْقَاسِي"، وقد يصقلون بالجير كذلك أرض المغتسل لا غير، وقد دعا إلى ذلك أمران ضروريان منها ربح الوقود فإن نقل الحطب دائما من الغابة إلى البلدة فيه كثير من التعب وكذلك الماء فإن ماء الآبار الموجودة في البلدة غير صالحة للشرب كما تقدم، وبهذا يستريح أب العائلة من نقل الماء العذب والحطب وغسل الملابس مدة نصف سنة على الأقل، هذا زيادة على ما تستفيده العائلة من صبغ الصوف وغسلها وما يستفيده أب العائلة من استخدام الجميع في التقاط التمر في بدء نضجه أو التقاط التمر الذي يتساقط بفعل الرياح، فيُنتقَى ليأكُل الأولاد ما كان صالحا ويُجنَّفَ الباقي على السطوح ليُخزن علفا للدواب.

---

[1] - هي: أشبه بالشْوَارِي أو الزنابيل، يُنقل فيها الرمل على ظهور الحمير خاصة وكذا مختلف مواد البناء.

[2] - وتعرف عند العامة أيضا بـ"الـخُرْجْ".

وقد تناقصت هذه المتطلبات اليوم بوجود الماء العذب والعيون في كل مكان، ورخص سعر الوقود ولم يعد الناس يوقدون الحطب إلا قليلا، ولكن السكنى في الغابة لا تزال لها المكانة الممتازة في الحياة الاجتماعية في ميزاب، فكثير من رجال الأعمال يرون في هدوءها والرجوع إلى بساطة العيش كل الراحة[1]، لقد كانت هذه الغابات لمدة من القرون تُسهم مساهمة فعالة في إنعاش الحياة يوم كان الناس لا يسافرون إلا قليلاً مكتفين ذاتيا بما استطاعوا أن يقوموا عليه بالمجهود الفردي أو التعاوني، ولكن بعد أن أصبح الناس يسافرون إلى التل ويرجعون ببعض الأرباح التي هي أحسن بكثير من الربح في الميدان الزراعي فلم يعد الناس يعتمدون على الزراعة إلاَّ اعتمادًا ثانويًّا، فصار بالنسبة للشباب عمل غير منتج إذا قيس بالأرباح التي قد يجنيها الناس في التجارة والصناعة أو الوظيف العمومي، وكان الحفاظ على ازدهار هذه الواحات يتطلب مجهودا ماديا ضخما حتى قال علماء الاجتماع إن بنوك الميزابيين هي هذه[2]، ولقد تساءل بُورديو في دراسته الاجتماعية عن ميزاب عن هذه الظاهرة "كيف أن أُناسا دخلوا عالم الاقتصاد من أوسع أبوابه وهم يحذقون الأخطار الفنية في هذا الميدان، ثم نرى أولئك الأشخاص بذاتهم يريقون مالهم في السواقي التي تسقى بها النخيل ثم لا يحصلون بعدُ حتى على نصف ما دفعوا!!"، نعم لقد يَحار الإنسان الأوربي المادي في هذه الظاهرة، ولكن الملاحِظ الذي يعرف مقدار التوجيهات المحمدية في الغِراسة والأجر الذي فيها، ويعرف مقدار تعلق الإنسان بأرض آبائه وأجداده لا يستغرب من وجود الظاهرة، ولعل أقل ما يقال فيها هو إعداد جو جديد للعائلة وكذا الأولاد الذين ليست لهم

---

[1] - فعلا لقد باتت الواحة المتنفس الطبيعي الوحيد والمفيد، والذي لا زال الناس يؤمونه أيام العُطل.

[2] - طبعًا لأن ورع المزابيين قديمًا كان يمنعهم من وضع أموالهم في البنوك لما ينجر عنها من الفوائد الربوية المحرمة شرعًا، ويقال أيضا عند أهل مزاب: "من ملك بستانا فهو يملك كنزا".

ملاعب في المدن المكدسة بالسكان، ثم أضف إلى جانب ذا وذاك حل لمشكلة العُمر الثالث كما يقول الأوروبيون، وإلا فما الذي يعمله من قضى معظم حياته في التجارة والغُربة ثم لم يعد يستطيع أن يتغرب ولا أن يُسيّر تجارته على حسب ما تقتضيه التطورات اليومية في هذا الميدان، إن لم يقضِ معظم وقته في الغابة؟!!!.

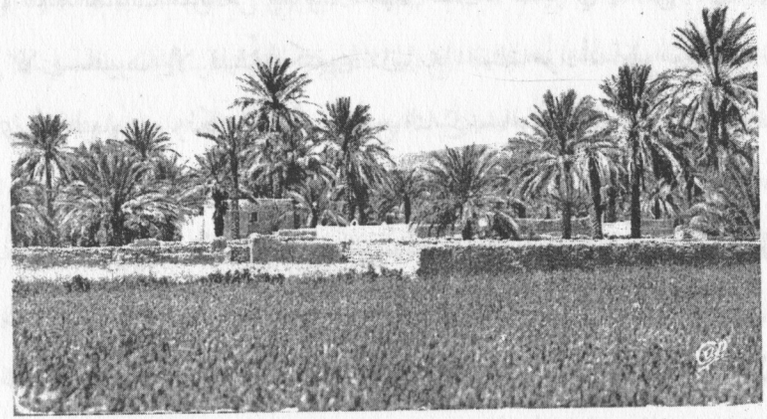

(صورة نادرة تُظهر محصول القمح الموسمي، وقد كان ذلك في معظم واحات مزاب).

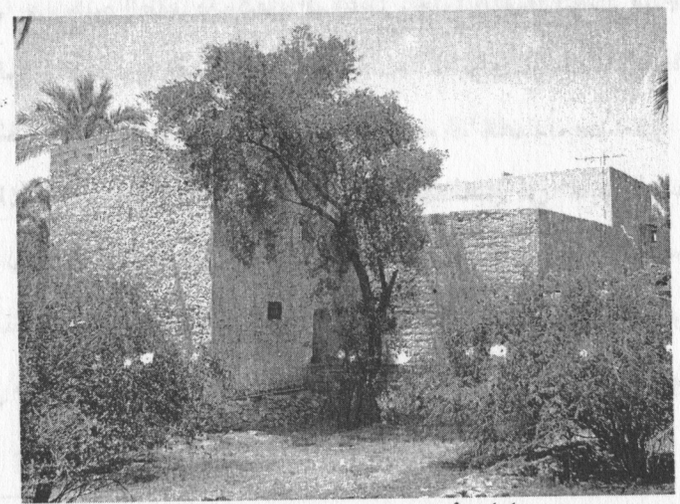

منزل للاصطياف بواحات "أَوْلَوَالْ" بالعطف، وتتوفر حديقته الداخلية على مختلف أصناف الأشجار كالتين والرمّان والتي تُأمّن الظل الوفير في هاجر الصيف والفاكهة الموسمية الطيبة..

السدود وتوزيع الميـــاه

من الأدلة الحية على روح التنظيم التي كان يتمتع بها المزابيون منذ أول نزولهم هذا الوادي تلك السدود التي أقيمت على فروع الأودية أو الروافد التي تصب في وادي ميزاب أو التي أقيمت على وادي ميزاب بالذات.

هذه السدود والمواقع التي بنيت فيها، والمواد التي استعملت فيها، ومقدار الجهد الذي بذلوه في تشييدها، كل ذلك يدل دلالة صادقة على مقدار ما كانوا يتمتعون به من روح التنظيم والتضحية، ولقد كانت معلوماتهم الهندسية تقتضي أن يوائموا بين مجرى الماء من ناحية وبناء المساكن في الغابات لئلا تتضرر هذه المساكن بسيل الأودية، وهذا كان يستدعي منهم نظرة شاملة لمجموع المساكن ومراعاة مجارى السيول، حتى في حفر الآبار وتأسيس القرى، مما يدل على أن الأمر هذا لا دخل للصدفة فيه، فإذا أخذنا مثلا لذلك سد العطف ورأينا كيف أنهم جمعوا واديين في سد واحد فلو أنهم بنوه مثلا في غير المكان الذي هو فيه في "أَمَعْدُورْ" مثلا لفاتهم ماء أَوْلَوَالْ ولو أنهم بنوه في مجرى أَوْلَوَالْ لفاتهم واد مزاب، ولكنهم جمعوهما كما نرى، ثم ننظر الكيفية التي بُني بها أو قل الطريقة، فنراه لا يعترض السيل بل جاء في أضيق مكان بين جبلين من جهة، وكان متجها محاذيا للوادي لا معارضا له، وإذا رأينا إلى عرض الجدار والدكاكين التي وراءه ــوهي الآن مطموسةــ ورأينا "الَمْنَافَسْ" وهو قسم من السد ولكنه أقل ارتفاعا منه، فيتركون الماء يتنفس أي يسيل إلى ما وراء "أَحْبَاسْ"، فإذا جاءهم الخبر من غرداية ــوهي الناحية التي يأتي منها السيلــ ربطوا هذه المنافس بأكياس من الرمل مملوءة تُجعل كالمتاريس بعضها فوق بعض حتى يصلوا إلى مستوى ارتفاع السد، وهذا يزيد قسما مهمًّا من الماء المخزون.



* "أَحبَاسْ أَجْدِيدْ" أو "سَّد آتْ يَزْجَنْ" يمتاز بهندسته البديعة وهو يستقبل مياه سيل "واد انْتِيسَه" خاصة مع هطول الأمطار الموسمية.

وإذا عرفنا أن كل هذا يقع تطوعا لشتاءٍ واحدٍ، وإن كانت تسبقه استعدادات، تبين لنا ما تمتع به هؤلاء الأفراد من آيات البطولة والتضحية، وكان غيرُ القادرين يُسهمون بالتمر ولاسيما الشيوخ العجزة، وكان العزَّابة يشاركون بمجهودهم وبقسم من تَمر المسجد، وقد يخرج المتطوعون إلى رؤوس الأودية البعيدة مثل ما وقع مرات في ميزاب وفي القرارة، إذ خرج سبعون متطوعا ومعهم دوابهم وأقواتهم وأسلحتهم وساروا مسافة أيام إلى ضايةٍ كان السيل إذا بلغ فيها غارت مياهه هناك وانقطعت بالتالي عن مجراها وتحرم البلدة من جراء ذلك، فقرروا الخروج وبناء ما أغلقوا به مدخل هذه الضاية وأظن أنها تسمى "تَلَمْزَا" بالتفخيم ومعناها مأخوذ من الابتلاع، وقد ردوا الوادي إلى مجراه الطبيعي، وقد تبادلوا في كل ثلاثة أسابيع ودامت الأعمال أكثر من ثلاثة أشهر، وقد بنوا هنالك أفران الجير وجمعوا لها الحطب والحجر وصنعوه هناك، كما وقعت حملات تطوعية بعيدة عن المدينة أو القرية لرد رافد من الروافد إلى الوادي[1]، وهذا كثير لا يُعد في مثل هذه اللمحة الوجيزة، ويقول بعض الناس أنهم يجمعون أكثر ما يمكن من نوى "دَقْلَة نُورْ" ويخلطونه للحصباء والجير ولا نعرف حكمة ذلك _إذا صحّ هذا الخبر_[2].

[1] - من الشواهد الحية لذلك الخندق الكبير الذي حُفر في الجبل لجعل "وادي سعيد" يصب في "ضاية مزاب" بالعطف.

[2] - لعله أيضا لتصحيح البناء وتقويته.

أما اختيار نوى الدَّقْلة فمعروف، لأنه نوى حاد الطرفين إذ لا يصلح للعلف وهذا معروف، أما حكمته في البناء فلا نعرفها والله أعلم، وكل ما ذكرناه فهو ما وقع منذ أقدم الأزمنة أما بعد الاحتلال الفرنسي فقد استمر الناس في التطوع ولكن الدوافع الخيرية تتناقص من ناحية، وازدياد الهجرة وارتفاع مستوى الأرباح جعل الناس يتخلفون ويدفعون أجر عامل كلما نودوا للعمل، فقد كان الكثير منهم يرفض العمل تحت سيطرة القائد _وهو الحاكم المحلي المعين من طرف السلطة_ بدافع من غيرته الوطنية لاسيما حين كان الحكام المتسلطون ينادون بخروج كل بالغ لملاقاة حاكم عسكري يمر أمامهم مرَّ اللئام، وقد لا يرفع يده مُحييا، إلى غير ذلك من التدخلات التي فتَّرت العزائم وأفشلت الهمم في كل أمر يُنادي به هؤلاء، وكانوا يعبرون في نداءاتهم إذا قصدوا تعميم الأمر: "الخروج على حدِّ الصائم" ومع كل هذا نرى هذه الروح التطوعية جلية في كل الأعمال التي يُنادى بها في المساجد، سواء كان ذلك العمل في خدمة المسجد ومرافقه أو حفر بئر للناس أو تسوير[1] مقبرة من المقابر، أو إصلاح ورَصفِ شارع من الشوارع، إلى غير ذلك من مئات الأعمال التطوعية الجادة التي لو عددنا المشاريع التي بنيت من طريقها لطال بنا الحديث ولعلنا سنعود للموضوع في فصل منفرد به ولا تزال إلى يومنا هذا بقايا من هذه الروح[2].

أما توزيع المياه فهي طريقة عجيبة لاشك أنها تدل على عقول مخترعيها ومعرفتهم، ولكل قرية من القرى اسم لمخترع هذه الطريقة الدقيقة من التوزيع العادل لماء المطر، ولا نستطيع أن نذكر المبتكر منهم للطريقة ولكن حسبنا أن نشير

[1] - يريد: بناء سور للمقبرة، فحُرمة المقابر في مزاب مقدسة، ونجد في مداخلها عبارة: "حُرمة أمواتنا كحرمة أحيائنا..".

[2] - ومنها كذلك تسوير البلدة، وبناء كثير من الأبراج للدفاع والمراقبة، وتكون هذه الأبراج حتى في الأجنة والواحة للاتصال السريع بين الأطراف والجهات في حال هجوم السيل أو أي عدو مباغت..

إلى أسمائهم ولربما استطعنا بعد البحث أن نتوصل إلى المخترع الأول لهذه الطريقة أو الذي نقلها من بلد إلى آخر عبر ميزاب، وإن كنا لم نر هذه الطريقة في إحدى الواحات المجاورة التي رأيناها في الصحراء[1]، فمن السهل جدا أن نقسم المياه الحية الجارية لأننا على الأقل نراها ونعلم مقدار قوتها وغزارتها، ولكن ليس من السهل أن نقسم مياه أودية لا تسيل إلا في فترات متباعدة تقسيما عادلاً يأخذ القريب من مدخل الوادي ما يأخذه البعيد كل حسب مساحته من الأرض بدون أن يكون هناك حيف، وهذا العمل يزيد إعجابنا به كلما عرفنا مقدار الصراع الذي عرف به ناس الصحراء على الماء، ومن المعلوم أن هذا التقسيم ينفع ويعظم خطره إذا كان السيل ضعيفا، أما إذا كان السيل جارفا فلا تكون له القيمة النادرة، أما إذا كانت كمية الماء قليلة فرأيت الناس يشاهدون عدالة هذا التوزيع، فهنا محل الاعتراف لهذا العقل العالم الجبار، ويقال أن واضع تنظيم غرداية هو الشيخ "حَمُّو وَالحَاج" وهو غير جد آل الناصري، وحيث أن هذا الشيخ عاش في القرن الحادي عشر هجري ولعله كان مجددا للتوزيع، وقد يكون هناك من سبقه فلا يمكن أن تعيش غرداية خمس قرون بدون تنظيم للمياه، أما في العطف فإن مجرى "لاَيتْ مْزَابْ" قسّمه الشيخ "بَابَه دادي" وهو من عشيرة "آت حريز" من "آل عبد العزيز"[2]، وهذا ما حضرني الآن من الأسماء ولعلنا سنجد أسماء أخرى حتى نستطيع تحقيق الأسبق منهم رغم قلة ما نملك من الوسائل.

وطبيعي أن هذه التقسيمات قد طرأت عليها طيلة هذه العهود بعض التحسينات، وإن كنا لا نعرفها على وجه التدقيق فإن الخبرة في شؤون المياه كان ولا يزال متوارثا يتعلم فيه الصغير على الكبير من القواعد والأعراف والقوانين ما

[1] - إن مثل هذا النظام موجد في أجنة "تَوْزَر" بتونس وقد كانت إباضية المذهب كعديد المدن بالجنوب التونسي.

[2] - لا زلنا نتمنى الحصول على معلومات أكثر حول هذا الرجل وغيره لنثري به بحوثا عديدة حول تاريخ المنطقة.

يستطيع أن تحل به كل هذه المشاكل، وسمعت أخير أن الأستاذ الحاج سليمان بومريـــڤة وهو من الطلبة الجادين ومن زملائنا في معهد القرارة ومن مدينة غرداية، قد سجل بقلمه كل قوانين التوزيع المادي وكل ما يتعلق بذلك من أعراف واتفاقات _بارك الله فيه وأفاد الجميع بمجهوده إنه سميع الدعاء_[1].

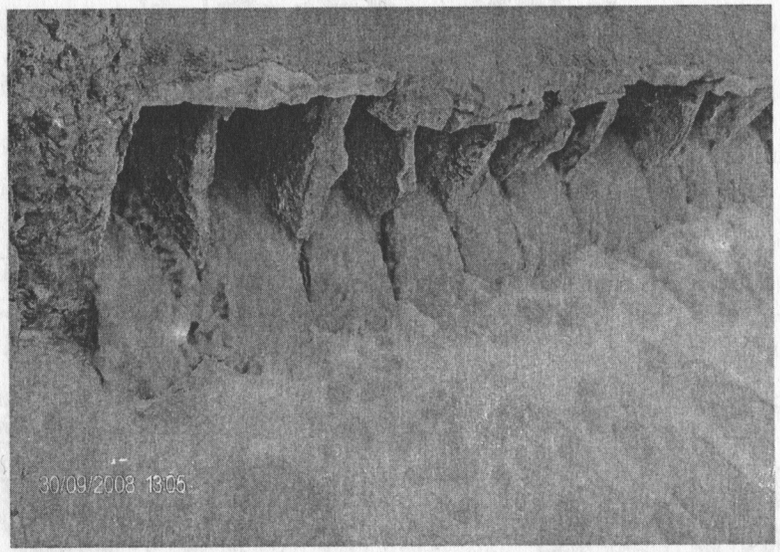

(نظام تقسيم مياه السيل وهو يشتغل بواحة "تَغَرْدَايتْ" ناحية "بُوشَّنْ").

[1] - يبدوا أن عمل هذا الرجل ظل مخطوطًا و لم ير النور بعد، ولعل الله يوفقنا إلى إخراجه وطبعه.

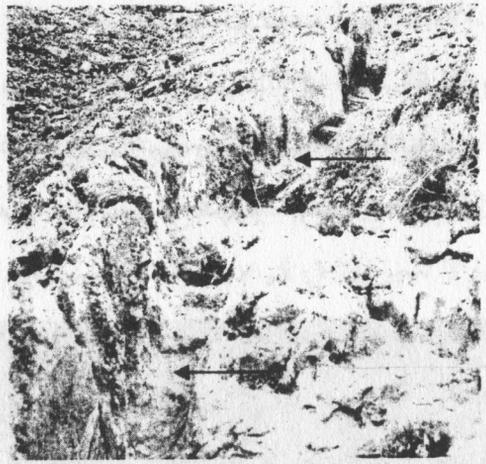

* لقد أبدع الأسلاف في حفر هذه الأثلام والأخاديد على الجبال الصخرية فبعثوا الحياة في واحات مزاب الجرداء، ولا يدري أحدٌ كم استغرق عملهم الشاق والمُضني من الوقت ومن الجُهد فوق هذه الجبال الصخرية القاسية، إنه دون شك الإيمان بالله وإرادة الحياة..

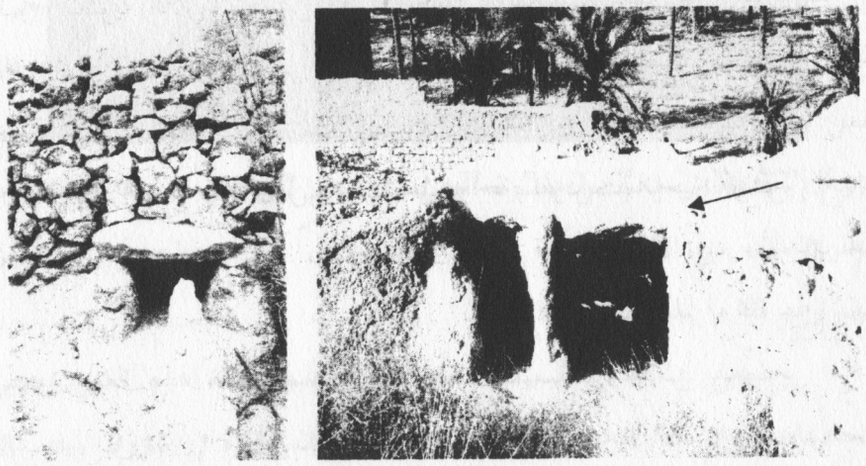

* إن حقوق كل جار محفوظة بحسب التنظيمات والقوانين الشرعية، وبحسب "اتفاقيات المجالس العامة للعزابة" ويكون السهر على مراقبة هذه الأنظمة من طرف "أُمناء السَّيل"، فالفتحات المُفضية للأجنّة مقيسة ومُحددة بحسب المساحة وعدد النخيل أو المزروعات..

الروح الجمـــاعية

لقد تمتع المجتمع الميزابي برسوخ جذور الروح الجماعية والشعور الجماعي، ولو ذهبنا نعدد الجوانب التي ظهرت فيها هذه الروح لطال بنا التعداد لكن ـ مع كل هذا ـ لابد أن نشير إلى بعض ملامحها في مختلف المجالات التي كانت ولا تزال مستمرة وستستمر ـ إن شاء الله ـ مادام الإسلام قائما وقائدا في هذه الأرض، فلو استعرضنا هذه الملامح لوجدناها بادية للعيان في الأعراس والمآتم وفي المساجد والمقابر والمدارس وفي كل المرافق العامة التي هُيأت بدافع من إيمان عميق، ولا نظن أن اهتمام مجموعة بأي فرد من أفرادها يفوق اهتمام هذا المجتمع بأفراده، كما أنه لا يوجد ـ فيما نعتقد ـ مجتمع يتتبع حياة الشخص في مظاهر حياته من كل نواحيها مثلما نجد في هذا المجتمع، فهو يعتز به إذا نجح في مجال الحياة ويشمئز منه وقد ينأى عنه إذا ما أخفق بسبب تصرفاته، وهذه المراقبة حفزت الكثير وأمدتهم بالقوة المعنوية اللازمة لخوض معترك الحياة وكفكفت الكثير من غلواء النوازع الشريرة التي قد تصيب بعض الناس من ذوي الطغيان بالسلطان أو الغِنى، والذين يظهرون من حين لآخر في مختلف الظروف التي تعتري حياة المجتمعات بصفة عامة، ولقد كانت روح المبادرة كما يطلق عليها المعاصرون خُلقا من أخلاقهم الأصيلة فكل ما بني في مختلف أنحاء القطر الجزائري من شرقه لغربه كان بمبادرة سكان تلك المدينة فقط، فمسجد سوق أهراس ومركز قالمة وما يشاكلهما من مشاريع لم تُقرر في مجلس "عَمِّي سَعِيد"[1] ولا في أحد مساجد ميزاب، ولكن بقرار من التجار الموجودين في تلك البلدة، وليس للأفراد إلا أن يباركوا هذا العمل ويؤيدوه معنويا وماديا، وهذا مظهر من أهم مظاهر روح المبادرة وتجاوب المجتمع مع كل شخص أو مجموعة تريد أن تنجز مشروعا، ولولا وجود هذه الروح الأصيلة في هذا المجتمع

[1] - أعلى هيئة دينية اجتماعية في وادي مزاب، يجتمع فيها عزّابة قرى مزاب كلهم لبحث القضايا والمستجدات العامة.

لما غامر الأفراد أو المجموعات الصغيرة بإنشاء أي مشروع قد يعجزون عن تنفيذه وإتمامه لاسيما والكثير منهم يقوم بأغلب نفقات المشروع، وقد يُنجزه ثم يطلب العون من الآخرين بعد أن يكون قد أتم إنجازه أو كاد، وهذا من أصدق الأدلة على الثقة التي يتمتع بها هذا المجتمع بنفسه في إقامة المشاريع.

ولنعد إلى بعض الأعمال الجماعية التي كان يقوم بها الناس مند أقدم الأزمنة لنرى كيف كانت الروح أصيلة منذ نشأت مدن ميزاب، ونذكر منها مثلا:

الزراعة الجمـــاعية

كانت عادة الغِراسة الجماعية في الكثير من قرى ميزاب متّبَعَة سيما بعد الأودية فإذا أنعم الله سبحانه وتعالى بـــ"رحمةٍ"، ــوهو الاسم التي يُعبِّر به الناس هنا لسيل الوادي وحملته_، بعد أن تجف المياه من أراضي الغرش يجتمع المجلس البلدي ــوسيئتي الكلام مفصلاً عن كيفية تكوينه_ فيعلَن عن خروج البلدة كلها "على حد الصائم" ــكما يعبرون_ لزراعة البِطيخ والدَّلاَّع إذا كان ذلك في الربيع أو الفول والقمح والشعير إذا كانت الحملة في الخريف فيسرع الناس لتلبية النداء ويأتي من استطاع منهم بالبذور الصالحة ــوغالبا ما توجد الكمية الكافية_ فإذا لم يجدوا ما يكفي اشترى مسؤول الغرش ما يكمل به الكفاية، وشرعوا يغرسون فإذا لم تتم العملية في يوم وهذا نادر لأن المساحة تقدر من طرف المجلس البلدي فإنهم يعيدون في يوم آخر بعد حوالي أسبوع، فإذا بدأت الغلّة ووجد منها ما يكفي للتوزيع أُعلن عن يوم الالتقاط أو الاقتطاف وبدأ العمل منذ الصباح، فيوزعون في نفس المكان ما جمعوه بكيفية عادلة لا تدع مجالا لخصومة أو خِلاف، يأخذ من حضر الزراعة والقطاف قسمتين ويأخذ من حضر الغراسة وحدها قسمةً ومن حضر القطاف وحدهُ قسمةً، وتُوصَّل إلى داره إن كان غائبا وقت التوزيع، وهنا قد يتساءل متسائل وهل يعطى نصيب للأرامل أو العجزة ؟ والجواب: عن الأرامل لا تعطى

لهن قسمة من هذه الحصيلة، ولكن الأفراد لا يهملون أقاربهم وأراملهم، أما العجزة فإن خرجوا وحضروا الحملة وسجلوا أنفسهم فإنهم يكلّفون مثلا بحراسة السوق وأبواب البلدة أو حراسة الأمتعة في مكان الزراعة، فحسبهم أن يخرجوا ولا يكلّفون بعمل شاق، فمنهم من يوزع الماء لشرب العمال، ومنهم من يجلس في المكان الذي يضعون فيه التمر والبذور وقِرَبَ الماء، فكل من بذل مجهودا وإن كان صغيرا فإن له قسمة أو قسمتان، وما قلناه في البطيخ والدَّلاَّع نقوله في الفول والقمح والشعير، وآخر مرة وقعت هذه الحملة في العطف كان في سنة 1955م، ولست أدري إذا كانت قد وقعت بعد ذلك في إحدى قرى الوادي.

المساجـــد وهيـــآتها

تقدم فيما سبق أن بَدأَ تأسيس القرية يبدأ ببناء المسجد في أبسط ما يكون البناء، وتقدم أن الزخرفة أو الديكور كان بعيدا كل البعد عن البناءات هنا، ولكن ابتداء تأسيس القرية بالمساجد واختيار أعلى مكان من الشكل الهرمي في هيكل القرية عامة يوحي بالمكانة الممتازة التي يضع فيها المزابيون المسجد من البنية الاجتماعية، فالمسجد هو كل شيء، وإذا قلنا ذلك فنحن نعني ما نقول، وذلك أن تقدير أوامر المسجد وتنفيذها بكل حرفية هو الذي حفظ لهذا المجتمع روحه الدينية الأصيلة، رغم الهزات العنيفة التي تعرض لها المجتمع زمن الاحتلال وبعد الاستقلال، وإذا قلنا المسجد فمن المفهوم بالبداهة أن المقصود هم القائمون على تسييره وإدارة شؤون البلدة من الناحيتين الدينية والاجتماعية، وقبل أن نتحدث عن آثار نفوذ المساجد في وسط المجتمع يحسن بنا أن نُعرف بهيآت المسجد ابتداء بالهيئة العليا وهي: هيئة العزَّابة.

هيئة العَــزَّابة

أسس نظام الحلقة أو العزَّابة الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النَّفُوسي في القرن الخامس الهجري، وعلى وجه التحديد سنة 409هـ، حين بدأ المزابيون يستقرون في هذه الربوع بعد نزوحهم من وادي رِيغْ ووارجلان وسدراته كما تقدم، ويشمل مجلس العزَّابة على إثني عشر عضوا في الأصل، وقد اضطر العزَّابة الآن إلى زيادة العدد تبعا لتغيب بعضهم في فترات السنة، ويُختارون طبقا لمقاييس متعددة منها: الاستقامة، والنزاهة، وحفظ القرآن، وملازمة الصالحين، وحفظ السِّر، وحضور الصلوات الخمس مع الجماعة، وحضور مجالس القرآن قبل وبعد الصلوات، والتعفف في معاملاتهم المالية..، إلى كثير من الشروط الكمالية التي تكون مرجِّحات إذا وقع الاختيار بين شخصين لتقديم أحدهما قبل الآخر، كالانتماء إلى عشيرة مَا، فهو لا يدخل في حساب المقاييس التي تؤهل الشخص للعضوية، ولكن هذه النقطة قد تُرجِّح أحد المرشحين إذا كانت عشيرة أحدهما لا عضو لها في الحلقة والأخرى لها عضو أو أعضاء، فهنا يختار المجلس العضو الذي ليس لعشيرته عضو في الحلقة لكي تستفيد الحلقة من وجوده في عشيرته.

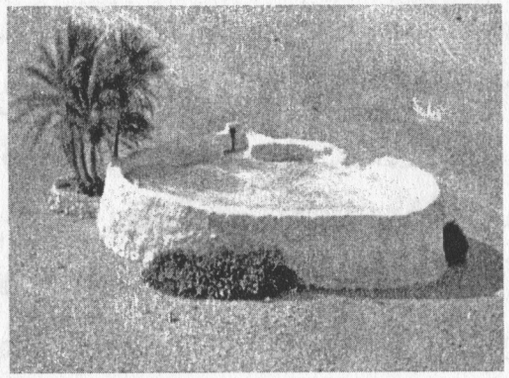

* صورة لمصلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النَّفُوسي ببلدة تجنينت (العطف)، وهو مبني قرب مجرى واد مزاب، ويمتاز بشكله الدائري وذلك حتى لا تجرفه السيول.

وتتم كيفية التعيين بأن يقترح الرئيس شخصا أو أشخاصا من حلقة "إِرْوَانْ" _التلاميذ_ وسيأتي الكلام عليها بتفصيل، أو من حلقة "إِمَصُّوردَانْ"، _وسيأتي عليها الكلام_، ويُطلب من الأعضاء أن يُبحثوا جيدا في سيرتهم لمدة لا تقل عن ثلاثة أشهر وقد تمتد إلى العام، فإذا اختبر الشخص نودي للمسجد ويدعى إلى مركز العزَّابة ويسمى "تَامْنَايْتْ"، وهو بيت خاص لهم في المسجد لا يدخله غيرهم إلا إذا كان مدعوًّا من طرفهم، وبعد افتتاح الجلسة يتوجه إليه الرئيس بكلمتين أو ثلاث يقول له: "لقد اتفقنا أن تتحمل معنا هذا العبء الذي تعرف مسؤوليته"، ثم يبسط الرئيس كفيه للدعاء فيؤمِّن الجميع، ولا تُعطى له الكلمة ولا يُقبل منه الاعتذار لئلا يُفتح هذا الباب، لأن أكثر الناس يتهربون من حمل التبعات، وهو يعلم أنها أمانة عظمى ولذلك لا يُسمح للكُفءِ أن يعتذر، والعضوية عُمرية فلا يسمح لأي عضو بالتخلي عن وظيفته إلا إن عجز أو عُزل إذا ثبت انحرافه عن الجادة أو عدم التزامه بسمت العزَّابة.

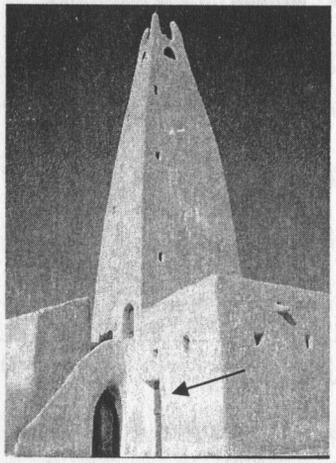

* جانب من أعلى مسجد "آت بُنور" ومئذنته، فوق الدُرج يظهر باب خشبي للصعود إلى المئذنة، وفي الأسفل (أنظر السهم) حُجرة "تَمْنَايتْ" وبابُها خشبي أيضا، وهي الحجرة الخاصة بحلقة العزَّابة، والتي يجتمعون فيها باستمرار، وتحوي دفاتر الأوقاف ومصاريف تسيير المسجد..

يختار العزَّابة من بينهم إمامًا للصلاة ونائبا له، ومؤذنا ونائبا له، وفقيهًا يعلم القرآن في المحضرة، وهي مدرسة ابتدائية تعلم القرآن والتوحيد وأصول العبادات وقد يكون أكثر من واحد إذا تعددت المحاضر أو الأقسام، وخمسة لغسل الأموات وتكفينهم، وشيخا يعظ الناس في المسجد ويعلم " إِرْوَانْ " الفقه والعربية، ووكيلا

ونائبا له يقومون بمراقبة أوقاف المسجد، وهذا هو أصل الوظائف وقد يشتغل أحد الأعضاء وظيفتين من هذه الوظائف كأن يكون إماما وواعظا أو وكيلا ونائبا للمؤذن وهذا على حسب القدرة والتفرغ، وأي عضو من الأعضاء وجد فراغا في وظيفة فعليه أن يقوم بواجبه، كأن يتغيب الإمام ونائبه في إحدى الصلوات فلابد أن يتقدم أحد العزَّابة ولا ينتظرونه للصلاة إذا حان وقتها، ومع ذلك فإن تحديد الوظائف أمر تنظيمي لابد منه للسير المنظم[1]، وفي ذلك ما فيه من المزايا، وهذه الوظائف كلها لا يتقاضى عليها العزَّابة أي أجر مهما كان، باستثناء ما كانوا يأخذون من قسمة في التمر الذي يجمعونه من نخيل الأوقاف قبل استيلاء الثورة الزراعية عليه سنة 1973، وأما فيما عدا ذلك فإنهم يأخذون قسمة من الصدقات تساوي ما يأخذه أي شخص عادي دخل المسجد صغيرا كان أو كبيرا.

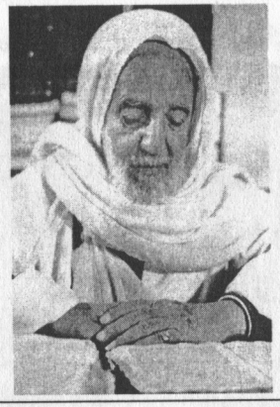

* صورة المؤرخ والبحاثة الشيخ سليمان بن داود ابن يوسف من بلدة تجنينت (العطف)، وهو هنا باللباس الرسمي للعزابة "أَحُولِي"، وقد أدركته قبل وفاته ـرحمه اللهـ، وكان ممن يحرصون على ارتداء "الحُولِي" في كل المناسبات..

1 - دون شك هذه بعض مهام هيئة العزابة مختصرة، ومنها مع ما ذكر من الصلاة بالناس وتجهيز الميت، الإشراف على هيئتي إروان وإمصوردان بتعليم الصلاة للبالغين، وتخصيص دروس في المسجد في مواضيع الصلاة، وتفقيه الرعية بشؤون دينها وتوطيد الأواصر الأسرية والاجتماعية، وتنظيم الشهور والأيام والليالي الفُضلى كتنظيم دروس شهر رمضان والحث على الطاعات..، وتصدُّر تجمعات المسلمين في الأفراح والأتراح، بالإضافة إلى الإشراف الاجتماعي والتوجيهي، والإشراف التربوي والثقافي في المحاضر ونوادي الجمعيات...

ينظر بتفصيل أكثر: العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، الأستاذ صالح بن عمر سماوي، المطبعة العربية غرداية، ط1، 2005، ج3 كله.

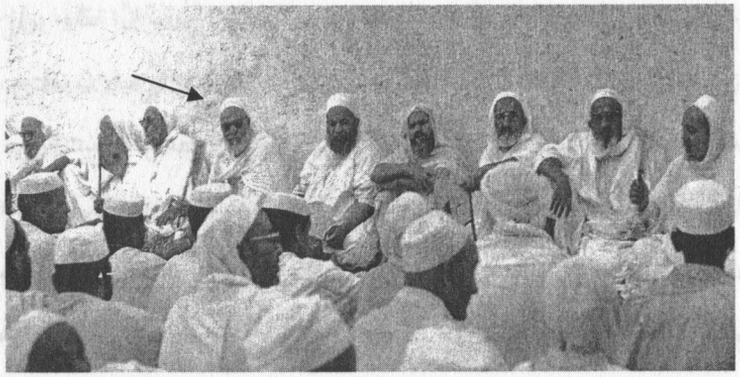

* (في الصورة يظهر أعضاء حلقة العزَّابة متصدرين في حفل عُرس قبيل تتويج العُرس).

"إِرْوَانْ" أو التلاميذ

يطلق هذا الاسم على المنظمة الثانية في السُّلم التصاعدي للهيكل الاجتماعي، ولهذه المنظمة رئيس يسمى "العَرِيف" ويكون في أغلب الأحيان عضوا من العزَّابة، أما أفراد هذه المنظمة فليس لهم عدد محدود بل يتراوح قلةً وكثرةً على حسب القرى واتساعها، ويشترط في أعضائها أن يكونوا حملة قرآن أي استظهروه عن ظهر قلب، وقد يتساهل في هذا الشرط في بعض القرى فيقبل العضو في المنظمة ولو لم يستظهر القرآن، ولكن لابد أن يكون قد ختمه ومن عُمَّار المسجد ومجلس التلاوة وممن يغلب عليه الحفظ، وهذا طبعا بعد أن يكون مستقيما في سيرته الشخصية، مشهورا بحسن معاشرته والتزامه بالآداب الإسلامية في معاملته المادية مع الناس، ويقال لهم "خُلفاء العزَّابة"، فمنهم يبدأ اختيار العزَّابة وعليهم يعتمد سير مجالس التلاوة، ويُعيّن منهم الأئمة والمؤذنون في بعض المساجد الثانوية التي تُنشأ في الواحات وتُعمر في وقت السكن في الغابة، وهذا تدريب لهم واختبار لمقدار قدرتهم على تحمل المسؤولية، وكذلك يعين الكثير منهم لتعليم أقسام القرآن في المحاضر إذا استعان بهم الفقيه، وكلما احتاج العزَّابة تعويض أحدهم في أي وظيفة من الوظائف

التجئوا إلى حلقة "إِرْوَانْ"، ولهم قسم خاص بهم في جانب المسجد يقال له "دار إِرْوَانْ" ويتلقون فيه دروسا في التوحيد والفقه والعربية إلى غير ذلك من علوم القرآن من الشيخ الواعظ في المسجد، وقد يكون في هذه الدار عدة أقسام بمثابة المعاهد التكميلية، وقد يتعدد فيها الأساتذة كذلك، وفي وقت الدرس العام الذي يلقيه الشيخ في المسجد تتكون حوله وأمامه حلقة من إِرْوَانْ فمهمتهم الأولى هي تلقي العلم وتعمير مجالس القرآن، أما كيفية الدخول فتكون بطلب من المعني بالأمر وبعد أن يبلغهم الطلب يعرض على المجلس العام في المسجد، فإن لم يظهر أي اعتراض أجيب إلى طلبه في ظرف أسبوع، فإذا حصل على القبول يخبر العريف إمام المسجد ليستظهر هذا الطالب أمامه فإذا أتم الاستظهار رد الإمام الخبر للعريف فيضرب له موعدا ويكون في الغالب صباح خميس فيعلن الخبر في مجلس إِرْوَانْ لكي يحضر كل التلاميذ الموجودين في البلد حتى الذين لا يواظبون على الحضور الدائم، ثم إذا حضر هذا العضو الجديد يدخل ويجلس وراء الحلقة فينادى باسمه ثم يتلو عليه العريف شروط الدخول في الحلقة وهي عبارة عن المقاييس التي ذكرنا، ويزيدون عليها مثلا القيام بخدمة إخوانه في مركزهم هذا وإنارته وتنظيف الميضأة الخاصة بهم وتوزيع التمر الذي هو وقف لهم، ذلك حتى يدخل عضوًا جديدًا، فإن قبل فتحوا الحلقة وإن لم يقبل ـ وهو نادر ـ يقول له العريف: "احمل قصعتك[1] وارجع إلى دارك"، فإذا أعلن بصوت مرتفع أمام الحاضرين قبوله فتحت له الحلقة وجلس حيث انتهى به المجلس، ويعلن بذلك المجلس كل الذين سبقوه حتى يلتزم بالإفساح لهم في كل مجلس عام، ولا يبدأ العمل إلا بعد أسبوع، وفي هذه الأثناء يُعلّمه من سبقه كيفية ضبط عمله ومكانه في الصف مع صلاة الجماعة، وقد يكتب له

[1] - قصعة الطعام التي يعدها "إبرو" الجديد لإخوانه في "دار إروان" عند قبوله، وقد تطورت هذه العادة فصارت حفلا سنويا وخاصة في بلدة القرارة وكذا في معظم قرى مزاب يُحتفى بهم في ليلة السابع والعشرين من رمضان.

العريف في لوح من خشب افتتاح "عقيدة التوحيد"[1] وهذا قبل أن يقع إصلاح التعليم بإدخال المواد العلمية في التعليم الابتدائي، فقد كانوا لا يسمحون لأي تلميذ أن يتعلم أي علم حتى يفرغ من حفظ القرآن، ولما ابتلي الناس بالهجرة وصاروا يأخذون أولادهم في سن مبكرة إما للعمل أو للتعليم في مكاتب التل التي كانت أرفع مستوى ـ نسبيًّا ـ من المكاتب التي أنشئت في ميزاب، رأى القادة المصلحون أن الأولاد يسافرون ومعهم قسط لا بأس به القرآن ولكنهم لا يعرفون عملية حسابية ولا تحرير رسالة فقرروا إدخال المواد العلمية مع القرآن في المرحلة الابتدائية حتى إذا ما انقطع أحد الأبناء عن التعلم كان له حظ ومشاركة ابتدائية في جميع المواد، ومن بقي منهم يستمر في حفظ القرآن قبل دخول الثانوية، وهناك في بعض قرى الوادي يختارون "إِرْوَانْ" بدون أن يقدموا طلبا وذلك لأن استظهار القران كلّه ليس شرطا في دخول التلميذ إلى الحلقة، فإذا رأوا طالبا مواظبا على حضور المجلس في المسجد ومجالس التلاوة وذا سيرة حسنة، فإنهم يقررون إدخاله في حلقة إِرْوَانْ، وليس فيها مراسيم مثل ما ذُكر آنفًا، بل يُلقى عليه درس فيما يجب أن يقوم به من عمل في مستقبل أيامه، كما يأمرونه بتبديل الرفقاء والاستعداد في كل وقت لتحمل ما قد يلقى عليه من مسؤوليات في إعانة العزّابة في مهماتهم، مثل الصلاة والآذان وغسل الموتى وتجهيزهم، مُحتسبًا في كل ذلك أجره على الله، فهو في طريق الإعداد، وقد يكلف إِرْوَانْ بالإمامة في مساجدنا الموجودة في مختلف أنحاء القُطر وذلك كله إعدادًا لهم لأن يكونوا مهيئين للدخول في حلقة العزّابة، ومن النادر جدا أن لا يجد العزّابة خلائف في حلقة إِرْوَانْ فهي بحق حلقة الخلف.

[1] - وتعرف أيضًا: بـ"عقيدة العزّابة"، ترجمها أبو حفص عمرو بن جُميع في ق7هـ من البربرية إلى العربية، وقد حققت ونُشرت.

أما تسميتهم بهذا الاسم فهناك من يقول إنها مأخوذة من اللغة العربية بمعنى أنهم يَروُون العلم من الرواية، ويقال: إنني إِرْوَانْ، وهذه عبارة قريبة جدًا وهم الذين رَوَوا وهو من شرب حتى روي، ولكننا نحن ننطق به مرققًا ولفظ الرواية من الظمأ ننطق به مفخما، وهناك قول ثالث بربري وهو من " أَرَّاوْ " وهو الشاب الناشط، وهذا فيما نعتقد يجمع على "أَرَّاوَنْ" لا على إِرْوَانْ ولعل الكلمة التي تستقيم لهذا هي: كلمة "آرْوِي"، كما نقول "آسْلِي" للعريس الواحد فيجمع على "إِسْلاَنْ"، أما في الواقع فنحن الآن نسمي الواحد "إِرُو" والجمع إِرْوَانْ والله أعلم والبحث مفتوح!!.

" إِمَصُّـــورْدَانْ "

أما الهيئة الثالثة فهي إِمَصُّـــورْدَانْ ففيهما قسمان: قسم هم كل الأولاد الصغار الذين يتعلمون القرآن في المحاضر وهي المدارس المتصلة مباشرة بالمساجد، والقسم الثاني هم من الشباب والكهول وحتى الشيوخ الذين لم تسمح لهم ظروفهم بإتمام حفظ القرآن، فهم إما يتدارسون القرآن في المحاضر فُرادى أو جماعات ومجالس، وإما يكتبون الألواح ويحفظون الحصص اليومية حتى يكملوا حفظ القرآن، ويسمح لهم بعد ذلك بحضور مجالس القرآن في المسجد أو يدخلون إلى حلقة إِرْوَانْ، ومنهم من قد يدخل حلقة العزَّابة، أما مجال عمل هذه المجموعة فهو عمل واسع، فهم الحُرَّاس في الليل والنهار في القصر وفي الغابة وحراستهم لا تقتصر على السرقات فحسب، بل مراقبة كل شيء مما يتعلق بالأخلاق العامة، وهم كذلك يقطعون التمر للمسجد، ويحولون الأحجار المصفحة أو الصفائح "مَادُونْ" للمقابر، ويجمعون الحطب من الغابات لتسخين الماء[1]، وهم العُمدة في كل عمل تطوعي في البلدة، كل هذا في حملات وفي بعض المناسبات، أما الحراسة فهي العمل

[1] - هذا قديمًا طبعًا، وذلك لما كانت ميضأة المسجد تحوي مراجل لتسخين الماء للمصلين في فصل الشتاء.

الرئيس المستمر الذائب، وكذلك تعمير المسجد في الأوقات الخمس، ومن جملة الأعمال التي تقوم بها هذه الهيئة توزيع الصدقات والأوقاف في كل مناسبة، سواء أكانت هذه المناسبة في المسجد أو في المقبرة.

هذا ولا يفوتنا أن ننبه القارئ إلى نكتة لئلا نكون ممن يطغى عليه حماسه حتى يكتب ما يشبه المبالغة أو المغالاة، وهي أن كل ما ذكرت عن هذه الهيئات الثلاث هو الأساس القاعدي لهذه الهياكل ولكن هذه الهيئات قد تأثرت ببعض الظروف القاهرة التي فرضت علينا في مراحل التاريخ فضعف بعضها وقوي بعضها على اختلاف القرى، وبتفاوت الرجال القائمين بهذه المؤسسات.

فالمحاضر مثلا قد زوِّدت بنوعين من التعليم: الرسمي في مدارس الحكومة والتعليم المدرسي الحر الذي أسسته الجمعيات الإصلاحية ابتداء من الثلاثينيات، وبما أن أوقات المحضرة والمدرسة واحد فقد أصر بعض الشيوخ على الاحتفاظ بهذه المحاضر على طريقتها القديمة بدون أي تغيير، وعمَّروا المدارس كذلك، بينما رأى آخرون إلحاق وزيادة تنظيمات على المحاضر بدون الالتجاء إلى المدارس وكل مجتهد مُصيب، أما بالنسبة لنظام إِمَصُّورْدَانْ في الميادين العامة فهو موجود في شكله في كل القرى، ولكنه لم يحتفظ بكل قوته وتنظيمه وتأثيره العملي إلا في مدينة غرداية، وذلك لأن سكان المدينة لم يضطروا للهجرة مثل سكان القرى، وذلك لمركز غرداية المادي وسوقها النافذ ولذلك احتفظت بنُظمها في هذا الميدان كما احتفظت بهيئة إِرْوَانْ على أشد ما تكون المحافظة، ولنقل ما يشبه هذا في القرارة فقد قويت فيها هيئة إِرْوَانْ حتى صارت أقوى في وادي ميزاب لوجود معهد الحياة فيها، ولعل العدد الأكبر من إِرْوَانْ القرى كلهم تخرجوا من معهد الحياة بالقرارة، ونستطيع أن نقول هذا في جميع الهيئات وحسبنا أن نعترف أنها لا تزال ولن تزال قائمة ومستمرة

مادامت السموات والأرض ـ إن شاء الله ـ، نسأل الله أن يدفع عنها عوادي الزمان ومكائد الشيطان وسطوات السلطان[1].

ونستطيع كذلك أن نلاحظ بعض الأعراض التي طرأت على هذه النظم بتأثير الظروف وهو لَبس الحائك، فإن العزَّابة مثلا يشترط عليهم أن يكونوا لابسين للحائك في كل مكان داخل ميزاب إلا إذا ذهبوا للعمل في الغابة، ولكنهم اليوم لا يطبقون هذا حرفيا لا لأنهم يرفضون هذه السِّمة الحسنة ولكنهم تساهلوا وقالوا نكتفي به في المساجد فقط، وهناك من يقتصر على الأعياد فقط، وكل هذه أمور لا تمس الجوهر، وكذلك قيادة السيارات فكثير من العامة كان يرى أن سياقة السيارة لا تتلاءم مع لبس الحائك كما يقولون، ولكن الظروف قد تغيرت فأصبح للعزَّابة كثير من السيارات، وكانت الهيئات من قديم الزمان لا ترتاح لأن يكون الأغنياء أعضاء في الحلقة، ولكن النظرة السليمة ترى أن وجودهم بين أعضاء جماعة العزَّابة يزيدها قوة وفعالية أكثر، فالمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، ثم إن الغني عندنا يعطى له هذا الاسم تَجَوُّزًا.

[1] - هناك هيئة أخرى تُعيّن من طرف العزَّابة وهي من الأهمية بمكان في المجتمع المزابي، ألا وهي "الأُمنَاء": وتنحصر مهامهم في الاختصاصات التي هم مؤهلين فيها وهي كثيرة، كما يشترط فيهم الاطلاع الواسع على الأعراف والقوانين، ومنهم أمناء السوق وأمناء السّيل وأمناء البناء...وحتى التجارة والفلاحة، ودورهم يتمثل في السهر على إرشاد الناس وتوجيههم والمراقبة وإنصاف الجار المظلوم، فإذا خالف أي إنسان العُرف الجاري به العمل فإن الأمناء يرفعون أمره إلى "هيئة العزَّابة" إذا لم يمتثل لتعليماتهم، فيعلن العزَّابة البراءة منه في المسجد حتى يدعن ويرجع عن غيّه..

ينظر: صالح بن عمر سماوي، العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، ج2، ص 527- 533.

"تِمْسِرِدِينْ" أو منظمة النساء "الغاسلات"

ومن ضمن الهيئات التي تعمل تحت إشراف العزَّابة هيئة "تِمْسِرِدِينْ" أو "الغاسلات" كما في العنوان أعلاه، ولفظ "تِمْسِرِدِينْ" هو جمع "تَامْسِرَدْتْ" وهو مفرد، واللفظ مأخوذ من الغَسل الذي هو بالبربرية "أَسِرَدْ" وهو كناية عن غسل الأموات من النساء، وهذه الهيئة تتكون من 12 امرأة من الأمهات المؤمنات الصالحات يُخترن لعقلهن وقدرتهن على الجهر بكلمة الحق، ولا يشترط فيهن حفظ القرآن ولا ختمه، ولكن يجب أن يكن حفظن بالسمع جزءا من القرآن، وممن يعمرن المسجد ويحضرن درس الوعظ والإرشاد[1]، ولهن بيت خاص بهن في كل مسجد وهو متصل في الغالب بالمكان الذي تكون فيه حلقة التلاوة، وهذا ليحفظن القرآن بالسمع، وكذلك يستمعن لدرس الواعظ، وقد تنقله إحداهن بالحرف فتعيده في المجامع النسائية، وفي كثير من القرى بنيت لهن دور واسعة لتجمعاتهن التي تنعقد مرتين في الأسبوع على الأقل يقرأن نصيبا من القرآن جماعة ثم تلقي إحداهن كلمة وعظ أو نصيحة، وقد يلقي عليهن الدرس أحد المشايخ مرة في الأسبوع في دارهن، يدخل إلى حجرته فيفتح شباكا يلقي منه الدرس بحيث يُسمع ولا يُرى وهو لا يَرى إحداهن، وقد يسألنه عن بعض المسائل فيُجيب، أما كيفية التعيين فهي تماما كالعزَّابة إلا أنهن لا ينفذن اختيارهن لعضو جديدة إلا بعد موافقة العزَّابة، والاتصال بالعزَّابة يكون بواسطة إحداهن إن كانت ذات محرم لأحد العزَّابة وإما أن يذهبن جماعة إلى دار الشيخ رئيس العزَّابة ويتفاوضن معه في هذا الأمر، أو في بعض العادات التي يجب الكلام فيها، إلى غير ذلك مما يتصل بالمجتمع النسائي في البلدة، وغالبا ما يُستشرن فيما يتعلق بعوائد الأعراس وفي تحديد المهور وكل ما يتعلق بشؤون النساء من أمور، وقد يعترض العزَّابة في أمر من الأمور فيأخذ المجلس

[1] - كما يشترط أن تكون بدون زوجٍ (أرملة) لكي لا تُشغلها الواجبات الزوجية عن مهامها في المجتمع.

بنظرهن، فهن مخلصات أمينات ودورهن الأول هو غسل النساء إذا متن والإشراف على التجمع في المآتم في الدُّور، وهناك يُلقين على المجتمِعات دروس الوعظ وكذلك في الأعراس وفي أي تجمع في المحيط النسائي.

مؤتمر الغاسلات السنوي "لا إله إلا الله"

وللغاسلات الآن دور فعال في مراقبة المجتمع النِّسوي في وادي مزاب، ومن أحسن عاداتهن التي لم يزلن يحافظن عليها إلى الآن، الملتقى الذي ينعقد في كل قرية كل عام وذلك أنهن يبدأن بتجمع عام في مسجد الشيخ "أبي عبد الرحمن الكُرثِي"[1]، يقبلن على هذا الاجتماع من كل قرية من القرى جماعة، وهذا الاجتماع يكون للتعرف على الجديدات وتعيين مواعيد الملتقيات وترتيبها، وبعد أسبوع تبدأ سلسلة الملتقيات في الإثنين وفي الخميس ابتداء من غرداية وختاما بالعطف، وتقع هذه الملتقيات غالبًا في آخر الربيع وقبل بدء السكن في الغابات، ويفتتحن الملتقى بتلاوة سور من القرآن ثم يتلون سلسلة من الأذكار من الباقيات الصالحات فيقلن "لا إله إلا الله" ألف مرة، ويسبِّحن ويزدن كثيرا من الأذكار، ثم يُلقين كلمات في الوعظ والإرشاد في مواضيع أو ضدَّ بِدعة مستحدثة، وبعد الغداء تنصرف النساء كل إلى دارها للصلاة، ويعدن في آخر العشية لسماع الأوامر المتفق عليها؛ أما الغاسلات فيتحدثن عن عوائد الأعراس والمآتم، ويراجعن بعض أنواع الألبسة التي قد لا تليق، ثم يتفقن على زيادة أو نقصان في بعض الأمور، ثم يعلن ذلك على النساء الحاضرات، ثم يفترقن بعد أن يعلن عن الموعد المقبل، وقد يبتن ويخرجن صباحا وهذا قبل وجود السيارات، ومما نلاحظه هنا هو أنهن لا يتدخلن في كل الشؤون التي تتعلق بالأعراس في كل قرية، ولكن أكثر القضايا التي يتحدثن

[1] - من علماء وادي مزاب في ق6هـ، كان عالما مصلحا ورعًا، له مصلى لا يزال قائما قبلة "آت مْليشَتْ" (مْليكَه)، وفيه كانت تُعقد جلسات المجلس الأعلى لمزاب والمؤتمرات الدينية النِّسوية.. معجم أعلام الإباضية ج3، ص512.

فيها هي الأمور المستحدثة لاسيما بعد الاحتلال الفرنسي، فقد أصدرت تحت قيادة "مَامَة نَ سْلِيمَان" رئيسة نساء غرداية أيام الاحتلال في 1882 قائمة من الأوامر الصارمة لمقاطعة كل ما هو فرنسي من لباس وعطور وأحذية إلى آخر القائمة، وقد ذُكرت هذه المرأة باسمها وبقائمة الأوامر التي أصدرها ملتقى "لا إله إلا الله" في كتاب "ثورات النساء في الإسلام" _لا أعرف اسم المؤلف_[1]، أما بعد الاستقلال فإن هذه الملتقيات مستمرة وقد زيد فيها كثير من الأمور الحسنة، ولكن أصبح لها دورا توجيهيا فقط، ولم تعد هناك تقريرات فيما يتعلق بكل بلدة، بل كل بلدة وقوانينها.

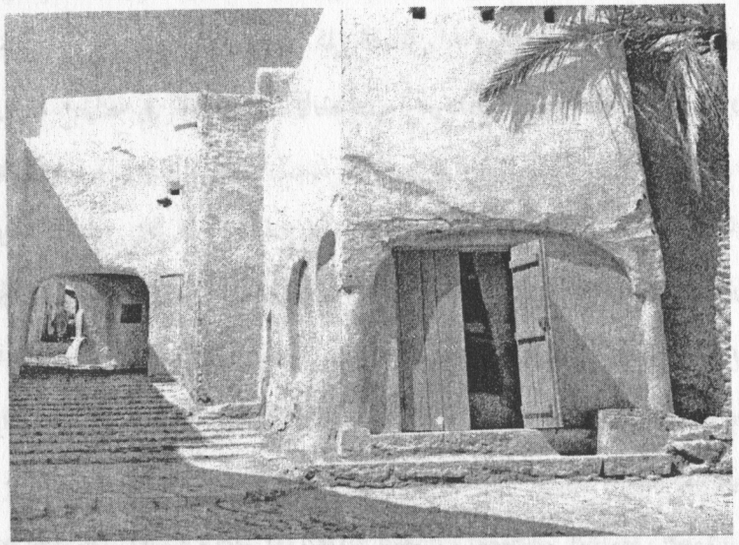

* تجدر الإشارة إلى أن مراجعة "اتفاقيات مجالس العزَّابة" في بلدة تجنينت (العطف) تكون كل سنتين ويعلن عنها بالمسجد الجامع في ليلة السابع والعشرين من رمضان، ويُفتح فيها المجال لكل المسلمين والهيئات الدينية والاجتماعية (العشائر _ الأعيان _ الغاسلات _ الوَزْرَانْ _ ثم أخيرًا العزَّابة) وذلك من أجل إبداء اقتراحاتهم وآراءهم للمناقشة والإثراء فيما يخدم المصالح العامة لجماعة المسلمين..

[1] - كتاب "ثورة النساء في الإسلام"، للكاتب الإيطالي أومتليو جوريو.

جماعة " لَمْكَارِيسْ " أو "المجلس البلدي"

يتكون هذا المجلس من رؤساء أو ممثلي العشائر على الأصح، لأن رئيس العشيرة هو أقدم عزّابتها، وذلك أن تختار كل عشيرة رجلا منها ويسمى "لَمْقَدَّمْ" في بعض القرى أو "الضَّامَنْ" في بعضها، ومن مجموعهم يتكون المجلس البلدي، وهو مجلس مستقل تماما ودوره يشبه أن يكون سياسيا، وإن كانت له مهمات كبيرة في البلدة، مثل مهمة الدفاع الحربي إذا وقعت غارة على ناحية من نواحي البلدة، أو على حَرَّاف البلدة ــوهو قطيع المعز وسيأتي الكلام عنه ــ أو مجموعة دواجنه كما سيأتي الكلام عليه، وكذلك يقوم باستضافة رؤساء القبائل المجاورة إذا زاروا البلدة، ويحدد العلاقات بين البلدة وبين كل القبائل المجاورة وحتى القبائل البعيدة التي تمر من وادي ميزاب وكذلك العلاقات بين القرى أو بين مجموعة القرى وأي نفوذ خارجي.

ولهذا المجلس محل للاجتماع يكون في السوق، ولهم دار يقال لها "دار النْزَالَة" لإيواء الضيوف، وغالبا ما يكون لهذه الدار إسطبل لربط الدواب قد يكون مجاورا لها وقد يكون خارجا عنها وهو طبعًا معدٌ لربط دواب الضيوف، ويختارون واحدا منهم كرئيس للجماعة، أما صلاحية هذا المجلس فهي تصريف شؤون البلدة كلها كما تقدم، وقد يعقد جلسة مع العزّابة إذا دعت لذلك إحدى الضرورات فإذا اجتمع المجلسان كانت في مركز العزّابة طبعًا في المسجد، هذا دورهم في القديم أي قبل الاحتلال، وعند اتصال فرنسا بمزاب بعد احتلال الأغواط سنة 1853 اجتمع رؤساء هذه الجماعات وبعثوا ممثلا عن كل قرية وعقد شبه اتفاقية مع القائد الفرنسي تضمن للمزابيين نوعا من الحرية الداخلية لاسيما ما يتعلق بالناحية الدينية.

ولم يكن لهذه الجماعة سيطرة روحية فإن نفوذها إداري، ولكنها كانت ترجع في أغلب تنفيذ أعمالها الكبرى، إلى مجلس العزّابة ليعينها بإرشاد العامة إلى

التطوع في بناء أسوار البلدة وأبراجها الدفاعية، وكانت قرارات الجماعة تعلن في السوق في آخر العشيَّة يوم انعقاد السوق، وكان يعيّن أمين البناء وأمناء الماء[1] من بين أعضاء هذه الجماعة، وقد أبقى الاحتلال هيكل هذه الجماعات خاضعا لقوانينه القديمة واكتفى بتسمية حاكم على البلدة وسمي "القايد"، وبقي وظيف رئيس الجماعة الذي كان حاكما للبلدة في القديم حليفا للقائد، ولم يكن هناك أيُّ فرق بين العشيرة الصغيرة العدد والكبيرة في التقويم، فلكل عشيرة نائبها وهذا فيما نعتقد أقرب إلى الديمقراطية من أي نظام آخر، وهو نفس النظام المأخوذ في الأمم المتحدة فصوت الهند أو الصين لا يساوي أكثر من صوت لبنان أو الــڤابُون، وهذا باستثناء حق الفيتو في مجلس الأمن.

وما دمنا نتكلم عن لَمْكَارِيسْ فإن هناك جماعة أخرى تسمى لَمْكَارِيسْ أيضًا، وهم اللاَّئِكِيُون بالمعنى العام لاعتبار أفرادهم، ومعنى ذلك أنهم لا يخضعون لسلطة المسجد، يعقدون اجتماعاتهم في وسط السوق البَرَّانِي ويرأس الجلسة أكبرهم سنًّا ويقررون ما يريدون عمله، ولا أستطيع أن أذكر على وجه التحديد دورهم ولكن أظن أنهم المحاربون الذي يحسنون استعمال السلاح، فقد رأيت جلسة لهم انعقدت في السوق البَرَّانِي في العطف قرروا حفلة بالزُّرنَة والبارود وكوَّنُوا معروفًا بِـــ"أَحْبَاسْ"[2] في الصباح، وفي العَشِيَّة والليل أقاموا حفلة زُرنَة في السوق الخارجي أما البارود فكان في العَشِيَّة، وقد كان لِلَمْكَارِيسْ إلى ما بعد الاستقلال أعراس يستقلون فيها عن المسجد فلا يُلبسون العريس بالحائك ولكن

---

[1] - أمين البناء يسهر على راحة الناس في دورهم فيمنع أن يرفع أحد أسوار منزله فيمنع الضوء والشمس عن جاره، أما أمين الماء فهو المكلف بالسهر على تنظيم تقسيم مياه السيول بين البساتين بالواحة حسب المساحات والمزروعات..

[2] - هو سد الماء الذي في آخر بساتين وواحات العطف، ويبعد عن البلدة بحوالي 2كم إلى الجنوب.

بالبرنس الأحمر القاني والزُّرنة، ولكن لهم حدود لا يتجاوزنها في البلدة وهذا برضا العزَّابة، فإذا التزموا حدودهم تغاضوا عنهم وإن تجاوزوها صُرِّح بأسمائهم في البراءة كما سيأتي، ومن أطرف الحكايات التي يرويها التاريخ عن مدى تقدير العزَّابة لهؤلاء المكاريس أن الشيخ بابه بن داود جد آل بن يوسف في العطف قد أوصى بِحِثْيَةِ تَمرٍ وعلَّقها في حُجرته الكائنة في مدخل السوق لهؤلاء المكاريس، كلما أرادوا أن يحتفلوا بالزُّرنَة ويبدءون النغمة الأولى من تلك الحجرة ثم يخرجون إلى السوق الداخلي ثم يخرجون إلى السوق الخارجي، وكان أحد العزَّابة يتفقد مركزهم بعد خروجه من صلاة العشاء فإذا وجدهم ساهرين عاد إلى داره مطمئنا وقال لأولاده: "إنكم الليلة محروسون"، فإذا لم يجدهم قال: "إن البلدة الليلة باتت بدون حراسة"[1].

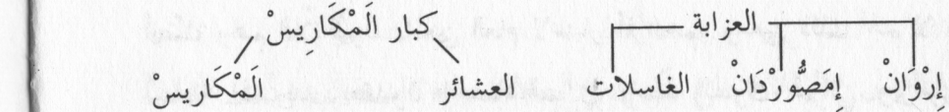

وقبل أن نختم هذا الفصل نود أن نزيد كلمة عن جماعة لَمْكَارِيسْ أو المجلس البلدي وهي أن دوره تضاءل جدا في عهد فرنسا فاقتصر على جباية الغرامة التي كانت تدفع كل سنة، والجماعة هي التي تقرر كيفية توزيعها وقبضها ولا تقسم على العشائر لا بالسوية ولا بالنسبة لعدد أفرادها بل توزع على كل شخص وما يملك، يقع إحصاء عام للبلدة كلها، تحصى الأملاك فتصنف الدور إلى أربع درجات وتوزع الحُجْرات كذلك، ثم تحصى عدد النخيل وعدد الرجال المتزوجين، فيقرر

[1] - هو الشيخ حمو بن باحمد أو الحاج محمد بن باحمد بكلي: كان رئيسًا للعزَّابة، توفي سنة 1885م في طريق العودة من الحجاز بعد أداء فريضة الحج، وكان قد زار المدينة وبيت المقدس، لقد كان هذا الشيخ فارسًا مغوارًا، إذ عُقد له لواء "إمام الدفاع" في قضية بوشوشة المشهورة..
ينظر بتفصيل: حمو عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر، ج1، ص 289 وما بعدها.

لكل من هذه عدد يؤديه مالكه وبعد أن يجمعوا كل هذا المال يُدفع للقائد وهو بدوره يدفعه للحاكم وبهذه الطريقة العادية لا يقع الإجحاف وقد يُعفون بعض الفقراء عن الأداء عن أنفسهم أما عن أملاكهم فلا.

ولقد أصابت هذه الجماعات أول الاحتلال الفرنسي نكسة فقد قدمت العشائر في بدء الاحتلال أناسًا من الطبقة الدُّنيا وذلك تهربا منهم عن الاحتكاك بالمحتلين، ولكن هذا أدى إلى ضياع كثير من حقوقهم، فعدلوا عن هذه الفكرة ورضوا بالأمر الواقع وفهموا أن الضرر بذلك يعود عليهم لا على الفرنسيين، وأصبحوا يولون أحسن من يجدونه مستقرا من أبناء العشيرة في البلدة، هذا وقد وقعت في العهد الأخير أي الخمسينيات صراعات بين العشائر في اختيار "الَمْقَدَّم" أدَّت إلى انقسام العشيرة أحيانا وذلك تبعا للصراعات الفكرية التي كانت تعيشها المنطقة، أما اليوم فقد شفيت العشائر من هذا الداء يوم ألغي العمل بالنظام القبلي بعد الاستقلال فهو نظام أكل عليه الدهر وشرب، وإن كنا نحن لا نرى هذا الرأي وسنعود إليه بالتفصيل.



* صورة أخرى لسوق تجنينت العتيق وفيها تظهر مجموعة من الأحصنة، ومن بينها "حصان القايد"، فقد كان هذا المكان منذ القديم خاصا بالمجلس البلدي وما يزال..

* صورة نادرة لسوق تجنينت العتيق لعلها تعود إلى مطلع القرن الماضي، وفيها تظهر مجموعة من جمال البدو وهي رابضة وسط السوق وعليها حطب يبدوا أنه من الصحراء وقد كانت العطف قديما مركزًا تجاريا ضخما

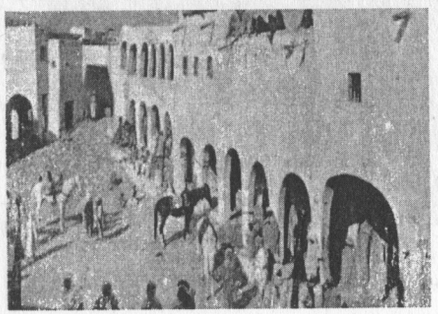

المجلس الأعلى للهيئات الدينية
"عَمِّي سْعِيدْ" و "بَاعبد الرحمن الكُرثِي"

بعد استقرار هيئات العزَّابة واستكمال هيآتها التي تسير تحت إشرافها، عمل بعض العلماء الأفذاذ على إيجاد هيئة عليا تجمع كل علماء الوادي في جلسات دورية، الغاية منها توحيد صفوف العزَّابة في آرائهم الاجتماعية واختيار القول المختار الذي يُعتمد في الفتوى ويحكم به القضاة، حتى لا تتسم فتاواهم بالفوضى وذلك أن الشريعة الإسلامية السمحة أباحت الاجتهاد، فنشأ تبعًا لاختلاف الآراء اختلاف أكثر في مسألة فقهية وهذا من سماحة الإسلام ومن رحابة الشريعة الإسلامية وفضل من الله ومَنِّه، ولكن رأي العلماء الأفذاذ أن يتفقوا دائما على القول الراجح لئلا يقع العبث بأن يُجيزوا بقولٍ اليوم وبقولٍ آخر غدا، ثم مواجهة ما يحدثه الناس من بدع وما يتجدد في أمور الحياة ولقد كانت لهذه الهيئات أراء واتفاقات، ولا تزال مسجلة إلى الآن ومعمول بها في أغلب الأحوال.

ويتكون هذا المجلس من الشيوخ الوُعَّاظ أولاً ومن ممثلين عن جميع هيئات العزَّابة الموجودة في القرى السبع يعقدون جلسات شهرية وكلما دعت لذلك ضرورة، ولقد تصدى بعض الأساتذة الشبان لدراسة هذا المجلس وصلاحيته في أطروحة _نسأل الله لهم التوفيق في عملهم الجبار_ حتى يستخرجوا هذه الكنوز المدفونة وينتفع بها الناس، ونعود للحديث عن هذه الهيئة كان مؤسسها هو الشيخ "سعيد بن علي الجربي"[1] الذي استوطن غرداية ودفن بها ومقامه الآن مشهور وذريته موجودة في غرداية وبريان وكان ذلك في القرن الثامن الهجري، وفي مقامه تقام صلاة العيدين إتباعا للسنة منذ قديم الزمان وهو المكان الوحيد في جميع قرى

[1] - عالم أطبقت شهرته الآفاق، وقد اشتهر باسم "عمي سعيد" (ت: 898هـ/1492م)، أول من أسس مجلسًا عاما للفتوى يجمع مشايخ وعلماء كل قصور وادي مزاب... ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص376 وما بعدها.

وادي ميزاب الذي كانت تقام فيه سُنة العيد، أما سائر القرى فكل الناس يصلون في المساجد إلا ما حدث أخيرا في بريان والقرارة، ويعقد هذا المجلس جلسات استئناف للأحكام التي ترفع إليه من محاكم القرى تحت رئاسة عالم حر وسيأتي الكلام مفصلا في ذلك، ولهذا المجلس إشراف على جميع الأوقاف الموجودة خارج ميزاب أو خارج الجزائر، فيسهرون على تسيير الأوقاف التي هي للجميع وليست لقرية وحدها، وكان من صلاحيات هذا المجلس أن يعترف بالمشيخة لمن بلغ درجة من العلم مثل الإجازات التي يعطيها المشايخ لطلبتهم فقد وجد على مر التاريخ شيوخ معترف بهم على مستوى القرية وآخرون معترف بهم على مستوى المجلس، ويقول الأستاذ الشيخ بكلي عبد الرحمن وهو من المحققين في هذا الأمر إن مجلس الشيخ بَاعبد الرحمن الكُرثِي يغلب، عليه الطابع العلمي والدليل هو إجازة الإمام قطب الأئمة الشيخ أطفيَّش في ذلك المجلس وله قصيدة مشهورة مطلعها

سلوا مسجد الكُرثِي يوم تجمعوا على العالم النُّوري فيه وزعزعوا

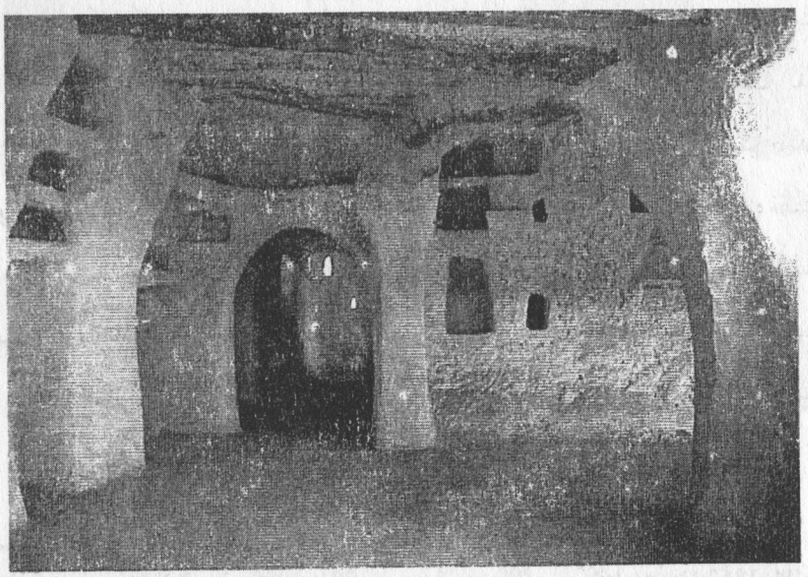

(صورة من داخل مصلى الشيخ عمي سعيد الجربي في "تَغَردايْتْ").

مجلس الاستئناف

تقدم أن مجلس عمي سعيد كانت له جلسات منتظمة تعتقد للنظر في الأحكام التي يصدرها شيوخ العزّابة أو القضاة في كل قرية، وهذا لكي نفهمه جيدا يحسن بنا أن نعود قليلا إلى أنظمة المساجد عبر التاريخ لنستطيع أن نتصور هذا الدور، كان في كل مسجد شيخ عالم يقوم بالفتوى والوعظ والإرشاد ويقسّم المواريث ويسجل البيوع وجميع العقود ويقيس الجراحات[1] وهذا كله ضمن عمله في المسجد، ولذلك رأى هؤلاء العلماء أنهم قد تُعرَض لهم مسائل قد تكون فوق مستواهم فيستشيرون من هو أقدر منهم وأعلم، فكانت هذه الندوات تُسفر دائما عن نتائج تنفع الجميع، وتبعا لذلك أصبح كل من حكم عليه بحكم يرى أنه غير عادل يرفع شكواه إلى هذا المجلس فيتفاوض الأعضاء ويقررون الحكم العادل، وكان يرأس المجلس أعلم الجميع ويكتبها أحدهم ثم تدرجوا حتى صار يرأس الجلسة عالم حر أي ليس بقاض في قريته، وذلك طلبا للنزاهة وتحريا للعدل وإن كان القضاة يحضرون كلهم، هذا الوضع كان قبل الاحتلال وحين جاءت فرنسا وبدأت تحدد من نفوذ السلطة القضائية انتزعت من صلاحيات هذه المحاكم قضايا الدماء كالقتل والجروح والأضرار البدنية، ثم زادت فجددت من صلاحية هذه المجلس بقيدين، أولا: اشترطت أن يتفق الخصمان على الاحتكام لهذا المجلس، ثم قصرت المدة التي يمكن فيها للمحكوم عليه أن يطلب الاستئناف إلى ثمانية أيام عوضا عن الشهر الذي كان مقررا في أول حكمها وكان مُطلقا قبل الاحتلال، وبذلك قضت على هذا المجلس بطريقة ذكية ماكرة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومنذ

[1] - كان آخر شيخ يعمل بقياس الجروح في مزاب هو الشيخ إبراهيم بن موسى بن بلحاج محفوظ (1867- 1948م) في بني يسجن وأصله من العطف من آل بن عيسى، وله "رسالة في مقاييس الجروح"، ينظر: نفسه، ج2، ص65.

ذلك الحين لم يعد في استطاعة الناس أن يستأنفوا أحكامهم بهذا المجلس، ولو اتفق الخصمان لما كانت هناك قضية ولا محاكمة.

وبقي منذ ذلك الحين عمل المجلس محصورا في قضايا الفتاوى والاتفاقات في القضايا الدينية المستحدثة مثل العمل بالتلفون في الصوم والإفطار، والعمل بنداء الحاكم المسلم، والإشراف على الأوقاف كما تقدم.

نلاحظ أن الحكومة الفرنسية حَدَّدت من صلاحيات هذا المجلس وأطلقت العنان لمن أراد الاستئناف إلى محكمة المطلب الأول بالبليدة، ولم تشترط في هذا الأخير اتفاق الطرفيين، وهناك دراسة مهمة لأستاذنا الشيخ عبد الرحمن[1] في الموضوع سنلخص آراءه في هذا الموضوع تعميما للفائدة.



(صورة قديمة لسوق غرداية ولعلها تعود إلى مطلع القرن الماضي).

[1] - هو: الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي الشهير بـ"البكري" (1901-1986)، من علماء العطف البارزين وأعلامها المصلحين، وهو من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وله تآليف عديدة.. ينظر: نفسه، ج3، ص521.

الأعـــراس

إن الأعراس في وادي ميزاب لا تزال تستأثر باهتمام الكثير من المفكرين وحتى من المواطنين أو من الأجانب، وذلك لما يسرى فيها من روح المرح والأنس وما يتبادل فيه الناس من آيات الحب والولاء والتعاطف، وما يبذل فيه ذووه من كرم لكل الناس على اختلاف مراتبهم بأريحية تشبه تلك التي ذكرها زهير بن أبي سلمى:

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ونستسمح زهيرًا العفو فنقول نائله عوضا عن سائله، وذلك لأن الناس هنا يذهبون إلى الأعراس مدعوين!، وقبل أن نتكلم عن هذه الأعراس بكل تفصيل وبدون تطويل نرى أن نبدأ قبل ذلك بذكر بعض النظم والترتيبات التي تسبقها.

الخِطبة أو "الَمْقَاوْلَة" كما نسميها بلغتنا، وذلك أن الوالدين بعد أن يختاروا لولدهم بنتا قد يختارها هو بنفسه من بين بنات البلد، وقد تقترحها له والدته فيراها في الشارع أو في إحدى المناسبات من أعراس أقربائها أو في عيد من الأعياد كعيد الزيارة الذي سيأتي ذكره، أقول بعد أن يتفق الوالدان مع ابنهم تبعث عائلة الشاب إحدى الأمهات العاقلات أو إحدى الغاسلات فتتقدم للخطبة، وليس من العادة أن ترد والدة البنت الخبر في حينه بل تطلب مهلة للاستشارة أو تكاتب والد البنت إن كان غائبا، هذا إذا لم تكن مخطوبة سرًا، فقد يقع ذلك في بعض الأحيان، وفي هذه الحال ترد العائلة هذه الموفدة ردًّا جميلاً، بأن ترحب بهذه الثقة وبهذا الظن الحسن ولكن قضي الأمر، أما إذا لم تسبق خطبة فإن مدة الاستشارة لابد أن تمرّ، فإذا اتفق والد البنت وقد يستشيرانها في ذلك أجابوا الطلب أو رفضوه، وحين يكون الجواب بالقبول يضرب موعد لتقديم هدية الخطبة وهي عبارة عن لَبسة كاملة للبنت، وهذه اللبسة محددة من المسجد فهي واحدة لكل بنات البلدة لا فرق في ذلك بين الغني والفقير، ولا من ناحية المخطوبة ولا من ناحية الخاطب، ويوم تقديم الخطبة تذهب

بعض قريبات الابن إلى دار البنت فيجدن في استقبالهن قريبات البنت، ويقدم لهن التمر والحليب، وتُعرض تلك البدلة على النساء الحاضرات وذلك ليتأكد الجميع أنها متماشية مع أوامر العزَّابة، وفي بعض القرى يقرر أن تحضر إحدى الغاسلات أي امرأة من الهيئة الدينية للنساء وهذا كله محافظة منهم على سد باب المغالاة حتى لا يتضرر الضعفاء وغير القادرين[1].

ويستمر نوع من التهادي بين العائلتين سيما في الأعياد، ولا يُزاد للبنت المخطوبة شيء من اللباس أو الذهب أو غير ذلك حتى يوم العرس، وأما الهدايا الخفيفة مثل الحلوى والكَاوْكَاوْ مع بعض الشموع في المولد، أو شيئا من حلويات رمضان في إحدى الليالي الممتازة فهذا مسموح به.

عقـــد الزواج

أما مناسبة العقد فلا مراسيم فيها إلا في بعض القرى، فإنهم يدعون إليها بعض الأقارب والأصهار والجيران من الجانبين إلى دار العروس، وبعد تناول الفطور وغالبا ما يكون بِخُبز "مَغْلُوقـــة" كما يقع في بلدة بريان، بل يطلقون على هذا اليوم بالقول: "يوم الَمْغَالِيـــقْ عند آل فلان" فيحضرها بعض العزَّابة سيما شيخ المسجد فيتلو الفاتحة وخطبة الزواج ويبارك جميع الحاضرين ذلك الزواج[2]، وتكون هذه المناسبة في بعض القرى مناسبة لإعلان تاريخ العرس، ومما تجدر الإشارة إليه بهذا الصدد: الشروط التي يُمليها وليُّ المرأة على الزوج حتى يكون النكاح مُمَلَّكًا، وهذا اختيار وقع في اتفاقات "مجلس الشيخ عمي سعيد" ولا أعلم على وجه التحديد متى وقع، ولكن الشيء الذي لا نشك فيه هو أنه معمول به في

---

[1] - نُقلت هذه العادة إلى مجمع الرجال، وتعطى شهرًا قبل حفل الزفاف.

[2] - تقام مراسيم عقد القِران الآن في المسجد بحضور جميع المصلين، ويكون ذلك 3 أيام قبل يوم الزِّفاف، هذا بالنسبة لبلدة تجنينت (العطف)، وقد شرع العمل بذلك منذ 1987م، وقد تقام في بعض دور العشائر.

القرى السبع إلى يوم الناس هذا، وهذه الشروط هي: "أن لا يسرق، ولا يزني، ولا يشرب الخمر، ولا يترك الصلاة، وأن لا يتزوج ولا يتسرَّى إلا بعد إذنها، ولا يغيب عنها أكثر من سنتين، وكانت في القديم ثلاث سنوات، وكان هناك شرط آخر هو أن لا يُخرجها من بلدها الذي تزوجت فيه"، وهذه العبارة اليوم قد ألغيت بعد أن أصبحت الطرق آمنة والحمد لله، أما المزابيون الذين يتزوجون في خارج ميزاب فيكتبون "وأن يسكنها حيث سكن" ويذيّلون هذه الشروط بعبارة: "فإذا أخل بشرط من هذه الشروط كان أمرها بيدها إن شاءت قعدت وإن شاءت طلقت نفسها ولا يضرها الانتظار"، وقد يقتصر بعض القُضاة بكتابة عبارة مختصرة وهي: "واشترطت عليه أن لا يفعل محرما شرعا"، ولكن هذا الاختصار أدى في كثير من الأحيان إلى سوء تفسير بعض المُغرضين وأدى إلى خصومات من أجل أن الزوج ارتكب سيئة من السيئات، ولكن الشيخ بيُّوض ـحفظه الله[1]ـ كتب بيانا شافيًا لرجال القضاء حتى يكفوا عن هذا العبث، وهذا وقع في أوائل الأربعينيات ولم يعد الآن موضعٌ لهذا العبث.

وأما الكيفية التي كانت تتم بها مراسيم الطلاق إذا ارتكب الزوج محرمًا أو خالف شرطًا من الشروط، فهي أن تتقدم الزوجة بطلب إلى المحكمة الشرعية وترفع دعوى ضد زوجها وتثبت دعواها بأدلة قاطعة أو شهودا أو وثيقة، وإذا ارتضاها القاضي واطمئن لصدق الدعوى حكم بالتفريق بينهما، ومع أن كل العقود تحمل هذه العبارة فإن القليل جدًا من النساء استعملن هذا الحق، إلاَّ أنه مكَّنهن من سلاح فعال يُجرِن به من تعسف الرجال الذين لا يخافون الله، ورددن به الكثير منهم للجادة، وكل هذا مرتبط ارتباطا وثيقا بالوضع الاجتماعي وباليقظة الاجتماعية التي يتسم بها هذا المجتمع المسلم المثالي، فالطلاق هناك دائما ينظر إليه

[1] - هذا دليل قطعي على أن هذه الرسالة قد كتبها المؤلف قبل وفاة الشيخ بيُّوض ـرحمه اللهـ، أي قبل سنة 1981م.

بنظرة انتقاد لأنه أبغض الحلال إلى الله، فكيف به إذا كان الرجل هو مطلَّقٌ لا مطلِّقٌ، وهذا فيه ما فيه من الحط بكرامة الرجل في مجتمعه.

وأخيرا يجدر بنا أن ننبه على الصداق في كافة قرى ميزاب، فهو مقرر كل سنة من طرف عزَّابة المسجد سواء أكان دراهم أو ذهبا أو فضة أو لباسا، وهذا التشريع قد حفظ سكان مزاب من شرور المغالاة التي يتخبط فيها كثير من المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر لاسيما في الجزائر، وقد يُساءل متسائل وما هي العقوبة على من خالف؟! والجواب بسيط هو الدعوة في المحراب ليلة الجمعة والناس يُؤَمِّنون أو إعلان البَرَاءة أو مقاطعة العُرس من طرف العزَّابة وهو يستتبع حتما مقاطعة الناس لهذا العُرس وهذا ما يخافه كل الناس، ولو ذهبنا نعدد المواقف الرائعة التي وقفها العزَّابة في مجال تنفيذ أحكام المسجد أمام العتاة والجبابرة لطال بنا المقام ولعلنا سنعود إلى هذا الموضوع في مناسبة أخرى بحول الله.

مراسيـــم العُـــرس

يبدأ من أراد أن يُقيم عرسا في كثير من الأحيان ببعض إصلاحات بداره أو بيته على الأقل، وإذا اقترب الموعد دعا أعيان عشيرته وهو عبارة عن أفراد العشيرة إلى فطور أو عشاء فيخبرهم بعزمه فيعلنون موعدا لجلسة عامة لكافة عشيرته، فيعرض على المجلس العام مقررات الأعيان ويقسمون الأعمال ويعينون الشباب الذين يعدُّون الوليمة، وبعد وضع كل الترتيبات وكتابة الدعوات للعزَّابة والعشائر الأخرى يُشرع في المراسيم.

وإذا كان صاحب العرس فقيرا يسأله الأعيان في الجلسة الخاصة إذا احتاج إلى إعانة أو سلف إذا كان وليَّ يتيم، وقد تكون تلك الجلسة مناسبة لعرض مصاريفه وحساباته عليهم، وقد تتحمل العشيرة كل نفقات العُرس سواء بالنسبة للبنين أو للبنات، وهذا التحمل قد يكون من كيس العشيرة بعد تقريرهم، وقد

يتحمله أحد أقاربه بطلب منه، وقد يستدعون أغنى أقربائه فيطلبون منه فيُجيب، وكل هذه الصور موجودة ومعمول بها، وخلاصة القول أن كل هذا يقع سرًّا فلا يشعر به الشاب المتزوج إطلاقًا إذا كان أبوه حيا، وأما اليتيم فقد يُخبر بعد عرسه أن العشيرة قد تحملت كل المصاريف ولو كان المتحمل فردًا، حتى لا يكون له عقدة، وهذا كله من فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1]، ولا حاجة إلى التنبيه مرة أخرى أن هذه الأعمال الخيرية هي على حد سواء في جميع القرى بل قد تختلف قوة وضعفا تبعا للناس القائمين على أمور العشائر كما سبق أن نبهنا قبل.

كيف تبدأ حفلات العرس؟!

ليست تراتيب هذه الأعراس موحدة في جميع مظاهراتها بالنسبة للقرى، بل قد تختلف في بعض الجزئيات ولكن مما لا شك فيه أن المساجد ورجالها مشرفون تمام الإشراف على هذه المظاهر سيما ما كان منها أساسيا، ولذلك فأنا أقتصر على ما عرفته وعشته في العطف وبعض ما رأيته في بعض القرى التي عشت فيها زمنا وإن كنت حينئذ طالبًا لا دخل لي في تسيير الأمور ولكن هذا لم يمنعني من الملاحظة.

كنا قبل الحرب العالمية الثانية نبدأ مراسيم الأعراس بالعطف بيوم "إِخرَاجِ الزَّرع"[2] وهو بنحو أسبوع قبل ليلة الدخول أو ليلة البِناء، ويبدأ هذا اليوم بدعوة العزَّابة ثم رؤساء العشائر ثم كل عشيرة على حدة، فإذا طلعت الشمس يدخل العزَّابة أولاً فيجدون صاحب العُرس أمام داره ومعه جماعة أعيان عشيرته يرحب بالعزَّابة فيدخلون فيجدون قنطارًا من القمح الجيد في وسط الدار ويبسطون نَطعًا،

[1] - اقتباس من قوله تعالى: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو النضل العظيم"، الحديد، 21.

[2] - لا زال المصطلح متداولاً بالمزابية في أعراس العطف إلى تاريخ اليوم، وهو: "أَسُوفَغْ نْ إِمَنْدِي".

فيقوم شابان قويان ويقربون ذلك القمح منهم وهم مُحلّقون فيفتحون كيس القمح ويخرجون منه مقدار النصف ويضعون الكيل فوق ذلك القمح، ويشترك الجميع بملء ذلك الكيل بيد واحدة وهي اليمنى، فإذا امتلأ الكيل أفرغه خادم العزَّابة أو سقَّاءُ المسجد في عدلٍ مهيأٍ من قبل، ثم يعيدون ملء ذلك الكَيل، وغالبا ما يكون حِثيَةً قديمة[1]، وبعد إفراغها للمرة الثالثة يقلبون الحِثيَةَ فيُلقون بأيديهم كذلك كمية من القمح على ظهرها وهو قليل جدًا فيفعلون ذلك ثلاث مرات، ثم يكررون نفس العملية، بالنسبة للمَدِّ كذلك يملئونه ثلاث مرات ثم يقلبونه ثلاث مرات، ثم يُنحَّى ذلك القمح ويغسلون أيديهم ثم يُفطرون بالسمن والعسل ثم يدعون الله فيخرجون، فيأتي رؤساء العشائر فيفعلون نفس ذلك العمل ثم يفطرون ويدعون الله ثم تتابع العشائر واحدة تلو الأخرى بدون ترتيب، وإنما ألجأهم إلى ذلك ضيق المحل فهم يتجمعون في السوق ويذهبون إلى العُرس بالتناوب، وبعد أن يفطر كل المدعون ويخرجون، يتركون النساء يفطرن كذلك ثم يتداعين للعمل في كامل الأسبوع، أما الشابات القريبات فيمكثن في دار العُرس إلى اليوم الثالث بعد العرس أو إلى السابع، وأما النساء الكبيرات فإنهن مطلوبات بالحضور كل يوم ولكن حسب ما تسمح به ظروف أعمالهن في بيوتهن، أما الشابات فعليهن الاعتماد في كل الأعمال، وتتابع الأيام هكذا يوم تصفية القمح ويومان لطحنه ويوم لغربلته ثم يوم الفتل ويوم الوليمة، وهذا ما يقع في السابق وبعد الحرب وازدياد عدد السكان واتساع العمران رأى العزَّابة أن يحذفوا هذه العبارة من عادات العرس لما فيها من تكاليف مادية تُثقل كاهل الناس، وعوضت بدعوة العشيرة فقط ثم اختصر الفطور إلى شاي في العَشِيَّة بدار العشيرة إذا كان الوقت صيفا وفي الليل بعد العَشاء إذا كان شتاء.

[1] - من الموازين التقليدية ويعادل 12 مُـدًّا.

أما تعليل هذه العادة من الاشتراك في عمل بسيط فهو يشبه ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم حين حسم الخلاف بين زعماء قريش في وضع الحجر الأسود مكانه، وأما قلب الكيل فقد سألت الكثيرين من شيوخنا و لم يجبني أحدهم جوابا شافيا إلا أن أحدهم قال لي: إنهم يرمزون لذلك إلى تقلب الحال من رخاء إلى شدة، وقد سجلت هذه النكتة لعل القارئ يجد لها تفسيرا، ولربما وجد أحدهم لهذه العادة نظيرًا لها في بعض البلدان الأخرى في الجزائر أو خارجها، وقال لي آخر فيه إشارة إلى قول الله تعالى "وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه" والله أعلم بما أرادوا، وقد ألغيت هذه العادة تماما مع كل ما فيها.

وقد علل عمنا الشيخ الحاج عمر بن حمو[1] ذلك بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم في وضع الحجر الأسود في موضعه أما قلب الكيل فهي إشارة إلى حالتي اليسر والعسر.

وهناك أمر آخر انفردت العطف به في أمر الأعراس وهي عادة "تعليق الخيمة"، فإن الوزراء الذين يُختارون لمرافقة العريس وخدمته في أيام العرس يجتمعون عشية اليوم السابق لوليمة العرس في السوق، فيقبلون جماعات ويذهبون إلى دار العُرس ويعلقون في السطح الفوقاني خيمة مستطيلة ويعبر عنها "بِالفَلِّيجْ"، وهو قطعة من نسيج يصنع بالصوف والشعر مثل الذي تنسج للخيمة التي يسكنها البدو، ولابد أن تمر فوق الشباك الذي يتوسط الدار وتشد إلى أسوار الدار في أعلى ما يمكن العلو حتى يراها الناس من بعيد، بعد أن يعلقوها يصبون فوقها ذَنوبا من الماء ثم يوزعون الخبز المصنوع في الدار وحفنة من الفول المدَمَّس[2] لكل الحاضرين، فيلقي كل الحاضرين ذلك الفول للبنين والبنات الصغار الذين يتجمعون في السطح

[1] - هو الشيخ عمر بن حمو بكلي، تلميذ القُطب أطفيَّش ـرحمهما اللهـ وقد سبق الإشارة إليه.

[2] - حتى بعد إلغاء العمل بنصب الخيمة في السطح، بقيت عادة توزيع الفول المحمر على النساء في دار العُرس.

الأوسط فيزدحمون على التقاط الفُول، وبعد أن يدعو أحد الحاضرين الله ينزلون من السطح، ويمرون أمام النساء الملتحفات المتجمعات في وسط الدار، تاركات طريقا واسعا لمرور الناس، ويكُنَّ في الغالب جالسات على الأرض، وقد ينشُرن الزغاريد بعد أن يصبُّوا ذنوب الماء من السطح الأعلى، كما قد يُطلق أحد المَكَارِيسْ طلقة واحدة من البارود، وإن كان هذا من عادات أعراس المَكَارِيسْ، أما في أعراس الطلبة فلا يكون البارود إلا نادرًا وبإذن من العزَّابة كأن يكون والد العريس من لاعبي البارود، وبعد النهاية من الدعاء وقبل الانصراف ينادي الوصيف الذي يسبق الناس دائما في المشي إلى العرس وهو الذي يوزع الخبز والفول: "إنكم مدعوون أيها الحاضرون للعشاء" فإن لبُّوا النداء تعشوا جميعا في الدار، وهذا ما كان يقع، أما الآن فقد أبقي على هذه العادة ولكن العشاء لا يكون في دار العرس بل في "الْحَجْبَة"، كما أمر العزَّابة بتقليل عدد الذاهبين إلى تعليق الخيمة، وهنا يتبادر للقارئ أن يتساءل ما سبب هذه العادة وما معناها وهل ترمز إلى شيء؟! ولماذا تختص بها العطف دون سائر القرى؟! أسئلة طالما طالبنا بها الكبار ولكننا لم نجد لها تفسيرا نطمئن إليه، ولعله من المفيد أن نذكرها على عادتنا، ولنترك للقارئ التعليل، يقول بعضهم: "إن رسول صلى الله عليه وسلم بَنَا بزوجته ميمونة بشرف تحت خيمة وقد فعل الناس إتباعا للسنة" وهذا ـفيما أرىـ احتمال ضعيف فهناك فوارق، ويقول آخرون: "إن الأسلاف ـرحمهم اللهـ أرادوا بهذا أن يرمزوا إلى أننا كنا ممن يسكن الخيام فلا تنسوها فإن الحضارة لا تدوم" ويقول فريق آخر: "إن نصب الخيمة على السطح الأعلى في الدار هو بمثابة إعلان لمن أراد أن يتعشى، حتى إذا مرت قافلة من الوادي ورأت خيمة منصوبة علمت أن هناك وليمة فتزلت للعشاء"، أما نحن فلا زلنا لم نطمئن إلى أحد هذه التفاسير فالبحث مقترح.

بقيت هناك نكتة يجب أن نسجلها حتى نكون أمناء في نقل كل الجزيئات التي تكمل الصورة، وهي أن بدء المسيرة من السوق لا يكون إلا بعد دخول "الْحَرَّاف"[1] أي بعد رجوع القطيع أو عند عودة القطيع، وسيأتي الكلام عنه بحول الله وهذه نكتة لم نجد لها كذلك تعليلا، هذا ما أمكن أن نذكره في العادة و لم يبقى إلا أن نزيد نكتة وهي أن العزَّابة لا يحضرون في هذه العادة إلا أن يكون أحد العزَّابة هو صاحب العُرس وقد لا يحضر رغم ذلك.

ومما قد حضرني مما لم أذكره في محلّه وهو أسطورة تحكى في أوساطنا عن الشاب إذا ما بلغ سن الرشد و لم يتزوج وهو يريد الزواج ولكن والديه سكتوا عنه و لم يجد وسيلة ليبلّغ والديه احتجاجه فإنه يأخذ زِيرًا أو أي آنيةٍ من فخار فيصعد إلى السطح العالي ويلقيها من السطح فتنكسر هذه الآنية في وسط الدار وبذلك يفهم الوالدان أن ابنهما قد طال به انتظار الزواج فَيُجدُّون في الأمر ويعجلون له برغبته، هذه حال كانت ورحم الله ذلك الزمان فإن أبناءنا اليوم هم الذين يستمهلون والديهم حتى إتمام الدراسة أو حتى يجدوا عملا قارًّا أو وظيفة محترمة ولله في خلقه شؤون.

"الوَزْرَانْ " أو "الوُزراء"

أما الوُزراء الذين سبقت الإشارة إليهم فهم مجموعة من الشباب وقد يكون بينهم الكهول، يقومون بمرافقة العريس في الأيام الثلاثة من حفلات العرس، وهم الذين يرافقونه ليلا إذا ذهب إلى داره وينتظرونه أمام داره عند طلوع الفجر أو قبل ذلك بقليل فيذهبون به إلى المسجد ليدرك صلاة الفجر مع الجماعة، ويحرسونه ويحرسون ملابسه ثم يعودون به إلى "الْحَجْبَة"، وهناك ينام حتى حوالي العاشرة صباحا حيث يجتمع كل الوزراء فيقُصُّ عليهم ليلته، وواجبهم الأول هو أن

[1] - تنطق الرّاء مُرققة، وتعني "قطيع المَعز" الذي تشترك فيه كل البلدة، وسيأتي الحديث عنه في آخر الكتاب.

يعلموه ما أوجب الله عليه من الفرائض ويعلمونه جميع ما يتعلق بأحوال الزوجية وواجباتها والاغتسال والأشياء التي تحل والتي لا تحل، حتى يكون زواجه مبنيا على الشريعة الإسلامية الغراء، كما يعلمونه آداب السلوك مع والديه ومع زوجته، ويعرفونه جميع ما يتعلق بالعادات والتقاليد، كل ذلك في الليلة الأولى وقبل الذهاب إلى داره، ويقوم الوزراء كذلك باستقبال الضيوف الذين يزورون "الْحَجْبَةَ" للتهنئة ويدعون من يريدون للغداء أو للعشاء ويوزعون الشاي والنُّقَل لمن حضر حفلات الليل، إلى غير ذلك من كل ما يتعلق بالحجبة والعرس، هذا هو مجمل عملهم ولكن هناك بعض التفاصيل تختلف بين القرى في عدد الوزراء وطريقة اختيارهم ولباسهم، ومن يتحمل المصاريف إلى غير ذلك، ولنبدأ بالعطف لأنها أول القرى ولأننا نعلم عنها أكثر مما نعلمه عن غيرها من القرى، ففي العطف يختار أعيان العشيرة في جلستهم التنظيمية قائمة الوزراء ويراعى في تكوينها أن يكون من كل عشيرة ممثل، يعني يختارون شابا عن كل عشيرة ويزيدون اثنين من عشيرة العريس، فإذا اجتمعوا اختاروا رئيسهم وقد يكون من غير عشيرة العريس، وقد تُراعى في أغلب الأوقات قضية السِّن، ولا يلتزم الوزراء بأي نفقة بل كل النفقات تكون على حساب والد العريس ككل نفقات العرس، ولكنهم يقومون بكل ما يجب من التنظيف والتزيين والتَّفريش، والحَجبة كلها تحت تصرفهم ولا دخل فيها لأحد إلاّ والد العريس، إذا دعا مثلا بعض الضيوف من خارج القرية قد يطلب من الوزراء أن يحتفوا بهم أو أن يُعدوا له شايا لاستقبال ضيوفٍ من الأجانب، إلى غير ذلك من بعض الأمور غير العادية في الأعراس[1].

[1] - أما اليوم فإن الحَجبة تستقبل الناس في يومين فقط، اليوم الأول وفيه يكون "أَيْرِيضْ" أو "التتويج"، وقد يقع ظُهرًا أو عِشاءً، واليوم الثاني "أَصْبَاحْ"، إذ في الصبيحة يُهنَّأُ العُرس وتنشطُ فيه المجموعة الصوتية، وبعد العصر يكون "أَكَبِّ فْ إِخَفْ" أو "تقبيل الرؤوس"، ومساءً تُحيى الليلة الثانية بالأناشيد والمسرح..

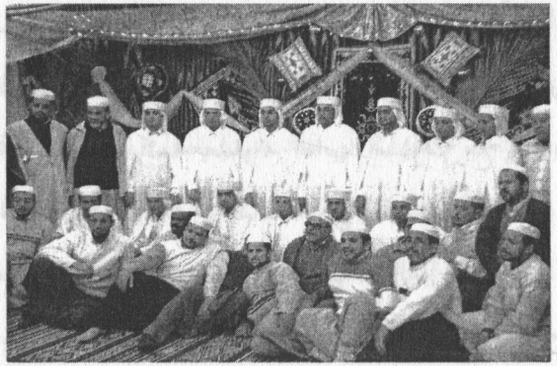

"دار الحَجْبَة" وهي تحتضن عُرسًا جماعيًا ببلدة تجنينت (العطف) بتاريخ: 2006/03/16 عدد "العُرس" 12، وهم بالبرانس والعمائم الصفراء، ومن حولهم "الوَزْرَانْ" أو "الوُزراء".

أما في القرارة فإنهم يختارون أربعة وزراء فقط ويلبس لهم العزَّابة لباسًا موحدًا مع العريس، وقد لا يفرق بينهم وبين العريس خاصة من لا يعرفه من قبل[1]، وقد يخرجون من الحجة إذا ما دعوا لفطور أو غداء خارج الحَجبَة وهذا خلافا للعطف، وقد كانت مصاريف الحجة إلى عهد قريب في القرارة على ذمة الوزراء أما الآن فقد أصبح المصروف كله على صاحب العرس، أما في بني يسجن فإن "الوزارة" سلف بين العائلات وإذا أراد أحد أن يقوم بتزويج ابنه فإنه يخبر الوزراء الذين سبق أن استوزر عندهم بشهر قبل العرس على الأقل لكي يستعدوا لرد السلف، فإذا جاءوا وقاموا بواجبهم تحملوا كل مصاريف الحجبة، ولا يتجاوز العدد عندهم أربعة أشخاص فيما سمعت، ولعل تغييرا قد طرأ على هذه العادة، أما في بريان فيشترطون أن يكون أحد أعضاء العزَّابة مع الوزراء وذلك ليضمن احترام أوامر العزَّابة في أيام العرس، وأهل بريان يجيزون للعريس والوزراء الخروج من الْحَجْبَة إذا دعوا إلى وليمة في الخارج.

أما كيف تكون الْحَجْبَة وأين؟! فهذا ما سنتحدث عليه.

[1] - وفي القرارة أيضا: ميزة خاصة وهي أن العريس الذي استظهر القُرآن يُلبس حائك العزَّابة دون غيره.

اَلْحَجْـبَة

هي دار من الدور العادية أو دار لعشيرة ما، تُهيَّـأُ وتُزين لإيواء العريس ورفاقه في أيام العُرس، وذلك تبعا لما أمر الله به من عدم اختلاط الرجال بالنساء، وقد فكر أجدادنا ـ رحمهم الله ـ فكوّنوا هذه "الْحَجْبَات" لكي يتجمع فيها كل من حضر العرس من الرجال، وقبل اليوم كانوا يختارون أيَّ دار مناسِبةٍ، ولكن اليوم بعد أن أصبحت لكل عشيرة دار تقريبا أصبحوا يحجبون في دور العشائر، بعد تنظيفها وتزيينها ببعض الزرابي المعلقة في الجدران، ويفرشونها بالبسط ويعلقون على الجدران صورا لأقارب العريس ولأحد المشايخ، ويجعلون في مدخل الدار جريدتين خضراوين وهي إشارة ليعلم الناس أن هناك حَجْبَة، لأن الدار في حد ذاتها لا فرق بين بابها وأبواب الدُّور العادية، وجعل الجريدة على الباب إشارة إلى الدخول الحر أي بدون إذن، ولقد كانت ولائم الأعراس تقام في دار العريس ففيها يكون تتويجه وفيها يحضر الناس المدعوون إلى الولائم، وقد طرأ الآن تغيير كبير على هذه العادة وذلك نظرا لتزايد السكان، ومنعًا لأي اختلاط بين النساء والرجال وصونًا للحُرمات، قرر العزَّابة أن تكون "الوليمة الكبرى" وهي التي تصحب تتويج العريس في دار العشيرة أو في المدرسة إذا ما كان العرس في وقت عطلة، ولا تزال بعض قرى الوادي تُولِمُ في دار العريس وإن كانت لا تقع في يوم واحد بل تتمدد الوليمة إلى الأيام الثلاثة، وذلك لأن الدُّور لا تسع كل المدعوين وهذا يقع في مدينة بني يسجن وفي غرداية كذلك، تقع الوليمة في يومين وفي مليكة كذلك، أما في القرارة والعطف فتكون في يوم واحد وبعد تتويج العريس مباشرة[1].

[1] - بالنسبة للعطف فإن حفلة "التتويج" أو "الوليمة العامة" تُقام في دار الجماعة، أما "الْحَجْبَات" فكل عشيرة تحتضن عُرس أبنائها في دارها وتُحضّر لإنجاحه ما يلزم من التنظيم، غير أن "الوزران" يتطوعون في كل الأعراس دون تحيّز أو تمييز، وإن كانت الأعراس الجماعية تنظّم حسب العشائر، ففي العطف سبع عشائر: "آتْ الحُجَّاجْ، وآتْ حْرِيزْ، وآتْ الخَلفِي، وآتْ عبد الله، وآتْ بَاكّه، وآتْ جلمام، وآتْ لَمْخَارَج"، وقد تتحد أكثر من عشيرة في عُرس..

الوَلِيمة وحفلة التَّتويج

لقد تحدثنا فيما سبق عن حفلة التتويج ويقال لها بالمزابية "أَيْرِيضْ" وهو الإلباس، ويعنون بذلك إلباس العريس لباسه التقليدي الممتاز، ويقع هذا في اليوم الذي يسبق ليلة الدخول والعَشاء، وقد كان الناس في القديم يختارون يوم الأحد أو يوم الأربعاء فقط ثم صاروا اليوم يختارون يوم الخميس وذلك تبعا للعطلة الرسمية بالنسبة للجزائر وطلبا لتيسير الحضور على الموظفين والعمال والمعلمين، ولسنا نعلم سببا لاختيار الأحد إلا أنه يقال أن بدأ خلق الدنيا كان يوم الأحد وهذا أمر مشهور، فإنهم يختارون الأحد حتى لبدء البناء أو حفر البئر أو أي عمل مبتكر، أما الأربعاء فلا نعلم لها معتمدا، والمهم أن الناس اليوم لم يعودوا يتمسكون بهذه الأمور ولكننا في معرض ذكر كل الدقائق التي تمكننا من إعطاء صورة صادقة لهذا المجتمع كيف كان وكيف حاله اليوم، وتتمثل هذه الحفلة في إعداد وليمة تختلف القرى اليوم في وقتها أما في القديم فقد كانت بعد صلاة العصر مباشرة في أكثر القرى، أما اليوم فقد طرأت عليها تحسينات تبعا للظروف، فالأوائل ـرحمهم اللهـ حين قرروا الوليمة بعد العصر كانوا يراعون الفلاحين الذين يشتغلون في الواحات والعمال الذين يعملون، ومن المعلوم أن المجتمع الإسلامي لا يرى بعين الرضا وليمة يحضرها الوجهاء ويحرم منها الفقراء، وقد ندد رسولنا الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم بذلك حين قال: "شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليه الأغنياء ويترك الفقراء"، ولذلك حرص الأوائل ـرحمهم اللهـ أن يحضرها الأغنياء والفقراء على السواء، ولكن اختيارهم لوقت بعد العصر كان تقديما لمصلحة الفقراء على الأغنياء ولو شاءوا لجعلوها وقت الغذاء وألزموا الضعاف أن يتركوا عملهم من أجل وجبة من الطعام وفي هذا ما فيه من العنت والحرج، وهناك من يزيد وليمة صغرى في الليل بعد العشاء لِيُقبل إليها من لم يتمكن من الحضور في العَشِيَّة مثل أصحاب

الدكاكين أو المشغولين في السوق في "الدْلاَلَة"، ولقد طرأ على وقت الوليمة تغيير كبير وذلك كسبا للوقت واختصارا للنفقات التي أصبحت ترهق كاهل الضعيف، وذلك لأن وجبة العصر كانت في القديم تُغني عن الغَداء والعَشاء، أما اليوم فرأينا الناس لا يرغبون في الأكل بعد العصر إن أكلوا في منتصف النهار، ولذلك رأى ذوي الرأي أنه من اللائق أن تكون الوليمة في وقت الغداء أو في وقت العشاء حتى يتمكن للجميع الحضور، حتى الذين كانت لهم أعمال في العَشِيَّة ولم تسمح لهم بالحضور، وأمكن حتى للناس الذين يحرسون المكاتب الحكومية عند منتصف نهار الخميس أن يحضروا حفلة التتويج بعد قضاء سبع ساعات في الطريق بين العاصمة وقرى مزاب.

كيف تكون هذه الوليمة؟!

يبدأ الناس بعد صلاة العشاء مباشرة في التوافد جماعات ووحدانا إلى محل العرس، إما إحدى دُور العشائر وإما المدرسة، ويجدون في استقبالهم أعيان عشيرة العريس عند مدخل الدار، وإذا اكتمل مجلس العزَّابة وغالبا ما يجيئون في مقدمة الناس من المسجد مباشرة، وبعد أن يستقر بهم المجلس يفتتحون سورة الأنعام في قراءة جماعية تبعث الخشوع والرهبة في الجميع، فإذا بلغوا إلى قوله: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه"[1] يقوم بعض العزَّابة فَيُلبسون للعريس حائكًا وهو الشعار الرسمي للعزَّابة فوق لباسه الجديد العادي، ويربطون هذا الحائك بحزام أحمر من حرير، ثم يُعطَّرُ هو ومن معه، ويتقدم الأبناء الصغار كل يحمل ملابسه الجديدة لِيُلبِس لهم العزَّابة ملابسهم كذلك، وهذه من أغلى أماني الأبناء عندنا كما سيأتي الكلام على البنات، وكذلك أماني والديهم، ويجلس كل أولئك الأولاد أمام

[1] - الأنعام، الآية 83.

العريس حتى يُتم الحاضرون تلاوة سورة الأنعام[1]، والوزراء يستمرون في رش الناس بالعطور المختلفة الألوان والروائح، وعند اختتام السورة يدعو رئيس العزَّابة بصوت مرتفعٍ ثم يُلقي كلمة تهنئة وموعظة للحاضرين، وبعد ذلك يقوم كل الصبيان ليذهبوا لأُمهاتهم، ويشرع الجميع في أكل العشاء لونًا واحدًا فقط وهذا محدد من طرف العزَّابة، ولا يُسمح لأحد مهما كان غِناهُ أن يزيد شيئا غير متفق عليه كالفواكه مثلاً، وبعد إتمام العشاء المتواضع يخرج من لا يقدر على السهر، ويجدون عند الباب أولئك الأعيان ويودعونهم والكل يدعو بأحر الدعاء ليبارك الله هذا العُرس على العائلات المتصاهرات وعلى البلدة، ولا تقدم التهاني من طرف الأشخاص للعريس إلا في الصباح، أي بعد أن يكون قد بَنَا بزوجته، وبعد أن يخرج الذين لا يسهرون تبدأ حفلة الأناشيد الدينية، تُفتتح وتختتم بتجويدات من الذكر الحكيم ثم بين ذلك أناشيد دينية وخُطب ونُكت، وفي الليلة الثانية تُمثَّل رواية فُكاهية إمَّا بالبربرية وإما باللغة الدارجة تعالج موضوعا من المواضيع الهامة الحيوية، وبعد انقضاء هذه الحفلة وخروج جميع الحاضرين يبقى العريس ووزراؤه ليلقوا عليه درسًا قيِّمًا فيما يجب مراعاته من عادات وتقاليد تلك الليلة الخالدة بالنسبة إليه، ويعلمونه كذلك ما يجب عليه من الناحية الدينية في علاقته بزوجته، وبعد ذلك يرافقونه إلى داره، وبقيت هناك ملاحظة وإن كانت ربما اختصت بالعطف وهو أن العريس يخرج من الدار التي تُوِّجَ فيها وهي "الْحَجْبَة" برفقة اثنين من وزرائه ليزور أقاربه سيما والدته وذوات محارمه التي يتجمعن في الدار، ثم يعود بعد ذلك لأخذ مكانه في "الْحَجْبَة"، وبعد أن يخرج العزَّابة من الحجبة يصبح هو صاحب المرتبة الأولى في الحجبة، فيُبدأ توزيع الشاي منه وكذا كل ما يقدم للحاضرين من حلوى أو نُقَل أو غير ذلك، وهذا العُرف متبع في الأيام التي يقضيها الشاب في الحجة،

[1] - في تحنينت (العطف) صار التتويج الآن يتم بتلاوة سورة الفتح، أما في القرارة فتُتلى خواتم القرآن.

وإنها لعادة من أحسن العادات فكثير ما نرى معلمًا كان إلى الأمس القريب يعلم هذا الشاب فإذا به اليوم يمسك له الإبريق ليغسل يديه، وقد يكون من بين وزرائه شريك لأبيه، ربما كان قبل شهر يأمره وينهاه ويعلمه ما يجب أن يحذقه في ميدان الاقتصاد فإذا به في هذه الأيام الثلاثة يقوم بأي خدمة يطلبها الشاب منه بكل تواضع وبدون تعقيد[1]..

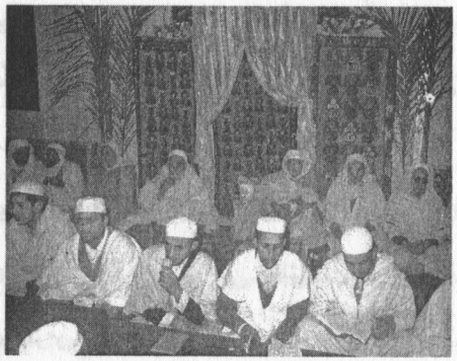

* إحدى حَجْبَاتْ الأعراس في تَغَرْدَايْتْ ويُرى العريس مُتصدرا المجلس في الوسط وعن يمينه الشيخ حاج صالح بابكر ـرحمه اللهـ (وهو والد العَريس)، وعن يساره الشيخ إبراهيم بيُّوض ـرحمه اللهـ، وأمامهم المجموعة الصوتية حول الطاولة.

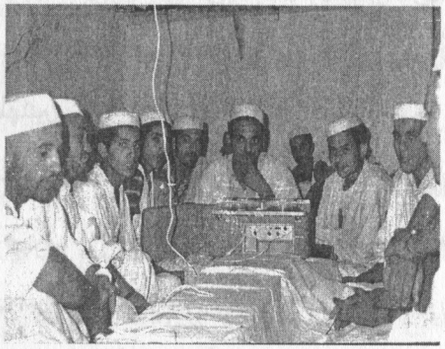

* "إذاعة العُرس"، كان الشباب وما يزالون ينشّطون "الحَجْبَات" في صبيحة العُرس، وفي الليلة الثانية كذلك، يحتفون بإخوانهم العُرس يقدمون وصلات فنية مختلفة أناشيد ونكت.. وقد يشارك أحد الضيوف في كلمة يقدمها للعُرس كنصائح وتوجيهات فيما يستقبلهم..

[1] - وقد كانت فيما سبق عادة تُسمى "أَخَطَّا" أو "التَّخطِيَة"، وهي مراقبة أخطاء الوزران والعُرس وحتى المواطنين، وتغريم المخطئ، مثل أخذ كأس العريس أو حذاءه، أو تحويل العُرس إلى حجبة أخرى..، وكل هذه لها ضوابط متعارف عليها، وهي بحق مدرسة لسبر الطباع والأخلاق، حتى إنه كان يقال: إذا كُنت تريد البحث عن عامل أو شريك فاطلبه في الحجبة".
هذه الإضافة تفضل بها الأستاذ: قرادي محمد بن الحاج إبراهيم وهو ابن المؤلف. العطف: 2009/03/30.

وإنك لتجد حتى مِن بين العزَّابة من يجلس أمام كرسي العريس ليقرأ نشيدًا دينيًا أو يُجود آيةً وتلك صبغة الله على هذا المجتمع المثالي الذي عاش ولازال لدينه، وهو يحاول في وسط أمواج من تيارات الفتن العقائدية أن يبقى مثلا حيا للمجتمع المسلم في حدود إمكانياته، هكذا تمر أيام "الْحَجْبَة" ولياليها في جو من المرح والابتهاج يشعر المرء في تلك الأجواء بحرارة الإيمان وبالأخوة التامة التي كوَّنها الإسلام، وترى الأريَحِيَّة التي تتملك قلوب المضيفين الذين يرون أن من لَبَّى الدعوة وشارك في العرس قد طوق صاحب العُرس مِنَنًا لا ينساها أبد الدهر، وكم كانت مناسبات الأعراس واقترابها وإعدادها مدعاة لصلح بين خصمين أو بين عائلتين أو عشيرتين مما لا تسلم منه المجتمعات مهما بلغت من الالتزام بمبادئ الإسلام، ولو ذهبنا نعدد لطال بنا المقام، وكنا نرى من ناحية أخرى من يغلق دكانه ويوقف معمله من أجل الحضور والمشاركة في غرس أحد أبناء البلدة اليتامى، وقد يَنقُل عُمَّاله على نفقته من أي ناحية من نواحي القطر بهذه المناسبة والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وفي اليوم الأول أي عند صباح الليلة الأولى تتوالى وفود المهنئين، أما اليوم الأخير في الْحَجْبَة وهو اليوم الثاني بالنسبة لبعض القرى واليوم الثالث بالنسبة لبعضها، ففيه عادة أرى أنها من أحسن العادات وهي أن يخرج العريس وجميع وزرائه إلى المقبرة فيقف على قبر والديه إذا كانا ميتين أو أجداده ويطوف على كل مصليات المقابر يدعو الله في كل واحدة منها أحد الوزراء، ويوزعون الخبز في آخرها، ثم يدخلون جماعة مارين على السوق فيجدون كافة العشيرة مجتمعة تنتظرهم.

ويحضر كذلك كل أقاربه وأصهاره وإن كانوا من غير عشيرته، وبعد أن يدور العريس مُقَبِّلاً رؤوس الحاضرين[1]، ويتوجه كل واحد منهم بهدية بعَدَدٍ من المال كل على قدره، ويلقي عليهم أكبر الحاضرين كلمات خالدة يوجهه بها في مستقبل حياته، ويذكر له ما هي واجباته نحو هذا المجتمع الذي يتمثل في المسجد والمدرسة والسوق والعشيرة والبلدية إلى غير ذلك من المؤسسات القائمة على استمرار هذا النمط من الحياة الاجتماعية، إلى آخر ما يمكن أن يقدمه مجتمع يحوط الفرد برعايته منذ ميلاده إلى يوم وفاته، ثم يقوم العريس ويترع ثيابه الرسمية مؤقتا ويوزع القهوة على الحاضرين، وطبيعي أن كل ما قيل عن عريس واحد نقوله إذا كان عريسان أو أكثر، وبعد أن يفترق الحاضرون يبقى العريس في الْحَجْبَة مع وزرائه، وبعد العَشاء والصلاة يلقي عليه وزراؤه درسا آخر في السلوك الذي يجب أن يلزمه لحفظ التوازن مع والديه وعائلته وإخوته، فيؤدي لكل ذي حق حقه من غير أن يستهين بحق أحدهم إرضاء للآخر، ويغلب أن يلقي هذه الدروس أكبر الوزراء سنًّا، ويكون غالبا ممن سبقت لهم التجربة في هذا الميدان، وفي الغد يعود الجميع لرد الزَّرابِي والأثاث الذي قد يكونون استعاروه لتزيين الْحَجْبَة.

بقيت هناك ملاحظة هي أن الهدايا أو الدراهم التي قد يجمعها في عشية "تقبيل الرؤوس"[2] أو الشكر أو الاعتراف بالجميل كما يصح أن تسمى به هذه العادة، فإنه يحتفظ بها العريس بعد أن يُطرح منها عددًا رمزيًّا لواجب الكهرباء في دار الْحَجْبَة أو واجب عاملٍ يقوم بنقل القصعات التي تُبعث من دار الْحَجْبَة غداءً للوزراء والعريس وضيوفهم.

---

[1] - ما تزال هذه العادة بالعطف، وتسمى بالمزابية "أَكَبٌّ فْ إِخَفْ"، ويقصد منها الاعتراف بالجميل، وقد أصبحت هذه العادة يكتفى فيها بتقبيل رؤوس أولياء العُرس والعزَّابة فقط: أما الحاضرين فالمصافحة فقط.

[2] - هي نفسها السابقة، "أَكَبٌّ فِ إِخَفْ".

كما أن هذه العادة تشترك فيها النساء وذلك أنه قبل دخولهم الْحَجْبَة إذا عادوا من المقبرة يرافقون العريس حتى داره فيُقَبِّلُ رأس أمه وجدته أو الخالات والعمَّات وتُمكِّنُ له والدته مع ما أعطت له قريباته من دراهم، أما الهدايا الأخرى فتبقى في الدار، وملاحظة أخرى هي أنه إذا وقف أمام داره "ليلة البناء" وهي الليلة الأولى من العُرس لا يتركون العريس يدخل إلا إذا جاءت وَصِيفَتُه تسير أمامه وتوصله إلى بيته السعيد، وغالبا ما يكون البيت في السطح الأول إذ يجد والدته في انتظاره في أعلى درج السطح فتباركه وتزوده بدعواتها الصالحة وتُمكِّن له هدية يقدمها لزوجته عند الدخول.

هذا ما تسنى لنا أن نذكره عن وليمة العُرس بالنسبة للشباب، بقي علينا أن نذكر باختصار ما هي مظاهر الحفلة عند آل البنت وكيف يتم زفافها لزوجها وذلك ما يأتي في الفصل المقبل، وقبل أن أختم الحديث الذي أود لو كان أطول، أريد أن أؤكد أن جميع ما يتعلق بالأعراس مُقَنَّنٌ من طرف العزَّابة، سواء في ذلك الصَّداق وكيفيته _أي يكون مالاً أو ملابسَ أو ذهبًا_ وقيمته وكل ما يهديه الزوج لزوجته، سواء في الليلة الأولى أو الثالثة أو السابعة، وكل ما يُصنع من طعام أو شاي أو النُّقَل يُسيَّر بكل دقة تحت إشراف العزَّابة وبأمرهم ومراقبتهم، وقد تعرضنا لكل هذا سابقا، وليس معنى هذا أنه لا توجد أي مخالفة، ولكن اقتناع الناس بصلاحية هذه الأوامر وإخلاص العزَّابة فيما يريدونه من خير لهذا المجتمع وراحة الناس من هذه الأوامر، كل ذلك جعل انتهاك الأوامر في بعض الحالات ولدى بعض الأشخاص أمرًا يكاد يكون شُذوذًا عن القاعدة، وهذا طبعا مما يُقرُّها كما هو معروف، والشيء الوحيد الذي نستطيع أن نطمئن إليه هو أن أي مقترح لتحسين وضعية الأعراس وتسهيلها يلقى القبول والتأييد والتشجيع من طرف مجلس العزَّابة، ولقد اضطروا للتضاء على كثير من العادات الجميلة لا لشيء إلا لما فيها

من إرهاق للضعفاء مثل عادة إخراج الزرع التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة، وذلك لما فيها من إرهاق الميزانيات المحدودة، ولا يمكن أن نسمح للغني أن يفعل ما يشاء في عُرسه لأن هذا بطبيعة الحال سيضطر الفقير إلى أن يحذو حذوه وهذا ما لا يستطيعه، أو أن تكون حفلته مختصرة وهذا يخلق تعقيدا في نفس الفقير وعائلته، وهذا ما نودُّ أن نمحوه من مجتمعنا، نعم نحن مؤمنون بالله وبالقرآن الذي يقول الله فيه: "نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا" الآية[1]، ولكننا كذلك نؤمن أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "سيروا على قدر ضعفائكم"، ففي المستطاع وبشيء من الحكمة والتعقل أن نكفكف من غرور الأغنياء ونذكِّرهم بأحوالهم، إذا كان يغلب الصلاح على هذا المجتمع المسلم، ولكننا لا نستطيع أن نُحمِّل الفقراء فوق ما يستطيعون حتى يجاروا الأغنياء ويسابقوهم، وقد يقول قائل لماذا لا تتركون كل واحد يصلي صلاته ويسير على حسب قدرته؟! ونحن نجيب إن هذا أمر واقع في السير العادي واليومي، فلسنا في يوم من الأيام نتدخل في مصاريف الناس اليومية أو فيما يقدمون لعائلاتهم في الأعياد والمناسبات من الحلي أو من الملابس فذلك أمر سِرِيٌّ مختص به كل واحد في بيته، وإن كنا طبقا لتقاليد الإسلام نحارب الترف والبذخ والإسراف، إنما مراقبتنا وقوانيننا فيما يتعلق بالأعراس والمظاهر العامة التي يطَّلع عليها كل الناس، وقد بيَّنا فيها ما يضر بالمجتمع، ولسنا هنا في مقام مناقشة إلا أننا نبَّهنا على هذه الملاحظة التي قد يبديها الناس، وعلى كل حال فلا نزال إلى هذا اليوم نحمد الله الذي وفق أسلافنا إلى التمسك بهذه الطريقة، كما نحمده أن وفقنا لا للإتباع فحسب ولكن لتحسينها وجعلها متماشية وما يتطلبه منا عصرنا، وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا.

---

[1] - الزخرف، 32.

مظاهر العُرس من ناحية البنت

تقدمت لنا كلمة في الخِطبة أو الَمْقَاوْلَة كما نُسميها بلغتنا المحلية، ونريد أن نسرد شريط العرس بالنسبة للبنت وما يجري فيه، وكل ما أقررناه في أمر الشاب من إشراف العزَّابة ومراقبتهم للعرس، نقوله في أمر البنت من مراقبة العادات والأعراف وأوامر العزَّابة من طرف الهيئة الدينية للنساء "تِمْسِرِدِينْ".

ويبدأ الاعتناء بأمر البنت في استقبال عُرسها "بليلة الحِنَّاء" وذلك أن تجتمع قريباتها في عشية أول الأسبوع أي بنحو أسبوع قبل العرس، ويغسل رأسها ويعطر ويدهن ويُظَفَّر بشكل معروف، وذلك كله مصحوب ببعض الأغاني الجماعية تؤديها البنات أو النساء، وفي الليل تذهب هي ورفيقاتها من البنات غير المتزوجات وأغلبهن قريبات لها وبعد أن يتعشين وبعد ذلك يلبسن الحناء في أيديهن، أما العروس ففي الأيدي والأرجل، وهذه الليلة تسمى "ليلة الحنَّاء" وتكون في أغلب الأحيان عند جدتها لأمها أو لأبيها أو إحدى خالاتها أو عماتها ثم تتكرر هذه العادة ثلاث ليال، ويكون ذلك بطلب من قريباتها فإذا تلقت الأم الدعوات واختارت أسبقهن إلى الدعوة أو أكبرهن أو أكثرهن أولادً وكل ذلك يقصد به التبرك بالدار التي تبدأ فيها ليلة حنائها، وكذلك البنات يُدعَين من طرف والدة العروس، وفي الصباح تطوف هذه العروس دور القريبات وهي تلبس لباسًا خاصا محليا وهو من صوف مُسرَّج في دارها غالبا وتُحلَّى بالذهب والفضة، وعلى ذكر الذهب والفضة لا بأس بملاحظة أن في البلد كثيرا من النساء التي لديهن مجموعة من الحلي إما من الذهب أو الفضة أَوصَينَ به لله تعالى كالوقف يكون بيدِهن دائما، وما على من احتاج إلا أن يذهب إلى هذه الدُّور فيطلبه من صاحبة الحُلي ويحدد لها موعدا لرده حتى تعيره لعائلة أخرى، وهذا موجود بكثرة وليس هناك في كل القرية إلا القليل من النساء التي يكتفين في أيام عرس إحدى بناتهن بحليهن وحده بل لابد أن تحتاج

إلى أن تستعير نوعا من أنواعه، وربما زدنا بسطة في هذا الموضوع في مكان آخر، وإذا قلنا هذا في الحلي فذلك بالنسبة لبعض الملابس التي تلبسها العروس في بعض الأيام، وهي ملابس تقليدية لا يُحتاج إليها في غير العرس ولذلك فلا حاجة به ولا لزوم لإرهاق والد البنت بشرائه ليستعمل مرة أخرى، ولو نظرنا مثلا بين بنتين متزوجتين فلا نجد أي فرق بينهما في اللباس أو الحلي لأن الغني قد يشتري لبنته حليا بمناسبة عرسها ولكن ماذا يشتري لها؟! ربما يشتري لها عقدا أو أساور أو أقراطا ولكن لا يقدر على أي حال أن يقتصر على ما اشترى فلابد أن يحتاج إلى الاستعارة وليس في ذلك أي غضاضة، ولهذا نرى البنات متساويات في لباسهن على اختلاف أحوال والديهن، وفي هذا ما فيه من إشاعة لروح المساواة بين أفراد المجتمع، وإذا جئنا إلى بيت الزوجية فإن العادة عندنا تقتضي ــ وهذا في أغلب القرى ــ أن يكون أثاث البيت كله من مال البنت يعني من مال أبيها، ويشتمل على أثاث معروف ومحدد من طرف مجلس العزَّابة بكل تفاصيله، وليس لأحد مهما بلغ من الغنى أن يزيد شيئا غير مذكور في الاتفاقات، فلا فرق أصلاً بين بيت الغنية وبيت الفقيرة، ويعيد العزَّابة النظر من حين لآخر فيما يجب زيادته أو نقصه أو تبديله من هذه الأثاث وذلك تمشيا مع الوقت[1]، وذلك مثلما وقع في طواف الدُّور فقد كانت العروس طيلة أسبوع تطوف بالدور مع رفيقاتها من البنات فلا نترك دارا في البلدة لا تدخلها، أما الآن فقد قرر العزَّابة التقليل من هذا الطواف لأن البنات اليوم ارتفع سنهن في الزواج، وكما قرروا الاقتصار على عدد قليل من

---

1 - لقد سعى العزَّابة في ظل تبدل الأحوال الاجتماعية إلى تخفيف الحِمل عن أولياء البنات، فطرحوا أشياء مكلفة وعوضوها بما هو أرفق، مثلاً: عُوضت مؤخرًا "تَفَرَّاشِيتْ" وهي: زَربِيَّة تُدار على كامل جُدران غرفة العَروس، وطولها 7م وتصنع في الأصل بالصوف، وصار بالإمكان وضع التي بالفِبرَان وهو صوف صناعي غير مُكلف، وهذا مراعاة للوضعية الاقتصادية وبطلب من جماهير الأولياء، كما أن بعض أثاث البيت يكلف به الزوج ويدخُل في صداقها وملكها حاليا.

الرفيقات ولا يذهبن الآن إلا لقريباتهن أو زميلاتهن اللائي تزوجن، ومن لا يمكنهن حضور العُرس، ولابد أن تعطي لهن صاحبة الدار التي يزُرنها شيئا مهما قَلَّ مثل خاتم من فضة أو دينارًا أو حفنة من حلوى أو نصيبًا من "العقيق"[1]، ليلعبن به في أيام العُرس وهي حلق صغيرة من زجاج مختلفة الألوان، وهذه العادة قد تكون مناسبة لعرض البنات في العائلات التي لا تعرفهن وبهذا التعرف _سيما وهن متزينات_ قد يقع اختيار العائلات على إحداهن فتخطب إلى والديها، ولست أحفظ ترتيب كل مظاهر الاحتفال الخاصة بالبنت ولكني أسرد هذه المظاهر ولا عبرة بالترتيب فقد يختلف ذلك من قرية إلى أخرى، وهناك عادة " أَسْكُبَّرْ "[2] وهي ليلة تعقد أولاً في دار البنت، تُدعى لها كل نساء البلدة بعد العشاء، فتقعُد البنت في وسط حلقة من النساء وتبدأ النساء بترديد بعض الأغاني البربرية[3] فيها دعوات لله أن يبارك العرس، وبعد الانتهاء تقوم العروسة وترقص على نغمات بعض الأغاني المختارة المعروفة وهذا قدر ضروري لابد منه، والظاهر أن المقصود به هو نزع الحياء الذي قد يملك إحداهن في أيام عرسها نظرا للمجتمع المحافظ، وكل هذه الأمور يراد بها أن تعلم أن الزواج وما يتبعه من مظاهر الحفاوة والتكريم هو حق من حقوقها، وقد ابتكرت الآن البنات المتعلمات علاوة على ذلك حفلات أخرى تدعى لها بنات قسمها في المدرسة وزميلاتها في الدراسة فيقمن بحفلة بأناشيد دينية وتلقي فيه إحدى البنات خطبة بالعربية الفصحى ويوزع عليهن الشاي والنُّقَل تماما مثلما يقع في الْحَجْبَة بالنسبة للشاب، إلا أن حفلة البنات تكون في غالب الأحيان في العَشِيَّة لا في الليل، وفي كل هذه الحفلات النسائية لا دخل للرجال فيه والحركة

[1] - يقال لها بالمزابية "تِيعُكَّايَنْ"، وهي حِلق زجاجية صغيرة وملونة تلعب بها البنات، وللأسف فقد اندثرت تماما.

[2] - هذه اللفظة مأخوذة من التكبير "الله أكبر"، وما تزال هذه العادة في تَغْرْدَايْت خاصة وبكثير من العناية والاهتمام.

[3] - للأسف لم نجد إلى اليوم من يجمع لنا هذا التراث الخالد وذلك قبل أن يندثر في عصر المبتكرات.

منفصلتان تماما، يحتفل الرجال بالشاب وتحتفل النساء بالبنت، فهكذا أَمَر الله وهكذا تقتضي الأنظمة في المجتمعات الإسلامية، نسأل الله أن يوفقنا للمحافظة على سلامة هذا المجتمع وعلى ترتيبه في إطار قانون الله الذي خلق الذكر والأنثى وحدد لكل دوره في هذه الحياة، وجعل لكل منهما حدا يجب أن يقف عنده إذا أراد السلامة في الدنيا والآخرة[1].

بقي علينا أن نزيد كلمة عن "اَلْعَادَةْ"[2] هكذا تسمى، وهي ما يصنعه والدا البنت العروس من طعام يدعون إليهم جيرانهم وأقاربهم وأعضاء العزَّابة، وذلك في منتصف النهار قبل ليلة البِناء، وهذه في بلدة العطف أما في القرى الأخرى فقد أُلغيت، أو تُقدم بعد أن تُصبح العروس في بيت زوجها، وبعد أن يكتمل الجمع يقدم لهم الكسكس فيخلطونه بأيديهم بالسمن، وبعد أن يملئوا به قصعة كبيرة[3] ويكللونها بنصف شاة لحم من الغنم، تحمل هذه القصعة وهي معلقة على عمود طويل يحمله رجلان من طرفيه[4]، ويذهبون بها إلى دار العُرس أي إلى الزوج، وهذه هدية من أولياء البنت لأولياء الزوج، وإذا وصلت هذه القصعة في دار الزوج يتغذى بها كل الناس الحاضرين في الدار ويردون منها قُصَيعَةً من ذلك الطعام نفسه فتقسمه النساء الحاضرات لقمةً لُقمة، وهذا تبعا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "تهادوا تحابوا"، بقي علينا أن نذكر أنه في اليوم السابق ليوم العُرس تبعث عائلة البنت أثاث بيتها لعائلة الزوج، وقبل منتصف النهار تذهب جماعة من النساء إلى دار الزوج وذلك لترتيب أثاث البيت وتعليق البُسُط على الجدران وكذلك المرايا

[1] - إن هذه الترتيبات لمن صميم الشمائل المحمدية، ولو اقتدى الناس بها لكفونا شر الاختلاط وما ينجر عنه من الفساد.

[2] - تنطق حروف الكلمة جميعها حتى التاء في الأخير، وهذه العادة أُلغيت ثم أُرجعت مرات عديدة، ثم أُلغيت أخيرًا.

[3] - تسمى بالمزابية "طَزُوضَا"، _تنطق حروف الكلمة مفخمة كلها_، وهي قصعة دائرية مُقعرة وعميقة نوعًا ما.

[4] - هذا العمود عادة هو إحدى ساريتي المنسج التقليدي في مزاب وهي اسطوانية الشكل، وتسمى بالمزابية "تِيرْسَلْتْ"، ويُطاف بـ"طَازُوضَا" وسط الدار مع الزغاريد، ويحملها الرجال ثم يعودون بذلك العمود إلى دار العريس.

وترتيب خزانتها بكل ما تملك هذه البنت من ملابس وترتيب " الْمَرْفَعْ " بأدوات الزينة مثل المِزود والْمِكحَلة والعطور وكل ما يتعلق بأمور زينتها، وفي هذا اليوم يكون غداؤهن في دار العروس ولكنه بسيط نظرا لكثرة الناس، ويسمى هذا اليوم "يوم المَحَمْصَة" أو "يوم البيت"[1].

وقبل الدخول بساعات يأتي عون القاضي إلى دار البنت ومعه شابان فينادي صاحب الدار والد العروس فتجيء معه وتقف وراء الباب ومعها وصيفتها، فيبلغ لها أن والدها قد زوجها فترد بالقبول أو تسكت ويكتفي بسكوتها إذا كانت بِكرًا ويستمع لقبولها إن كانت ثَيِّبا وهذا أمر معلوم من الشَّرع ثم ينصرفون[2]، وتُختار لهذه العروس بعض الشابات المتزوجات يمكثن معها في الدار ولا يفارقنها إلا إذا دخل زوجها في الليل وهن بمثابة "الوزراء" بالنسبة للزوج، ودور هؤلاء الشابات هو التعريف بالعادة وإسداء النصائح وخدمة العروسة في كل ما تحتاجه ويعلمن للبنت كيف تستقبل زوجها وكيف تتحدث معه وما هي واجباتها الشرعية في حياتها الزوجية، إلى غير ذلك مما قد لا تستطيع الأم الإفضاء به لبنتها مما يفرضه الحياء والاحتشام وهذا شيء طبيعي..

1 - "يوم البيت" هو بالمزابية "آسْ نَ تَرَقَّا"، وقد ألغيت منه "لَمْحَمْصَة" مؤخرًا لما يقع فيها من المغالاة في تقديم اللحم معها للنساء الوافدات من أجل تزيين غرفة العروس، وعوضت عنها بالتمر والحليب فقط، من باب إكرام الضيف.

2 - أما هذه العادة فلا أثر لها اليوم، فالمحاكم والموثقين صاروا مكان "عون القاضي"، وقد استبدلت عادة "التسميع" كما يقال لها، باجتماع محارم العَروس وأقاربها من الرجال في جلسة حميمية عائلية، تودّع فيها العروس وتقدم لها فيها الهدايا.

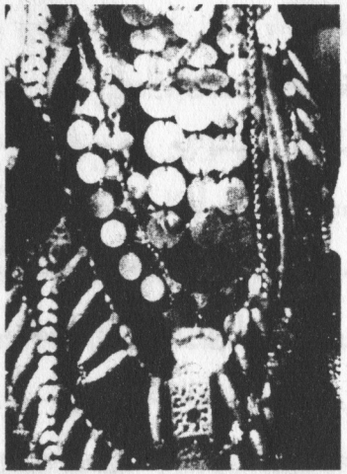

* صورة من حلي العَروس، والخاص بالعُرس، ويُعار في مناسبات العُرس والأعياد الأولى للزوجة في بيت زوجها، وترتديه عند عودته من أول سفر طويل بعد العُرس، ويقال له بالمزابية: "أَدْوَالْ" وتعني بالعربية "العودة"، كما قد تلبسه احتفاء بعُرس أحد أقرباء زوجها، أو بطلب منه، أو عند عودته من الحج..

* إن بعض الحُلي حقيقي وبعضه صناعي للزينة.



في يومي العُرس بتَجنينت (العطف) ومعظم قرى مزاب الأخرى، يُشارك الأطفال الصغار بهجة الفرح، خاصة أقارب العريس والعروس، حيث ترتدي البنات _ممن لم يصلن سن البلوغ بعد_ لباسًا تقليديًا يسمى "المَفْتُولْ" وهو أشبه بلباس العروس عندما تُزفُّ إلى زوجها، ويطُفن بيوت قريباتهن من النساء، فتقدم كل امرأة دنانير أو حلوى كهدية أو مكافأة لزيارتهن تلك ولأناقة مظهرهن، ومثلُ هذه المناسبات السعيدة تنتظرها الأمهات والبنات الصغيرات بشوق كبير، إذ في "ليلة الحنّاء" يوضع للبنات الحناء في أيديهن رفقة العروس، وقد يبيت بعضهن قربها أو في مترلها _لمن كُن من أقاربها طبعًا_، وذلك تيمنًّا بأن يصرن عرائس يومًا ما ويُحتفى بهن..

العشـــيرة

أو القبيلة أو الفِرقة، هي مجموعة عائلات تنحدر _في أغلب الأحيان_ من جد واحد وهي ما يسمى في الشريعة الإسلامية العاقلة، وقد عُرفت في تحمل الدِّيات في قتل الخطأ، لأن الشخص لا يستطيع بمفرده إذا ما قَتل خطأً أن يدفع الدِّية فأوجب الشَّرع أن تتضامن معه عشيرته، ومثل ذلك في الجراحات التي تجب فيها نصف الدية أو أقل أو أكثر.

وقد كان للعشيرة في وادي مزاب دور كبير في هيكل البنية الاجتماعية، ودور تنظيمي ساعد في جميع الأطوار التي مرت بها هذه الناحية على إحكام أي تنظيم سليم، إلا أن هناك ظاهرة موجودة في وادي ميزاب يجب أن ننتبه لها هي من أُلحق بأبناء العشيرة بالوَلاء كما هو الحال بالنسبة للمُلوَّنين المُنحدرين من العبيد، ومن كان نزيلاً بعد أن انضم إلى العشيرة من أجل أن يحتمي بها، واعتبر منذ ذلك الحين من أبناء العشيرة، وإن كان لا ينحدر من سلالتهم ولا ينتمي إلى جدهم، وهؤلاء موجودون بكثرة في كل العشائر ويعرفون أنفسهم ويعرفهم الناس، ولكن هذا لا يعفيهم من واجباتهم نحو العشيرة ولا يمنعهم من حقوقهم فيها ولا فرق بينهم وبين أبناء العشيرة في شيء.

وبناء على ذلك فنحن نرى فيها شيئا فوق العصبية العرقية، وذلك أنه وجد على مر التاريخ أناس قد يختلفون مع أبناء عشيرتهم في أي أمر من الأمور فيختار أن يهاجر من قرية إلى أخرى، وإذا استقر في القرية التي هاجر إليها وبقي مدة من الزمن وقد يتزوج من تلك القرية إذا كان قد هاجر عازبًا، وإذا نوى الاستقرار النهائي في قريته الجديدة و لم يجد ما يشجّعه على الرجوع إلى قريته التي خرج منها اختار عشيرة من العشائر فطلب الانتماء إليها وهم في الغالب لا يترددون في قبول طلبه لأن ذلك يزيد في عددهم وقوتهم وهذا كثير وواقع، ولذلك

نرى أن من يعتبر العشيرة قاعدة أو مدعاة إلى عصبية أو عنصرية ففهمه ضيق، ولو كان المجال مجال تطويل لسردت قائمة طويلة من أسماء العائلات التي انتمت إلى عشائر لا تجتمع معها في جد واحد، ولعلنا نعود إلى الموضوع بشيء من التفصيل.

وهناك نكتة أخرى جديرة بالتنبيه هي أن العشيرة لا تتدخل في مذهب الشخص الذي ينتمي إليها ولذلك نرى على مر التاريخ عشرات العائلات التي تنتمي إلى الأعراش العربية المجاورة لمزاب قد انتمت إلى العشائر واندمجت، ولعل الكثير من أبنائنا أو إخواننا الذين رأوا في التنظيم القبلي طابعا من البدائية، ونادوا بوجوب إلغائه لأنه لا يتلاءم وروح العصر، وهذه فيما أرى نظرة سطحية قد تبدو أول مرة مقبولة عقلاً، ولكن الذي درس المجتمع المزابي ورأى كيف استطاع هذا المجتمع المسلم أن يستفيد من هذا التنظيم بدون أن يحترق بما قد يكون فيه من خطر الفتن العمياء التي قد تثور بين أناس لا ينتمون إلى الإسلام إلا بألسنتهم، أما المجتمع الذي يؤمن بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلكم لآدم وآدم من تراب" فلا يجد في هذا النظام إلا الخير والسعادة.

ولكي أوضح نظرتي أذكر حقيقة تاريخية تدل على مدى تبصُّرِ أجدادنا وسلفنا والتزامهم بحرفية القرآن الكريم، إنهم قبلوا انضمام أي إنسان مسلم جاء يطلب الانتماء إلى عشائرهم، فهناك مثلا في غرداية قبيلة بْنِي مَرْزُوف كانت دائما وأبدًا ضمن عشيرة أولاد الحاج مسعود، وفي العطف نجد أولاد يعقوب الذين نزحوا إلى وادي مزاب من آفلو نزلوا في عشيرة أولاد الحجاج بالعطف، ونجد آل بوستَّه نزلوا في عشيرة أولاد بَاكَّه بالعطف، بل إن في هذه العائلة أخوان لأب وأم أحدهما يصلي مع الإباضية وهو من جماعة حُفاظ القرآن التي تقدم ذكرها بينما نجد أخاه الشقيق يصلي مع إخواننا المالكية في مسجد أبي بكر الصديق وهذا لم يؤثر

إطلاقا في علاقتهما العائلية، ولو ذهبت أسرد الأمثلة لطال بي المقام وذلك أني أريد أن أؤكد أن تخوف الكثير من العصريين من وجود هذا النظام تخوف لا أساس له.

وسنذكر قبل أن ننهي هذا الباب الحسنات التي لا نزال نجنيها من هذا النظام، وملاحظة أخرى أريد أن لا يفوتني ذكرها في هذه العجالة هي أن هناك عشائر متفرقة في كثير من القرى وتنتمي كلها لجد واحد، وعشائر أخرى انفصلت عن بعضها وعشائر انتقلت من قرية إلى قرية أخرى واتخذت اسما جديدا في مقرها الجديد، وعائلات كانت منتمية إلى عشيرة فانتقلت إلى عشيرة أخرى تحت تأثير ظروف عارضة، ولَهذه كلها أمثلة واقعية نتحاشى ذكر كل التفاصيل لما قد نثير من حساسيات قد يكون من المفيد أن لا نذكرها ولربما عدنا لها إذا ما أشير علينا بذلك بحول الله.

وقبل أن نتعرض للدَّور الذي لعبته العشيرة في وادي مزاب في عصرنا الحاضر يحسن بنا أن نعود قليلا إلى تاريخها ودورها الاجتماعي والسياسي، وذلك أن المجلس البلدي الذي كان يسوس بحق هذه القرى سياسة مستقلة تماما عن بقية القرى، كأن يتكون من رؤساء العشيرة أو من منتخبي العشائر، فلكل عشيرة صوت وإن اختلفت أعداد أفرادها، وهذا قد يبدوا فيه شيء من الإجحاف، وذلك بتسوية العشيرة التي يقل عددها بالتي يكثر أفرادها، نعم قد يبدوا في هذا بعض الإجحاف ولكن إذا نظرنا إلى أعظم منظمة في العالم وهي منظمة الأمم المتحدة وجدناها تطبق نفس القانون، وهذا باستثناء حق الرفض الذي تملكه الدول الكبرى الخمس في مجلس الأمن فتعطي للـــقابون صوتا مثل صوت الصين أو الهند، ولبنان مثل روسيا، لكل دولة صوت مهما قل عددها مثل الدول الكبرى مهما كثر عددها، ولعل هذه الطريقة أقرب للديمقراطية من طريقة اعتبار نِسَب السكان، فلو طبقنا هذه القاعدة لأعطينا تسع مئة وخمسين صوتا للصين وصوتا واحدًا للُبنان

وصوتين للبيا وفي هذا ما فيه من ظلم الضعفاء، وحتى ما نعتقده اليوم ديمقراطية في البلاد المتحضرة التي تبنى انتخاباتها على أساس الأحزاب ومذاهبها ومعتقداتها، تعترف أن حكم الأغلبية مطلقة كانت أو نسبية ليس هو الديمقراطية ولكنه أقرب الطرق إلى الديمقراطية، وذلك حين نرى أن واحدا وخمسين صوتا تتحكم في مصير تسعة وأربعين صوتا، فتكون هناك في الحقيقة صوتان مرجحان فقط هما اللذان قرَّرا هذا الوضع حتى الدورة الانتخابية المقبلة، لهذا نرى أنه ما دام هناك شعور عام يعتقد به كل الأفراد في أي عشيرة مهما صغرت أن له ممثلا في المجلس البلدي فلا ضير على هذا النظام، وإذا عدنا إلى موضوعنا وجدنا للعشيرة دورًا سياسيا في إدارة شؤون البلدة، وذلك بتقديم أحد أعيانها لينقطع لخدمة الصالح العام، وقد يُختار رئيسا للمجلس، إذا كان ذا كفاءة ودور اجتماعي في السهر على حفظ أبنائها وتربيتهم ومراقبتهم، وكانت بمثابة تأمين للفرد، ولذلك قَلَّ أن يترل ذو عائلة في البلدة ويبقى أكثر من عام لا ينتمي لأي عشيرة، لأن "العاقلة" تحميه ممن قد يعتدي عليه وتُعينه في الدِّية إذا ما قتل خطأ وتأخذ بحقه إذا قُتل، ولذلك لا يشعر المواطن بالأمن في البلدة إلا إذا انتمى إلى عشيرة، وهذا يشبه أخذ الجنسية من البلد الذي يستقر به الإنسان في أي بقعة من العالم، وكانت رعاية العشيرة لليتيم الذي توفي أبوه ولم يستخلف لأولاده تقوم بحق هذا اليتيم وتقدم عليه أمينا يقوم بشؤونه ويرعاه إلى أن يبلغ الرشد، كما تضرب على يد الشاب الذي يعبث بماله ويبذره فتضرب عليه تحجيرا وتوكل من يتصرف في شؤونه حتى يعود لجادة الصواب، أو يبرأ إذا كان قد سفهه من مرض في عقله، فالأسباب التي تدعوا إلى السفه متعددة، فكل هذه التصرفات التي قد تؤدي إلى الخروج عن دائرة "المعروف" الذي جعله الله سبحانه إطارا لتصرفاتنا المالية في كثير من الآيات تجعل العشيرة لها حدًّا، وهذا بطبيعة الحال قد تَلَقَّى في كثير من الأحيان سيما في وقت الحكم العسكري عراقيل

وعقبات بَنت له الدولة الفرنسية[1] قوانين تحد من سلطة العشيرة واعتبرت السفه من ناحية المرض فقط، وأخضعت قانون التحجير لشهادة الطبيب الشرعي على أن هذا الشخص الذي يراد تحجيره مصاب في قواه العقلية بمرض لا يسمح له بالقيام على شؤونه المالية قياما تاما، ولم يعترف هذا القانون بوجود السَّفه الذي هو خروج عن حدود الله، فالجانب الديني أو الأخلاقي لا يَهُمُّهم في قليل ولا كثير، هذا مثلٌ واقعي، ومثلٌ آخر هو تحديد سلطة الزَّجر التي كانت تقوم به العشيرة في حرب الآفات الخُلقية فقد كانت إلى عهد ليس بالبعيد تزجر أبناءها الذين تظهر منهم بعض الانحرافات ــوهو أمر طبيعي لم تسلم منه حتى مجتمعات المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلمــ فَتُعَزِّرُهُم بالضرب إمَّا أمام كافة العشيرة وإما بحضور الأعيان فقط، وذلك تبعا لحالة الشخص وسلوكه، ومن المعقول ولا حاجة لنا إلى الإشارة أن هذه العقوبة ليست هي الأولى إذا رأوا انحرافا ما في شخص، بل فيه درجات أقصاها هي الزَّجر، وقد اعتبرت الدولة الفرنسية ذلك تدخلا في سلطتها، ولكن المقاومة استمرت على أشد ما تكون، كما وقع ذلك بالنسبة للمسجد ورجاله كما مَرَّ.

ومن جملة ما تقوم به العشيرة النفقةُ على الفقراء العاجزين واليتامى والأرامل، وهذه النفقة تتراوح من الإعانة الجارية في كل شهر إذا كانت العائلة بدون سند، فتصرف لهم من الإعانة ما يكفيهم المواد الضرورية طيلة السنة، وتُزاد لهم بعض المصاريف غير الضرورية، ولكن ذلك يكون في الأعياد والمناسبات، فشاةُ الأضحية ليست من ضرورات النفقة ولكن حتى لا يشعر أبناء الفقراء أو اليتامى بالحرمان تُشترى لهم أضحية يضحون بها يوم العيد، وهذا كذلك قد يختلف باختلاف القرى من حيث تقديرهم لسُنَّة الأضحية، فهناك من يرى هذه واجبة على القادر كما في

[1] - إبان الاستعمار الفرنسي للجزائر، إذ فرضت فرنسا على كامل الصحراء الجزائرية حكمًا عسكريًا شديد الخناق.

صحيح السُّنة، وهناك من يرى أنه من الضروري أن يضحِّي ولو تحمل من أجل ذلك قرضًا من بعض أقاربه، وهذه الظاهرة ليست في كل القرى، وقُل ذلك في رمضان والأعياد.

قلنا إن إعانة العشيرة تبتدئ من النفقة اليومية للعائلة وقد تقتصر بالنسبة لبعض العائلات على نفقات المواسم وذلك حين يكون لها سند ولكنه غير قادر على القيام بالنفقات غير العادية كنفقة العُرس والأعياد والمُداواة ونفقات البِناء في بعض الأحيان، فقد تكون دار لليتامى أو الفقراء قد بدأت في الانصداع مثلا ورأى الساهرون على أمر العشيرة أو وكيل اليتامى أن هذه الدار إن لم تُجرَ فيها عملية إصلاح وترميم بهذا اليوم فقد تُلزم كيس العشيرة أضعاف المصاريف بعد سنوات، فحينئذ يقررون إصلاح هذه الدار ولو بتحمل دينٍ أو باكتتابٍ غير عادي حتى يسددوا تلك المصاريف، ولو ذهبنا نُعدد الميادين التي ساعدنا فيها هذا التنظيم على تنظيم البر والإحسان وإشاعة التعاون بين أفراد هذا المجتمع لطال بنا الكلام، ونريد أن نزيد بعض الملاحظات التي تؤكد لنا تأكيداً لا يحتمل الشك أن تقسيم البلدة إلى عشائر لم يزد على كونه تنظيما فقط ككل التنظيمات التي تنقسم إليها بعض القرى، لجان الأحياء أو الدوائر السكنية أو المجموعات الحرفية إلى غير ذلك مما يسهِّل تسيير بلدة ما ويكفل التوزيع المحكم للحقوق والواجبات.

أولا: لا تقتصر الإعانات التي تصرفها العشائر على أبنائها، فهي تبدأ بأولادها وهذا طبيعي ثم تزيد قائمة من فقراء البلدة وهذا موجود بكثرة سيما في رمضان.

ثانيا: لا تنتفع العشيرة وحدها بدارها بل هي تحت تصرف أي عشيرة أخرى لإيواء الضيوف وإقامة الولائم، كما أنها تحت تصرف مسؤولي البلدة أو العزَّابة أو مسؤولي الجمعيات الخيرية، فكثيرا ما جُعلت أقساما ملحقة بالمدارس الحرة أو الرسمية أو مجالس لخلايا الحزب أو للشبيبة أو لاستقبال أي ضيف من ضيوف

البلدة، أو ملاعب للمصارعة اليابانية[1] إلى غير ذلك من مختلف الحرف الاجتماعية إذا طلبت تلك الهيئة ذلك من مسؤول العشيرة.

كما أن هذا التنظيم قد سهل مهمة المزابيين يوم تعاقدوا مع فرنسا سنة 1853م على أن يدفعوا لها ما كانوا يدفعونه كل سنة للدولة التركية، التي كانوا يدفعون لها كل سنة 12 عبدًا و12 أمَة، أما فرنسا فيدفعون لها 45 ألف فرنك فرنسية سنويا، فقد قسموا العدد بالنسبة لعدد سكان كل قرية ثم اجتمع مجلس كل قرية وقسم هذا العدد لا على العشائر بالنسب العددية بل بعدد الأملاك الجماعية أو كل فرد عادي وما له من الأملاك، فقد تكون هناك عشيرة ذات عدد كبير من الأشخاص ولكن ليس لها من الدُّور العدد المساوي، ولذلك جعلوا هذه الضريبة على أملاك الناس لا على أشخاصهم مما جعل ذلك الحمل أخف على العمال الضعفاء، ولكن التنظيم العشائري ساعد في جمع هذا العدد بسهولة، فإذا قُررت الغرامة دفع كل "مُقَدَّم" ما عليه وشرع يقبض بعد ذلك على طول العام، وإذا كان "الَمْقَدَّم" غير قادر من ناحية المادة فإن كيس العشيرة يُقرضه هذا العدد، حتى يقبض من أصحاب الأملاك، وقد يؤدون من كيس العشيرة عن الفقراء الذين يملكون دار سكناهم ولا يقدرون على دفع غرامتها.

لقد تحدثنا كثيرا عن مصاريف العشيرة و لم نتحدث عن مواردها ولكن هذا أمر لا يخفى على لبيب يعرف مقدار تمسك الإباضية بالسُّنة النبوية وبأوامر الله سبحانه وتعالى من الصلاة والزكاة، ومن البديهي أن تكون الزكاة هي العُمدة في كيس الفقراء، وهذا المورد يصرف في إعانة المحتاجين واليتامى والأرامل، ولا

[1] - كان هذا قبل بناء "دار الجماعة" بالعطف في الثمانينيات من القرن الماضي، أما اليوم فإن دار الجماعة صارت تقام بها الأعراس الجماعية، وتضم أيضًا نشاطات النوادي الرياضية خاصة الجيدو والكاراتي، وهما مدرستان رياضيتان عتيدتان يترعرع فيهما أبناء البلدة محافظين على سلامة أجسادهم وعقولهم.

يصرف بحال من الأحوال في بناء الدُّور وتأثيثها وجميع نفقاتها، وهذا مورده الاشتراكات السنوية أو الاكتتابات التي تقع غالبا في أسبوع عيد الفطر قبله أو بعده[1]، وهذا عدا بعض التبرعات التي قد يبعث بها بعض الأشخاص في مناسبات الأعراس أو في ازدياد مولود أو النجاة من حادث سيارة، إلى غير ذلك من المناسبات التي يجد فيها المؤمن الحق يَدَ الله، فيعلم أنه من واجبه أن يشكر الله على تلك النعمة، فيعبر على ذلك عمليا بما يدفعه في الكيس، ولا تكتب وصية الآن لأي مؤمن مهما كانت مقدرته المادية إلا ونجد فيها أعدادًا لا بأس بها للمسجد وللمدرسة ولكيس الفقراء في العشيرة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وقد تملك بعض العشائر قطعا من الأراضي فتبيعها لأبنائها أو لغيرهم وتمول به كيسها.

وهناك سؤال قد يتبادر لذهن القارئ الذي لا يعرف مجتمعنا حق المعرفة، وهو هل يمكن أن يكون قد وقع العبث أو الاختلاس من كيس العشيرة على نحو ما؟!!، وهذا السؤال موضوعي والجواب أنه ممكن الوقوع ما دمنا بشرًا ولكن ليس الاختلاس من طبيعة البشر ولاسيما من الأموال العامة، ومن باب الثقة التي وضعت في الشخص فالمزابي ــ والحمد لله ــ بطبيعته أمين ولو كان فاجرًا، وقد يكون خائنًا بالنسبة لشخصٍ عمل عنده أو لشريك اشترك معه أما في الأموال العامة فلا، فالشخص الذي يُقدم ويُختار لمهمة كهذه لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون خائنا، وهنا أذكر حادثة وقعت لأمين مال لإحدى الجمعيات الخيرية وقد توفي ــ رحمه الله ــ ولا أذكر اسمه إلا لمن طلب مني ذلك، وهو أنه ذهب في عاصمة الجزائر إلى إحدى الحوانيت، وقد كان صاحب الحانوت قد وعد بدفع خمسين ألف فرنك قديمة أي خمسمائة دينار تقريبا لتلك الجمعية فأخذها من صاحب الحانوت

[1] - ما تزال بمزاب إلى اليوم هذه التنظيمات في دور العشائر، ويضرب لها مواعيد هامة في كل سنة، خاصة في العيدين.

في حسين داي وصعد في الحافلة راجعا إلى داره فلما وصل في بيته لم يجد تلك الدراهم فقد سرقت منه في الحافلة ولقيني من الغد واستفتاني في الأمر فقلت بداهة، إنك تعمل في هذه المؤسسة بدون أجر، فأنا أرى أنها سرقت منك ولم تشعر، ولو شعرت بصاحبك لدافعته أو ضاربته، فقال: بدون شك، فقلت: إن الشريعة لا تلزمك بضمان، ولكنه قال: إن نفسي لا تسمح لي إلا بردِّها من مالي الخاص، وأنا أعلم في تلك الحال أنه يجب عليه أن يعمل أسبوعا على الأقل ليربح ذلك العدد فقد كان أجيرا، ولكنه اختار أن يستبرأ لدينه وعرضه، رحمه الله رحمة واسعة وجازاه عن الإسلام خير الجزاء إنه سميع الدعاء.

وهذا هو السر في أن جميع المؤسسات العامة في هذا المجتمع تزداد وتتجدد وتتسع وتبتكر أنواعا جديدة من هذه البناءات العامة، مما لو ذهبنا نعددها لوجدناها مشاريع لا يمكن أن تحققها إلا مجتمعات أصبح البر والإحسان والبَذل فيها جزءا من طبيعتها الاقتصادية، وذلك هو الإسلام إذا ساد في مجتمع ما.

وكل هذه المؤسسات بما يدخل فيها من عمل يدوي تطوعي تتكلف أقل بكثير مما يعتقده الخبراء والفنيون، وإني لأذكر حادثة عابرة وقعت لي مع أحد إخواننا الجزائريين زار البلدة حين كُنَّا نبني "نادي النهضة" في العطف، وكنا على وشك الانتهاء من هذا البناء، وأظن أنه كان مهندسا للصوت في القاعات العامة، وفي أثناء المحادثة قال لي: "إنني أُكبر فيكم معشر المزابيين قدرتكم على الانجازات الضخمة"، فقلت: تلك ثمرة الإيمان بالله الذي لا تضيع عنده الودائع، فقال: ومن أين تأتون بالمال؟!، فقلت: بعملية حسابية بسيطة وهو الامتناع عن التدخين فقط، فسكت ثم قلت له: بكم تقدر نفقة هذه البناية؟! فقال: بكذا مليون، فقلت: وكم تقدر من الوقت لانجاز هذا العمل؟ فقال: بسنتين على الأقل، فقلت: صدقني إن العمل قد أنجز بثلث العدد الذي ذكرت وفي ثمانية أشهر لا في سنتين، فتعجب من

كلامي، ولكني قلت له: أتدري ما السِّر؟ فقال: لا أعلم، ولو كنت أطلت المقام هنا لأدركتُ، فقلت: طبعا ستدرك لأن السبب بسيط، هو أننا ننجز العمل بأيدينا ونُوكل على انجاز هذه الأعمال من يرجوا ما عند الله بعمله لا من يجعله وسيلة لكسبه..، فقال: صدقت.

وأخيرا بقي هناك موضوع يتعلق بالعشيرة لا بأس بزيادة كلمة فيه، وهو أن إبعاد النظام العشائري مِن جعله قاعدة للنظام البلدي قد كان في صالح هذه العشائر من الناحية الاجتماعية، وذلك لأن اعتبارها دائرة انتخابية كما وقع في انتخابات 1959 في عهد البلديات التامة، وقد خلق في كل عشيرة صراعا داخليا بين أبناء العشيرة فيمن يختارون، وكما رأينا ذلك في أشده في انتخابات الخمسينيات فقد أدى ذلك إلى افتراق العشيرة الواحدة على أساس عقائدي أو فكري وإن كان ليس سياسيا محضا، فقد كان الصراع بين المصلحين والمحافظين على أشده وكان من الطبيعي أن تتأثر الانتخابات بهذا اللون من الصراع وإن كان محليا، فلما ألغيت هذا القوانين رجعت للعشائر وحدتها وأصبحت منذ ذلك الحين متفرغة إلى الخدمات الاجتماعية وهذا أسلم لها وأرجى فائدة، ثم إن التحديات التي اصطدم بها هذا النظام قد زادته حيوية ونشاطًا وتنظيما، ورحم الله الشاعر العربي الذي قال:

عُداتي لهم فضل علي ومِنَّة فلا أبعد الرحمن عني الأعاديـــا

بَحثوا عن زلتي فاجتنبهـــا وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وهذه النكتة الأخيرة قد تؤيد ما كنا رأيناه في أول هذا الفصل من أن العنصرية القبلية ليست هي المهيمنة في العشائر، بل لا تعدو أن تكون إحدى وسائل التنظيم البلدي أو التوزيع السكاني.

وبقيت هناك كثير من المواضيع الجانبية تتصل بالعشائر وأصالتها في أي بلدة من بلدان مزاب، ثم انتماء مجموعة من العشائر إلى صف من الصفوف،

وملاحظات أخرى حول هذا الموضوع لعلنا سنعود إليه في فرصة أخرى بحول الله، فإن هذه المواضيع وإن كانت ذات حساسية إلا أن أمانة التاريخ والنقل تقتضي منا أن نقول في الموضوع كلمة والله الموفق.

الجمعيات الخيرية وأثرهـــا

بعد الحرب العالمية الأولى بدأت الحياة تدب في أوصال الشعب الجزائري في بعض النواحي التي كانت بواكير للنهضة المباركة التي عرفتها الجزائر على أيدي علمائها المصلحين العاملين المخلصين رحم الله منهم من مات وأطال عمر البقية من هؤلاء الأعلام.

وكانت قرى مزاب من الأماكن الأولى التي دبت فيها هذه الحياة، فقد رأى المفكرون بعد وفاة قطب الأئمة الشيخ الحاج أمحمد أطفيَّش ـرحمه اللهـ أن واجبهم يقضى عليهم أن يستفيدوا من علوم الحياة وأن لا يكتفوا بالتعليم الديني واللغة العربية في وادي ميزاب، كما رأوا أن يقتبسوا من التنظيمات الحديثة في التعليم، وكان الحكم العسكري الذي يتحكم في وادي ميزاب والصحراء منذ سنة 1853 في عنفوان ظلمه وتعسفه سيما بعد الانتصار الذي أحرزته فرنسا بفضل حلفائها سنة 1918، ورأوا أنه لا يمكنهم والحال هذه أن يستقدموا شيوخًا أو أساتذة من الخارج ليعلموا الأبناء اللغة العربية الفصحى وبأحدث الطرق والأساليب، فقرروا إرسال البعثات إلى تونس، فذهب بعض المشايخ لإكمال معلوماتهم في الزيتونة، علاوة على ما درسوه في ميزاب، وبعد أن قضوا هناك مدة قرروا إنشاء بعثة من الأبناء الصغار الذين لم يتعلموا في ميزاب إلا بعض سور من القرآن لصغر سنهم ويدخلوهم في المدارس الابتدائية يبدؤون تعليمهم من اليوم الأول أحدث الطرق والأساليب المدرسية التي عرفت آنئذ في تونس.

وكان الشيخ أبو اليقظان[1] ـرحمه اللهـ أول من نظَّم هذه البعثة وشرَّع لها منهجها في الدار وما يستتبع التعلم من التربية الدينية والخلقية، ثم كون الشيخ الحاج صالح بن باعلي دارًا أخرى للبعثات هي الثانية، ثم كوَّن الشيخ أبو إسحاق إبراهيم[2] ومعه الشيخ محمد الثميني[3] ـرحمهما اللهـ بعثة، ثم بعد أن انتقل الشيخ أبوا اليقظان إلى الجزائر ليبدأ عمله الصحفي خلفه الشيخ قاسم بن الحاج عيسى[4] ـرحمه اللهـ، ثم الشيخ مصباح نوح بن الحاج بكير، واستمرت هذه البعثات إلى ما بعد الاستقلال ـوالحمد للهـ، فقد يقل عدد التلاميذ وقد يكثر ولكن العمل لم ينقطع إلا في أوائل الحرب العالمية الثانية لفترة لم تتجاوز ثلاث سنوات على ما أظن.[5]

---

1 - هو: الشيخ إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان، رائد الصحافة العربية في الجزائر، وصاحب الجرائد الثماني الإصلاحية وهي: وادي ميزاب، ميزاب، المغرب، النور، البستان، الأمة، النبراس، الفرقان..
ينظر بتفصيل: معجم أعلام الإباضية، ط1، 1999، ج2، ص 52 وما بعدها.

2 - هو: شيخ المُحققين أبو إسحاق إبراهيم أطفيَّش، نزيل مصر، وصاحب مجلة المنهاج، عالم بارع وسياسي أرهق المستعمر الفرنسي في كل من تونس والجزائر..
ينظر: نفسه، ج1، ص 44 وما بعدها.

3 - هو: مثال الاستقامة والورع، محمد بن صالح بن يحي الثميني، ترك بصمات خالدة في تاريخ مزاب والجزائر وتونس، أنشأ مكتبة الاستقامة بتونس فكانت ملاذًا للوطنيين الأحرار في تونس..
ينظر: نفسه، ج4، ص 802 وما بعدها.

4 - قاسم بن الحاج عيسى تعموت، قام هذا الرجل الفاضل هو ومحمد بن صالح بن يحي الثمني بمتابعة طبع جريدة "وادي ميزاب" بتونس طيلة عامين كاملين لم تتخلف فيهما الجريدة مرة عن الصدور في موعدها المحدد، فمادتها تجمع في الجزائر وترسل إلى تونس لتصفف وتطبع ثم ترسل عبر القطار كل 15 يوما.

5 - يمكن لمن شاء الاستزادة في هذا الموضوع أن يطالع فصل "الجمعيات الخيرية بمزاب وأثرها في النهضة"، في كتاب: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، للشيخ محمد علي دبوز، ط1، المطبعة العربية بالجزائر، 1971، 229 وما بعدها.



صورة للبعثة المزابية الأولى سنة 1914 في تونس الخضراء، وفيها يظهر أعلام الإصلاح بالجنوب الكبير ومزاب، ومنهم: الشيخ أبو اليقظان، البِكري، محمد الثميني..

ولنا عودة إلى موضوع البعثات فلم أرد بذكره إلا أن ألفت نظر القارئ إلى أن هذه الناحية التي قد يعتبرها المفكر السطحي الذي لا يكلف نفسه عناء البحث منطقة راكدة ومنعزلة ومنغلقة وغير متفتحة، وكل هذا سمعناه وقرأناه، بالرغم من أنها كانت من أول المناطق نهوضا باللغة العربية وتدريسها بأحدث الطرق التي عرفت في ذلك قبل أي منطقة أخرى من أرض الجزائر، إن لم نقل أنها أول المناطق، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أريد أن أجعل هذه النهضة العلمية التي أشرف عليها شيوخنا الأجلاء _رحمهم الله_ مبدأً لقيام هذه الجمعيات الخيرية التي أصبحت لها مواقف يذكرها التاريخ فيشكر في مختلف الميادين.

ولا أقول إن الجمعيات الخيرية لم تبدأ عملها يوم أنشئت ولكن نشؤها القانوني لم يكن إلا كبطاقات التعريف التي كانت توزعها الحكومة حينئذ لتركيز النظام السكاني، ولذلك يجب على الباحث أن يعرف أن هذه الجمعيات كانت شكلا قانونيا فرضته الظروف السياسية القاسية التي كنا نعيشها، من مضايقات الحكم العسكري الخانق الذي كان مسيطرًا على جميع مناطق الجنوب، وإلا فإن

الخيرية بمعناها الإسلامي الواسع كان سائدا في مزاب منذ أقدم العصور، ولقد تطورت الحركة العلمية منذ الشيخ الحاج يحي بن صالح الأفضلي[1] ثم في عهد الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني[2] ثم الشيخ الحاج محمد أطفيَّش قطب الأئمة والشيخ الحاج عمر بن يحي[3] في القرارة، ثم الشيخ حمو بن باحمد في غرداية، وهذا كله قبل نشوء هذه البعثات وقبل ترسيم الجمعيات الخيرية بالقانون الفرنسي، ولقد أسس الشيخ بيُّوض _حفظه الله_ "معهد الحياة" في أوائل سنة 1924، وأسست "جمعية الحياة" الخيرية في سنة 1937، وهذا أكبر دليل على أن هذه الجمعيات على اختلاف أوقات نشؤها لم تكن إلا إعطاء شكل قانون لعمل كان قبل ذلك بقرن أو أكثر، وكان من الغايات الأولى لإنشاء هذه الجمعيات تكوين مدارس ونوادي للشباب، وقد حققت أكثر الجمعيات معظم أغراضها سيما فيما يتعلق بالمدارس، ولو ذهبنا نستعرض ما قامت به هذه المدارس وما أسهمت به في حركة التعريب في الجزائر لوجدنا ما قد لا يصدقه العقل، إن الأمية لا وجود لها بين الرجال، وهي اليوم أقل من ثلاثين في المائة بين البنات والنساء، هذا إلى مئات الأساتذة وآلاف المتعلمين، ولا تزال هذه المدارس تُساهم في بث الخُلق الفاضل والروح القرآنية وترسي جذور اللغة العربية لغة القرآن والحديث الصحيح، نسأل الله أن يحفظها ويحفظهم، وكل من أسهم بمجهود لتتم رسالتها الثقافية في الجزائر.

ولا يفوتنا أن نذكر ما قامت به الجماعات الموجودة في مختلف أنحاء القطر الجزائري من إنشاء لهذه المدارس ومساهمة في المدارس التي كانت موجودة في وسط المدن، ولعل أول مدرسة عربية منظمة هي التي أنشئت في مدينة تبسة تحت رئاسة

---

[1] - باعث النهضة الإصلاحية الأولى في مزاب في العصر الحديث (1712- 1778)، أنظر: السابق، ج4، ص965.

[2] - صاحب التأليف العديدة، وأبرزها "كتاب النيل" في أصول الفقه (1718- 1808) نفسه: ج3، 532 وما بعدها.

[3] - وهو المكنى "بنور القلب" باعث الإصلاح بالقرارة، وأستاذ الشيخ بيوض وأبي اليقظان، نفسه: ج3، 654..

الشيخ عباس بن حَمَّانة[1] ومعه جماعة من المزابيين الذين كانوا تجارًا في تبسة، نذكر منهم المرحوم السيد الحاج بكير العُنْـــف[2]، ولا تزال هذه المدارس القرآنية موجودة إلى اليوم في مختلف أنحاء القطر وإن كانت برامجها قد اختُصرت نظرا لتعريب التعليم في الجزائر.

ونعود إلى ميزاب لنرى كيف قوبلت هذه المدارس في أول الأمر وكيف استطاعت أن تنمو وتزدهر، لقد تنبه الفرنسيون لخطر التعليم العربي المنظم فقابلوا هذه الحركة بالعداء السافر، ولم يدَّخروا أي وُسع في عرقلة السير ومضايقة المعلمين والمسؤولين، واعتقلوا كثيرا من الناس بدعوى أنه تعلَّم في تونس أو أنه مِن المشاغبين، وكان القُيَّاد الذين يمثلون السلطة العسكرية في كل قرية مأمورين أن يتتبعوا كل من يسند هذا التعليم، وإن لم يكونوا كلهم يأتمرون، وقد عزل بعضهم لأنهم رأوا أن واجبهم الذي أُنيط بهم في أول الأمر غير هذا، ومع كل ما بذله الحكام العسكريون وبعض أذنابهم من العراقيل، وبالرغم من أن القوانين العامة التي كانت تحكم الجزائر كانت حينئذ ظالمة جائرة ولم تكن تطبق في وادي ميزاب إزاء الحكام العسكريين، فقد يأخذون من قوانين الأندنجينا[3] ما قد يعنيهم في هذا التعسف، مما يطبق في المناطق المدنية ولو ذهبنا نستعرض المآسي التي كانت تُفرض على هذا الشعب لملأنا الصفحات.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كانت مواقف المحافظين الذين يرون في إنشاء هذه المدارس خروجا عن طريق السلف وتقليلا من شأن القرآن، فلم يكونوا يعارضون هذه المدارس تواطئا مع الحكام العسكريين وبعض القياد، ولكن عرقلتهم

[1] - أنظر ترجمته وكفاحه عند: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ص261 وما بعدها.

[2] - من المصلحين والمخلصين الأفذاذ، من بلدة القرارة، كان تاجرًا في مدينة تبسة، ينظر: نفسه، ص 208 وما بعدها.

[3] - هو قانون الأهالي الذي اعتَبرت فرنسا بموجبه الجزائريين رُعاعًا غير مسؤولين ولابد أن تسير هي شؤونهم.

كانت أشد أثرًا لا في إغلاق هذه المدارس أو استعمال أي قوة ضدها، ولكن بتخويف الناس من مغبة تعليم أولادهم على هذه الطريقة مما قد يخرج بهم عن جادة الصواب، نقول إن هذه الحركة قد عرقلت السير كثيرا لأنها معارضة داخلية وصادرة عن كثير من رجال الدين، فلذلك خذلت كثيرا من الناس وصرفت أجيالا من الأبناء الذين حُرموا من هذه المناهل، وطبيعي أن يدرك الشعب خطأ نظريتهم بعد أن يرى النتائج ملموسة ماثلة للعيان في سلوك معلمي المدارس والشباب الذين تخرجوا من هذه المدارس.

وقد اختلفت القرى يوم بدأ طلبة البعثة التونسية يعودون ويستقرون في ميزاب وبدأت فكرة إنشاء المدارس المنظمة تراود المصلحين، وذلك لأن بعض القرى تمكنت من إدخال النظم الجديدة على المحاضر الموجودة منذ أقدم العصور بجانب المساجد، وذلك إذا وجدت التجاوب مع العزَّابة، وفي بعض القرى أنشئت مدارس مستقلة مما استلزم بعض الوقت إلى شرائها وإعداد المَحال وإعطاء شكل قانوني لهذه المؤسسات، أما التي أدخلت تحسينا على التعليم القديم فقد كان أخف وأسهل من الناحية المادية، ولم تتعرض للضغط الكثير من السلطة العسكرية لأنها كانت تحت المسجد، وكذلك العرقلة التي كانت تصدر من الهيئات المحافظة كانت أقل تأثيرا لأن الناس يرون المساجد بعين الكمال والاحترام.

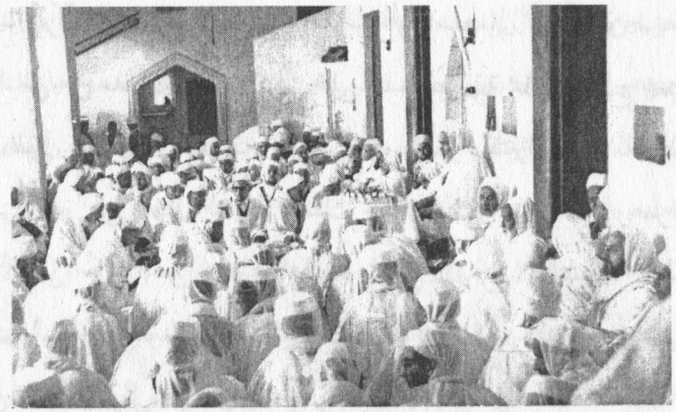

الشيخ إبراهيم بن عمر بَيُّوض رائد الحركة الإصلاحية بالجنوب الجزائري
يُرى هنا في بهو جامع القرارة وحوله عدد كبير من طلبته يحدثهم ويدرسهم.

ومع كل ما كُوِّن من المدارس فإن أغلب القرى حافظت على التعليم القرآني الذي كان متصلا بالمساجد، ثم أدخلت عليه التحسينات على مر السنيين، حتى أصبح اليوم يسير على أحدث النماذج والطرق والأساليب، ولا يفوتنا أن نذكر أعمال هذه الجمعيات الخيرية في إنشاء دُور للبعثات في تونس، وإرسال مجموعات من الطلبة الذين أوصدت أبواب الثانويات في وجوههم[1]، وكذلك نشرها للوعي بين الشباب على مختلف اتجاهاته في الحياة بواسطة النوادي التي كونت وحاربت بذلك كثيرا من الآفات الاجتماعية التي تسربت إلى الشباب بعد استقرار الاستعمار في الجزائر، كما أنشأت بجانب المدارس للأبناء مدارس أخرى للبنات مما أسهم مساهمة فعالة في تركيز الدين واللغة العربية في أوساط البنات، وذلك ما عجزت عنه المدارس الرسمية منذ وجدت، و لم يبدأ الناس تعليم بناتهم في المدارس الرسمية إلا

[1] - من هؤلاء الطلبة النجباء سليمان بن يحي بوجناح الشهير بـ"الفرقد" (1905- 1988)، كان من الذين اختاروا تونس قسرًا لما منعتهم فرنسا من اجتياز امتحان البكالوريا بسبب قلمه الناري، فقد كتب مقالات ضد حركات التبشير النصراني بالجزائر، وعمره 16 سنة فقط، وهو تِرب مفدي زكرياء ورمضان حمود في الدراسة بتونس.

بعد أن أصبح جيل من الأمهات التي تخرجن من المدارس ربات عائلات، ولا تزال هذه المدارس تؤدي رسالتها على أحسن وجه _والحمد لله_ سيما بعد إدخال الأقسام الصناعية[1] في أغلب مدارس الوادي.

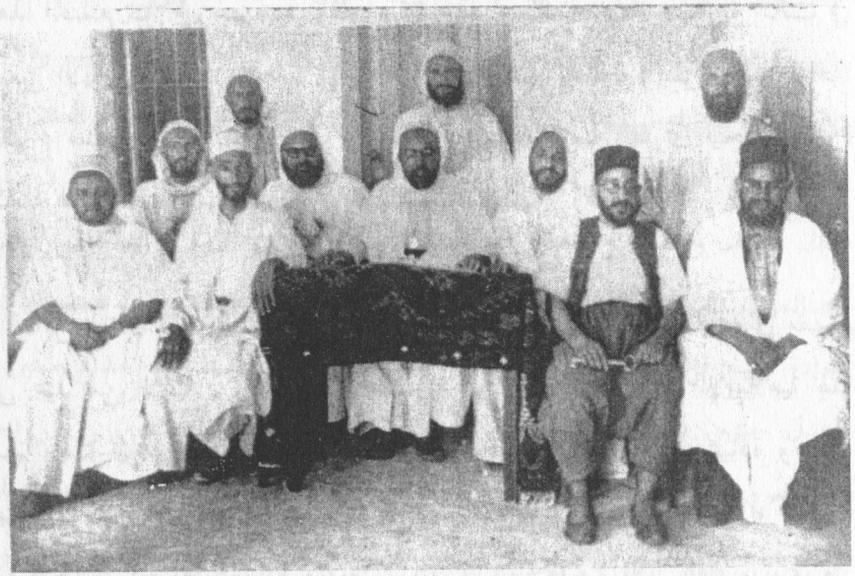

* "جمعية النهضة" بالعطف، تأسست في 1932م، ورُسِّمت في 1945م، وقد شرف الشيخ إبراهيم بَيُّوض القائمين عليها بزيارة أعضائها (يُرى الشيخ بيّوض جالسًا يتوسط الطاولة).
* الواقفون من اليمين إلى اليسار: حاج عيسى حاج إبراهيم بن حاج محمد، الشيخ حاج أحمد بن حاج موسى باباعمي، بكلي حاجو بن سليمان.
الجالسون من اليمين إلى اليسار: سماوي باحمد بن بكير، بن لولو صالح، الشيخ سليمان بن داود ابن يوسف، الشيخ إبراهيم بيُّوض، الشيخ بكلي عبد الرحمن بن عمر، سماوي حمو بن صالح، الشيخ محمد بن بهون حاج إبراهيم، الشيخ باحمد بن حاج يحي بكلي.

[1] - يقصد بالأقسام الصناعية، الأقسام الخاصة بتعليم البنات الصناعات التقليدية والعصرية كخياطة الملابس التقليدية خاصة، وسرد الصوف، والنسيج التقليدي.. وغيرها، ويشرف عليهن معلمات لا غير.

الأعيـــاد والمراسيـــم

إن الحديث عن الأعياد والمواسم حديث طَلِيٌّ شهي، ولو سمح لي الوقت لكتبت فيه عشرات الصفحات، وذلك لما نجد فيه من الدقائق التي نستدل بها على أن هذا المجتمع يمثل ــرغم ضيق رقعته وقلة عدد سكانهــ عيّنة حضارية كانت في يوم من الأيام سائدة في العالم الإسلامي في مختلف أنحائه، ونظرًا لاتساع هذا الموضوع سنحاول أن نذكر أهم ما يمكن أن يستفيد منه القارئ ليجد الصورة المتكاملة لهذا المجتمع المسلم الراسخ، ولنبدأ بسيد الشهور رمضان.

شهر رمضـــان

ورمضان ليس عيدًا من الأعياد في مفهوم الناس البسطاء، ولكنه في مفهوم الناس عيد من الأعياد، وذلك طبقا للمنزلة التي أعطتها الشريعة الإسلامية لهذا الموسم ولهذا الركن الرابع من أركان الإسلام الخمس، فهو عيد عبادة وميدان تسابق للمؤمنين الصادقين، وهو بالنسبة للعائلات ذات الدخل المحدود أو الفقيرة فرصة لتحسين أحوالها الغذائية وتزيين موائدها، إنطلاقا من الأثر الذي يروى من أن النفقة في رمضان لا يُحاسب المرء عليها، وما ورد من الأحاديث عن سيد الأنبياء والمرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه من الحث على التوسيع في النفقة على العيال وتخفيف العمل على المملوك أو الأجير إذا كان من الصائمين، فرمضان أمنية الفقراء عندنا قبل أن يكون خير غائب ينتظره كل الناس، حتى أن الأولاد يعدون له الليالي والأيام، سواء ذلك أولاد الفقراء وأولاد الأغنياء، وسنتتبع العادات التي تسبق رمضان ابتداء من ليلة منتصف شعبان التي تُحيى في جميع المساجد بصلاة "مئة ركعة" تطوعا ونافلة في المسجد بالجماعة، وليس ذلك بواجب على كل الناس ولكن تَهيأً للنفوس لاستقبال رمضان، بجعل الناس راغبين في حضورها وإتمامها ومجاهدة النفس في عدم الانقطاع في منتصفها أو أثنائها، وإن الكثيرين ليدخلون في

أول الأمر ليصلوا ما تيسر كما هو المشروع في النوافل، ولكنهم يستمرون حتى النهاية بشيء من الرياضة والمُصابرة، وفي هذا ما فيه من التدريب على مجاهدة النفس ومحاولة إخضاعها لإرادة العقل، وبهذا يتوصل الإنسان إلى الكمال النفسي المطلق، وغالبا ما يلقي شيخ المسجد درسًا حول مجاهدة النفس يحض فيه المصلين على مجاهدة النفس لأدائها، وهي فرصة لا تتكرر كل مرة في المواسم والأعياد، وهذه الصلاة تصلى بنفس الحماس وأكثر من ليلة عاشوراء، وبعد العشرين من شعبان تبدأ العائلات في إعداد " تِكْضُورِينْ" للأولاد الذين سيبدءون الصيام في تلك السنة، وهذه من جُملة العادات التي تُحبِّب إلى الأولاد الدخول إلى حقل الصائمين، مع جملة من العادات التي سيأتي الكلام عليها فيما بعد، وتدعو الأم لهذه العادة جميع قريباتها وقريبات زوجها فيجتمعن فيصنعن للصائم الجديد ستين حبة بمعدل حبتين لكل يوم من أيام الصوم، وتتكون هذه "التِّكْضُورِينْ" وواحدتها "تَاكْضُورْتْ" من اللُّقط والسمن والتمر الجيد والسَّميد بعد أن يُقلى في مِقلاَ يابس، وبعد أن تخلط هذه المواد مثلما يخلط السُّويق بالسمن، تُكوَّر منه حبات بقدر مئة ڤرام تقريبا، فتجعل منها ستون على حدى للصائم، ثم تقسَّمُ البقية للنساء الحاضرات، بعد أن يأكلن نصيبا هناك في الدار ويشربن الشاي، وتأخذ كل واحدة منهن حبة أو حبتين تقسمها على أولادها وتخبرهم أنها تَيَمُّنًا لهم حتى يبلغوا ويصوموا، وفي هذا ما فيه من التشويق للأولاد، أما من اجتمعت العائلات من أجله فهو يشعر بالقيمة والاعتزاز، مما يزيده اكتشافا لقيمته في هذا المحيط العائلي الضيّق، وفي هذه الأيام العشر تتوالى أمثال هذه المناسبات وتتكرر، والذكور والإناث بالنسبة لهذه العادة على حد سواء، أما إذا دخل شهر رمضان فإن الهدايا تتبادل بين الأقارب في حق الأولاد الذين بدءوا الصيام، فيبعثون له فطوره وقت كل يوم من عند أحد أقاربه على الترتيب، ويخبرون الوالدين عادة بيومين لئلا تتكرر عليهم

الأواني في يوم واحد، فتمر العشر الأيام الأولى أو أكثر من ذلك في بعض الأحيان كلها فطورات تتوالى وتتبادل بين العائلات التي عندها صُوَّامٌ جُدد، ومن العائلات من يكتفي بإرسال هدية من الحلوى أو الزلابية أو نصيب من الكَاوْكَاوْ[1]، وتستمر هذه الهدايا إلى آخر رمضان وهي على العموم هدايا متبادلة تُرد ولو بعد سنوات، والمهم فيها هي هذه الروح التي تسود بين العائلات وشعور الأولاد نحوها وما يشعرون به في عمرهم الباكر من القيمة التي يتمتعون بها لدى أقاربهم ومجتمعهم، والتعرف على أقاربهم وأرحامهم، وهناك شيء آخر يتصل بهذا أود أن لا يفوتني وهو ما يعطى لكل عروس في أول صيام لها بعد الزواج من طرف عائلة زوجها، وهي مواد مقررة في المسجد يعني ضمن قوانين وعادات الأعراس، وهي طَابَــق لحم[2] وصينية بُرّ وكيلو سمن ولتر زيت، وهذه المِنحة تعطى لعائلة الزوجة إذا كان زوجها حاضرًا في البلد أو كان غائبا وكانت بدار والديها، كما هو العرف المتبع[3]، وبهذه المناسبة أريد أن أنبِّه إلى أن هناك عادة كانت متبعة قبل اليوم وهي أن الزوج بعد الزواج يقضي مدة شهرين أو ثلاث مع عروسه ثم يضطر للسفر وللعمل خارج ميزاب فتعود زوجته إلى دار والديها بعد سفره مباشرة، وإذا عاد عادت إلى داره، وتتكرر هذه العملية مرارًا إذا كان زواجهما باكرا وكان ممن يعمل في الخارج، أما اليوم فإن ارتفاع سن الزواج ووجود أعداد كبيرة من الشباب الذين يعملون في ميزاب قد قصر مدة إقامة الزوجة بدار والديها إلى المرة أو المرتين فقط، هذا إذا كان يعمل خارج الوطن، أما إذا كان مستقرا فلا تغادر داره إلا إن

[1] - هو: الفول السوداني.

[2] - الطَّابَــق: يقصد به عادة كتف الشاة وما تحته، وهو في الأصل ما يعادل (1/4) رُبع الشاة تقريبًا.

[3] - هذا سابقًا أما اليوم فقد قدرتها التنظيمات العُرفية بـــ: 1000دج.

ذهب في عطلة، وتعليل هذه الظاهرة سهل ميسور فأكثر الناس يكون يزوج بنته في سن مبكرة، يعني عند البلوغ وحتى قبله في بعض الأحيان.

ولذلك فإن البنت في تلك الفترة لا تزال محتاجة للتربية المترلية وإلى تعلّم الصناعات التقليدية من والدتها وجدتها، ولذلك فهي دوما تعود إلى مترل الوالدين لتستكمل تكوينها بعد أن تكون قد تعرفت إلى الحياة الزوجية وما تتبعه من واجبات، وتكون في هذا الطور أكثر استعدادا للتلقي من والدتها في كل ما من شأنه أن يكمّل نقصها في بيتها الجديد، تلك حالة كانت و لم تعد اليوم وذلك لأن الشبان اليوم يختارون الزواج بعد أن يستكملوا مراحلهم الدراسية أو على الأقل معظمها، وهناك من يفضل تأجيل الزواج إلى ما بعد إنهاء واجب الخدمة الوطنية ليستقر في حياته العائلية نهائيا، ومنهم من يتزوج حوالي سن العشرين ثم يستمر بعد الزواج في إكمال الدراسة أو أداء واجب الخدمة الوطنية، فالزوجة تعود دومًا إلى دار والديها، بالنسبة لهؤلاء فلا تَثقل عليهم التكاليف من ناحية، ولغيابهم بعد الزواج آثار حسنة كالشوق والحنين الذي يجده الزوجان نحو بعضهما عند الفراق، سيما لمن يغيب كامل السنة الدراسية، هذا ما يلاحظه بعضهم ولكلٍّ تجربته ولكن الوالدين عندنا حريصين ـعلى العمومـ في تزويج أولادهم في السن القانونية أو فوقها قليلا ولو كلفهم ذلك مصاريف إضافية، خاصة المادية لا تعدُّ شيئا بالنسبة لحصانة أولادهم وهذا هو روح الإسلام، فالعبرة بالنيات والغايات لا بالطرق والأساليب، وإن الظاهرة التي أصبحنا نجدها اليوم تدلنا دلالة صادقة على سداد هذه النظرية، والظاهرة هي تناقص نسبة الطلاق على العموم وهذا إن لم يكن هو السبب الرئيسي المباشر لهذه الظاهرة فهو على الأقل أحد أسبابها، ولنعد إلى موضوع رمضان واحتفاء الناس باستقباله في وادي ميزاب.

الصدقات التي تنظمها أغلب العشائر وحتى التي ليست لها تنظيما مستمرا طوال السنة، فإنها لا تقتصر نحو فقرائها في موسم سيد الشهور رمضان، ولا تقتصر صدقات العشائر على فقرائها في الغالب، بل تتعداهم إلى فقراء البلدة كلهم، وإن كانت تبدأ دائما بمن تعُول كما يوصي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويأتي بعد ذلك دور بعض الأغنياء الذين ينظمون مقادير يومية من اللحم عند القصَّابين فيخبر هذا أي شخص فقير ذا عيال أن يأخذ كل يوم رطلاً من لحم من عنده وقد يخبره باسم هذا المحسن وقد لا يخبره، وتلك هي صدقة السِّر التي حث الرسول عليها وذلك مصداقا لقوله تبارك وتعالى "ولن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"[1]، وصدقة اللحم ليست موجودة بهذه الكيفية في كل القرى ولا لكل الفقراء فهناك من يعطي لهم الدراهم ويعطيهم الحرية في اختيار ما يريدون، وهناك من يرى أن اللحم أمر كمالي، فهو يتصدق بالمواد التي يعتقد أنها ضرورية لمعيشة العائلة الفقيرة[2]، ومجمل القول بعد كل هذا أن موسم رمضان موسم يتمناه الفقراء وذوي العيال بفارغ صبر، لما يشيع فيه من الإحسان والمواساة من جانب الأغنياء وما يتسم فيه مستوى المعيشة حتى عند ذوي الدخل المحدود، وهذا هو السر في انعدام الحقد بين الفقير والغني في هذا المجتمع المسلم، "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون"[3]، ولعلنا سنشرح هذه النظرية في فصل مستقل حتى نعطي الأمثلة الواضحة لمن يبحث معنا القضايا الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع المسلم بكل موضوعية وبدون تحيز وبدون رأي مسبق مستورد دخيل، فلنا إلى هذا الموضوع عودة ستكون شافية بحول الله.

---

[1] - آل عمران، 92، ولعله أوضح من هذه الآية قوله تعالى: "إن تُبدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتوتوها الفقراء فهو خير لكم، ونكفّر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير"، البقرة، 271.

[2] - يتحدث الشيخ هنا عن بلدته العطف، لأن أهلها مشهورين منذ القديم بمهنة الجزارة -دون غيرهم- بين أهل مزاب.

[3] - البقرة، 138.

الختمـــات في المساجد[1]

جرت السُّنة الحسنة أن يُفتتح القرآن في أول ليلة من رمضان في كل مسجد من مساجد ميزاب التي تقام فيها الجماعة خمس مرات في اليوم، وذلك اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد كان كما صح في كتب الحديث يُدارس جبريل القرآن طيلة شهر رمضان، ولا تتوقف التلاوة في ليل ولا في نهار حتى صبيحة عيد الفطر المبارك، ومن الطبيعي أن لا تكون المجالس عامرة في كل وقت بهذه التلاوة ولكنها لا تنقطع إلا نادرا، وفي أوقات الصلاة أو الدرس أو التراويح، وأغلب ما تزدهر هذه المجالس قبل صلاة الفجر وبين الظهر والعصر وحيث أن المعدل هو "سَلْكَةٌ" من القرآن كل ليلة، فقد قرر أن يكون في كل عشية "خَتْمَة" يحضرها جميع من يشارك في التلاوة في مختلف الأوقات، ويُباح لكل الصائمين ولو من غير القراء أن يحضروا، وكذلك تحضر كل النِّساء اللائي أردن ولو من غير المواظبات على حضور الصلوات في كامل السُّنة، وتوزع بعد ختمة القرآن كثير من الصدقات منها ما هو وقفٌ مُعلَّق ببعض الأملاك، ومنها ما يتبرع به المحسنون بدافع من إيمانهم وأريحيتهم، وكل من حضر هذه الختمة في آخر عَشايا رمضان لا يحتاج إلى شراء الخبز لأولاده بل يكتفي بما يأخذه هناك[2]، ولا فرق في المقدار بين الكبير والصغير ولا بين الرجل والمرأة ولا بين العزَّابة وسائر الناس فالكل في الحصة سواء، ولا يعطى للأولاد الذين دون سن البلوغ إلا إن كانوا صائمين: فإن هذه الصدقات جُعلت أساسا لفطور الصائمين لما ورد في ذلك من الأجر، وهذا بالطبع عند التوزيع في المسجد، أما الناس الذين يأخذون هذه الصدقات طبعا يُأكّلون بها

---

[1] - تجدر الإشارة إلى أن الحديث هنا يقتصر عن "ختمات" رمضان اليومية، وأن من العادات الحسنة أن هذه "الختمات" لا تقتصر على شهر رمضان فقط، بل هي في كامل المناسبات والأيام والجُمع، وكذا الأعياد وفي المآتم وفي التلاوة اليومية في المساجد، وإمامة الصلوات المكتوبة، وتلاوة المقابر أيضا.

[2] - هذه إشارة ضمنية إلى كثرة الصدقات التي يجلبها الناس إلى المساجد، خاصة الخبز لأنه الغذاء الضروري اليومي.

أولادهم في منازلهم، هذا في العَشِيَّة أما في الليل فإن الساهرين لتلاوة القرآن طوال الليل في المساجد فهناك أوقاف من طعام محلى بالسكر أو العسل وهو ما نسميه باللغة الدارجة "السْفُوفْ" أو "الْمَسْفُوفْ" توزع كل ليلة في حوالي منتصف الليل، وهو بكفي للسَّحر عادة، وفي أول الليل يبعث الناس لعُمَّار المسجد الشاي والزلابية والنُّقَل سيما في الليالي المعظمة أثناء الشهر وهي ليال عشرة وخمسة عشر وسبعة عشر وعشرين وسبعة وعشرين منه ففي هذه الليالي يكثر العُمَّار والسُّمَّار وتتوالى صينيات الشاي والحلوى.

وقبل أن نختم الفصل الذي نتحدث فيه عن رمضان نريد أن ننبه إلى ظاهرة موجودة في الختمات وهي اشتراك الناس في تجميع هذه الصدقات، وقبل البدء بتوزيع الصدقات يطوف الشُّبان المكلفون بالتوزيع على جميع الحاضرين في المسجد فيجمعون ما لديهم من الصدقات، وتجمع مع ما هو موجود من الأوقاف ويُردُّ لكل من أتى بصدقةٍ جزءٌ من إثني عشر جزءا من صدقته، فإذا بعث بإثني عشرة خبزة مثلا رُدت له واحدة، وإذا بعث بستٍّ خبزات رد له نصف واحدة، ثم يأخذ بعد ذلك مَنَابَهُ كسائر الناس عند التوزيع، ولهذا نرى كثيرا من الفقراء يأتي معه بخبزةٍ واحدة يتصدق بها وله بعد ذلك مثلا أربع خبزات في التوزيع، وبهذا يشعر هذا الفقير أنه شارك بمجهوده في تجميع الصدقة، وحَسبُه أن يكون قد شارك ولا عليه بعد ذلك أن يكون قد أخذ أكثر مما أعطى، وتلك هي الصور التي شرعها الإسلام حتى يمحو عقدة الشعور بالنقص في نفوس الفقراء والمساكين من أبناء الإنسان، وقد "سبق درهم مئة ألف درهم"، كما يقول رسولنا الأعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه، ولا أريد أن أختم هذا الفصل عن سيد الشهور قبل أن أُنبه إلى أن ما يقع بالمسجد من توزيع للصدقات في آخر كل عشية من رمضان،

يقع مثله كل يوم في "دار الغاسلات"[1] حيث تجتمع النساء في صبيحة كل يوم من رمضان، وبعد تلاوة بعض سور من القرآن يُلقي عليهن أحد الوُعَّاظ درسًا في الحث على اغتنام أيام رمضان، ويتطرق إلى محاربة الآفات الاجتماعية والتقاليد البالية التي قد تتمسك بها النساء عادة، وبعد الدرس تقع الختمة وتوزع الصدقات على جميع من حضر، وتختلف هذه الصدقات في النوعية ففيها التمر والبُرُّ، وفيها الخُبز وفيها الدراهم أحيانًا، وغالبا ما تضيق هذه الدُّور عن إيواء النساء الراغبات في حضور الدرس، وتمتد هذه التجمعات إلى آذان الظهر عند منتصف النهار حيث يفترقن على نية الرجوع في صباح الغد بعد طلوع الشمس.

وقبل الفطر أي بعد منتصف رمضان تبدأ ليالي السَّمر بالنسبة للنساء في سهرات عائلية في الليالي الممتازة، فتتجمع نساءُ كل شارعٍ عند إحداهن، وبعد الشاي وتوزيع ما أتت به كل واحدة منهن من مختلف المواد مثل: الحلوى أو الزلابية أو النُّقَل على مختلف أنواعه، أو السكر أو حلوى راحة الحلقوم.

وبعد أن يوزعن ما تَجمَّع بنسبٍ متساوية تتقدم كُبرَاهُن أو أحفظهن لروائع الحكم ــ وهي بالبربرية ــ، وقبل أن تبدأ التوزيع والكلام تنحى تِنتَانِ منهن جانبًا ويأخذن علامات على قدر النساء الحاضرات أو يكتبن أسماءهن في أوراق صغيرة ثم يَطوِين تلك الأوراق ويعطينها لهذه المقدمة، فتقول ما شاء لها القول عند إلقاء كل علامة أو ورقة من تلك الأوراق على الحصة[2]، وكثيرا ما يصدق حدسها حدسها عند الكلام على صاحبة تلك الورقة التي لا تعلمها، فتتحدث حين تتحدث عنها ببعض ما تشعر به صاحبة الفال، وهذا يكثر عند الأمهات المُسنَّات ولو سجل أحد الحاضرين تلك الحكم والمقالات لسجل قسمًا مهمًا من الثقافة

---

1 - هي: "تَدَّارْتْ نْ تِمْسِرِدِينْ"، وقد سبق الحديث عن هذه الهيئة العرفية النّسوية، والدار التي تجتمع فيها.

2 - هو: ما يشبه "البوقالات" عند العاصميات.

الشعبية التي كنا ولا نزال ـ بجهلنا ـ لا نعطي لها قيمتها الحقيقية في مقوماتنا الأصيلة[1]، ولعل الله يمن علينا بتسجيلها وشرحها ومحاولة التعرف إلى ما فيها من أدب شعبي وتاريخ وثقافة، فهل يسمع الشباب؟!!.

وتسمى هذه العملية "أَلاَّوَنْ" وهي جمع لكلمة "أَلاَّوْ"[2] وهو الحصة أو النّصيب، وغالبا ما تنتهي هذه السهرة على موعد للعام المقبل على نذر قد تنذره إحداهن كأن تقول: إن بَلَّغني الله فحججت فلكُنَّ عليَّ فُطورًا أو سُحورًا أو أي إكرام آخر، وليس في العادة أن تتكرر السهرة في ليلة أخرى في دار واحدة فالليلة المقبلة تكون في دار أخرى، ولو بتجمع تلك النساء كلهن، ويبقى أن نشير إلى أن الكثير من النساء أو الأغنياء يجعلون شهر رمضان وقتًا لأداء زكاتِهم لما في ذلك من مضاعفة الأجر، والنساء عندنا يؤدين زكاة حُلِيِّهن كما هو مشهور الأقوال عند الإباضية: "إن الزكاة في الحلي واجبة"، وهناك من يوقت بالْمُحَرَّم لأنه أول الشهور القمرية ولكل وجهة هو موليها، وقُبيل العيد بأسبوع تبدأ صدقة الملابس الجاهزة أو الكتان فتُكسى بذلك أغلب العائلات الفقيرة[3]، وهذا يكون في الغالب من زكاة تجار الكتان أو من كيس العشيرة، وذلك كله لئلا يُحرم أبناء الفقراء من اللباس الجديد يوم العيد، واللّهم أدم علينا الإسلام وثبت أقدامنا في سبيلك حتى نُحقق في القرن العشرين مظاهر المجتمع المسلم الذي اخترته لنا طريقا إلى الجنة يا أرحم الراحمين.

---

1 - اشتهرت من الأمهات الصالحات السيدة "لاَلَه كْ أَنْ عُومَرْ"، وكانت امرأة فاضلة أتقنت هذا الفن وصارت ماهرة به في العطف، وإن كان للأسف لم يُبادر أحد إلى جمع أقوالها الحكيمة تلك إلى تاريخ اليوم..

2 - وهو فيما نحسب من "الفَال الحسن" الذي هو مستحب، بعكس التطير الذي هو منهي عنه.

3 - وأنا صبيٌّ، كنت قد شاهدت بتحنينت، عند آل بكلي محمد في حي الشيخ بحيو موسى، توزيع الملابس الجاهزة المتنوعة على الناس المحتاجين، وقد كان أبنائه من تجار الكتان بالجزائر العاصمة، وأحسبها زكاة تجارتهم يخرجونها من "عروض التجارة" كما هو معلوم في الشَّرع في فقه الزكاة، وقد بقيت تلك الصورة الناصعة من الإحسان عالقة بذهني إلى تاريخ اليوم.

عيد الفطر المبـــارك

ومراسيم عيد الفطر تبدأ بأداء زكاة الفطر، فلا يوجد غني أو متوسط الدخل إلا ويؤدي زكاة الفطر، وحتى الذين يتلقونها من ذوي الدخل المحدود قد يؤدون زكاتهم لمن دونهم في مستوى العيش، وأغلب الناس يؤدونها في صبيحة عيد الفطر، فترى الأولاد في الصباح الباكر يتسابقون لإيصال هذه المؤونة إلى مختلف دور الفقراء، ومن المعلوم أن الناس لا يعطون صدقاتهم لفقير واحد بل قد يقسمونها لعدد منهم لتعم الفرحة ويشمل الإحسان جميع الدُّور، ولا يرجع الأولاد الذين يوصلون هذه الزكاة إلى الدُّور بدون أن يُعطَوا مكافأتهم أو غيرها مما يُدخل السرور، وهناك من يشتري معادل فطرته خبزا يوزَّع في المسجد بعد صلاة الفجر في الختمة التي تختم بها مجالس التلاوة في ليال رمضان كما سيأتي مفصلا.

وفي الصباح الباكر أي بعد الصلاة مباشرة لا يخرج العزَّابة من المسجد بل يقرؤون ما تيسر من القرآن ويختمون، أما الناس فيذهبون إلى الخبازين أو إلى دُورهم ويأتون بالتمر والخبز، وبعد أن تتم مراسيم الْخَتْمَةِ توزع تلك الصدقات على الحاضرين من رجال ونساء ثم ينصرف الجميع على موعد الرجوع بعد ساعة للمسجد، وفي ذلك الصباح الباكر تُتبادل الهدايا وهي عبارة عن كمِّية من "الرْفِيسْ" وهو شبيه بالثَّرِيدْ المعروف عند العرب، وهذه الهدايا أغلبها من دُور العرائس ـ التي تزوجن في بحر تلك السنة ـ إلى الأصهار الجُدد، اقتداء بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تهادوا تحابوا"، وكما تُصنع أواني الرْفِيسْ لكل الذين ماتوا في تلك السنة في أول عيد فطر بعد وفاتهم، فتذهب قريبات هذا الميت فيوزعن هذا الرْفِيسْ على كل من يلقينه في طريقهن في المقابر، وتنظم مُراقبة حازمة من طرف المسجد في أكثر المقابر لما يكثر فيها من النساء في ذلك الصباح الباكر،

وكما يُصنع البعض فطورا للأولاد الذين صاموا لأول مرة بمناسبة عيدهم الأول بعد بلوغهم، وإن كان ليس عامًّا كالعادتين السابقتين.

وأول ما يجعل لتزيين الأولاد هو الحناء فالبنات على العموم تُزيِّن أيديهن بالحناء، أما البنون الذين دون البلوغ فإنهم يجعلون لهم الحناء في نصف يدهم اليمنى، أما الأبناء الصغار الذين لازالوا لم يُختنوا فغالبا ما يجعلون لهم الحناء في اليد اليمنى واليسرى وفي كل اليد لا نصفها كما هو الحال في السابقتين.

وعند طلوع الشمس وبعد تناول الفطور تبدأ الأمهات بلبس الملابس الجديدة لكل الأولاد، ويتزين كل أفراد العائلة كبيرا وصغيرا ثم ينقسمون، أما غير البالغين فيذهبون إلى باب المسجد ينتظرون المؤذن ليخلفوا مكانه في الصومعة بعد أن يؤذن للصلاة كما سيأتي الكلام، وأما البنات فيزُرن أقاربهن من الجدَّات إلى العمات والخالات، وأما الرجال فيذهبون عند سماع الآذان إلى المسجد حيث يتجمع كل سكان البلدة، أما الأمهات فيمكثن في الدور لتلقّي الزيارات.

أما البنات البالغات فيذهبن لزيارة زميلاتهن اللائي تزوجن في تلك السنة، ومن البديهي أن الزيارات فيها تبادل التهاني وأقل ما يقوم به الزائر التمر والحليب، والتعطير بأنواع الطيب، وقد يفرح الأولاد الصغار بالدَّراهم أو الحلوى، وتعد في كل دار مائدة فاخرة لمن قد يزور الأمهات من ذوي محارمهم أو أصهارهم، ومن أحسن السُّنن المتبعة عندنا أن الرجال بعد أن يفترقوا ويخرجوا من المسجد يذهبون لزيارة ذوات محارمهم ولو دونهم في السِّن، فيذهبون أولاً إلى من هو أكبر منهم ثم يتتبعون أقاربهم من بناتهم المتحجبات وحفيداتهم إن كانت لهم حفيدات، وغالبا ما يتجمع الأقارب من الرجال عند باب المسجد ليذهبوا معا إلى ذات محرم كبير يهنؤونها بالعيد، وقد يجدون عندها بعض ذوي محارمها ممن كانوا يعرفونهم قبل، وفي هذا ما فيه من التعارف بين الأقارب والأرحام ولا يأخذون معهم هدية بل قد

يدعون إلى أكل فطور أو تمرٍ أو حليب أو كأس شايٍ[1]، ثم يخرجون ويتتبعون جميع قريباتهم كما ذكرنا.

وقبل أن نذكر التقاليد المتبعة في المساجد يوم العيد أتعرض لعادة موجودة عندنا في العطف ولا أظن أنها موجودة في غيرها من قرى الوادي وهي أن الأولاد غير البالغين _الذين لم يبدؤوا الصلاة_ يؤذَن لهم بعد أن ينزل المؤذن من الصومعة بعد أن يدعو الناس للصلاة فيصعد هؤلاء الأبناء إلى أعلى الصومعة ويشرعون بالنداء الأخير الذي يؤذن به المؤذن باللغة البربرية يكررونه لمدة ساعة على التقريب، يؤذن المؤذن في أول الأمر بالتسبيح سبع مرات ثم يقول "وَغَا نَ زَّالْ اضْزَالِّيتْ"[2] ثلاث مرات، فإذا نزل صعد الأبناء ورددوا ما قال بالميزابية، وقد سألنا عن أصل هذه العادة فقيل لنا أن قصر "أُوخِيرَة" قد خُرب في يوم عيد بل في وقت الصلاة بالذات، ومنذ ذلك الحين اقتضت الحكمة أو الإستراتيجية على حد التعبير الحديث أن يصعد الأبناء في الصومعة ليظن المتربصون إذا ما وُجدوا في مكان ما يتحينون الفرصة السانحة أن الناس لم يجتمعوا بعد لأداء سنة العيد فيبقون في الانتظار حتى إذا ما انصرفت الناس من الصلاة أنزلوا الصبيان من الصومعة، وحينئذ يعتقد كل من كان يرقب الحركة أن الناس قد بدؤوا الصلاة بعد سكوت الصبيان، وإذا هجموا وجدوا أنفسهم أمام من يدافع عن البلدة، هكذا رُويناها والله أعلم بالحقيقة، وعلى كل فإن إيرادها بكل أمانة قد يفتح بابا من البحث الموضوعي لمن أراد، ولا بأس بذكر عادة كانت متعة حتى الثلاثينيات وإن كانت اليوم قد

---

[1] - لقد أحدث عزَّابة "آتْ يَزْجَن" مؤخرًا بعد دراسة شكاوى عديدة وصلتهم من الناس، اتفاقًا يقضي بأن لا يضع ربُّ البيت لمن يقصد داره للزيارة يوم العيد غير التمر والحليب، وذلك في اليوم الأول والثاني من العيد، لأن الناس صارت تبالغ وتُسرف في تزيين موائدها للضيوف، حتى صار الفقير من الناس يجد عنتًا كبيرًا وحرجًا عندما يقدم التمر واللبن وهو لا يستطيع اقتناء الفواكه المتنوعة والحلويات الكثيرة.

[2] - أمَّا هذه فترجمتها بالعربية هي: "حي على الصلاة".

انقرضت و لم تعد تُذكر، وهي كذلك تقع في صبيحة العيد ويشترك فيها الشباب وهي الترامي بالحجارة، يتجمع شُبان "أَدَّايَنْ"[1] في باب سيدي إبراهيم[2] وشبَّان "أبي سالم" وهي المنطقة العليا، فيترامى الفريقان بالأحجار حتى يتغلب فريقٌ على فريقٍ والمغلوب من الفريقين هو الذي يفر ويعتصم بدخول باب البلدة من بابه، هنالك يتواعد الفريقان إلى العيد المقبل، فهل لهذه العادة اتصال بالأسطورة السابقة؟! وهل كانوا دائما يتظاهرون باللعب فيما بينهم فإذا جاء عدو خارجي اتحدوا ضده ثم تُنوسيت الفكرة الأصلية لهذه العادة؟!، وعلى كل حال هذا أمر يستطيع بحثه من أراد، أما عادة الصعود في الصومعة فلا تزال أُمنية كل مراهق وكل أُمٍّ، أما العادة الثانية وهي عادة الترامي بالحجارة فقد أُلغيت بعد أن أحدثت أضرارًا جسيمة بكثير من اللاعبين، وبقيت نكتة واحدة نريد أن نزيدها توضيحا للعادة الأولى وهي لماذا اختاروا الصبيان غير البالغين والجواب سهل بسيط، وذلك لأنهم غير مكلفين بالصلاة ولا ضرر منهم إذا ما أطلُّوا من الصومعة على سطوح الناس..

وأكرر القول هاتين العادتين امتازت بهما العطف وحدها وهذا كذلك أمر يستدعي البحث في جملة ما يجب أن يُبحث ويُستنتج.

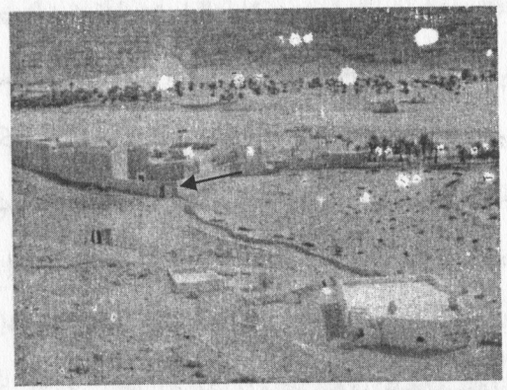

* مقام الشيخ أَمِّي إبراهيم بن مناد العَطفاوِي الزَّناتِي ق6هـ/12م أشهر معلم تاريخي قائم بالعطف، وفي أدنى سور البلدة يوجد الباب المُفضي إلى هذا المقام المقصود، وقد أشرنا إلى الباب بسهم.

[1] - أَدَّايَنْ: هو الحي السفلي من البلدة، ويقصد به نواحي المسجد العتيق.

[2] - هو: ضريح الشيخ "أمِّي ابراهيم" بن مناد الزَّناتي، عالم مجدد بارز..، ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص64.

ولنعد إلى ذكر ما يقع عادة في المساجد، بعد النداء إلى الصلاة يتوافد الناس على المسجد ويبدأ الشيخ بإلقاء درس مُركَّزٍ قد يتجاوز الساعة في الوعظ والتذكير والتوجيه، ثم تُجمع التبرعات لمصالح المسجد ومصاريفه كالماء وتسخينه والكهرباء، وقد ترتفع الأرقام إذا ما كان هناك مشروع بناء أو توسيع، ويَبذل الناس بأريحية نادرة المثال، ثم تقام الصلاة وبعد الخطبة تُقرأ سورة من سور القرآن يدعو إثرها سبعةٌ من العزَّابة واحد بعد واحد والناس يؤمنون ثم يقوم الناس لتهنئة العزَّابة الذين يقفون في الصف الأول متجهين إلى الناس، وكلما انتهى من تهنئة العزَّابة شخص يقف فيكون الصف ثم يتتابع الناس حتى يهنئ بعضهم بعضا جميعا مقدمين العزَّابة ثم إِرْوَانْ ثم المسنين فالكهول والشباب، وبعد أن تنتهي العملية يتفرق الناس ويذهبون لتهنئة ذوات محارمهم في بيوتهم كما سبق ذكره، وفي العَشِيَّة يتجمع الناس لزيارة المقبرة، يقفون على قبور المشايخ والعلماء وعلى والديهم ويذهبون جماعة واحدة في الغالب، وقد ينقسمون إلى جماعات، ولكن المهم أنهم يزورون الأموات كما يزورون الأحياء من المرضى والعجزة، هذا بالنسبة للقرى التي ما يزال الناس فيها يصلون في المساجد، أما في المدن التي تطبق السُّنة وهي الخروج إلى المُصلى فإن الناس يخرجون بعد الاكتتاب[1] من المسجد إلى المصلى وهم يكبرون ويهللون، فإذا وصلوا المصلى وأدوا صلاة العيد وقفوا هنالك للتهنئة، وفي العطف حيث يوجد مسجدان بعد أداء الصلوات يأتي عُمَّار مسجد أبي سالم إلى المسجد العتيق أو الجامع فيجتمعون هناك ويهنئ بعضهم بعضًا على الطريقة التي مرَّ ذكرها، وكل هذه المراسيم تقع في عيد الفطر بشكل واسع ودقيق ويحضر كل الناس، أما في عيد الأضحى فإن الناس يخرجون بعد الخطبة مباشرة وذلك لذبح أضحياتهم ولا يبقى لمراسيم التهاني إلا من كُفيت مؤونته في القيام بهذه الشعيرة،

[1] - الاكتتاب هو: أن يقيّد شخصٌ اسمه في دفتر المسجد بأن يدفع كذا وكذا في مشروع بناء أو توسيع أو غيره..

وفي عشية العيد يذهب الناس ليهنئوا شيخ المسجد في داره ويتوافد الناس من جميع طبقات البلدة وذلك اعترافا منهم بفضله، ومن الغد تنعقد رحلات التزاور بين الأقارب، ويقصد الناس من كل قرية إلى القرى الأخرى الأعلام المشهورين والشيوخ يقابلون كل وفد بما تيسر من إكرام، ويلقي عليهم بعد ذلك كلمات توجيهية فيما يفيدهم لدنياهم وآخرتهم، وهكذا بعد أن تنتهي كل هذه الزيارات واللقاءات يعود الناس الذين جاءوا من التل إلى أعمالهم بعد أن يكونوا قد تزوَّدوا بهذه الطاقات الروحية من معين القرآن ومن روح الإسلام ومن هذا التعاطف الذي يضفيه الإسلام الصحيح على مجتمعاته المؤمنة، أما الأجواء العائلية وما يشيع فيها من مرح فهو غني عن البيان وإن كنا قد ذكرنا بعضه فيما سبق، يبقى أن ننبه ونؤكد أن الناس لا يتكبدُّون مشاق السفر البعيد من أجل الهناء العائلي فقط ولكن هناك العائلة المحدودة والعائلة الكبرى التي يحيا الناس إخوة في جوِّها.

ولا تختلف العادات بين العيدين إلا في قليل من المظاهر، فالدرس الذي يُلقى يكون مختصرا والاكتتاب لا يقع إلا إذا كانت هناك أعمال بناء، ومراسيم التهاني تؤخر للغد لانشغال الناس بالأضاحي، ومن البديهي أن يتعاون الناس في هذا الميدان ويعقد الشباب جماعات من بينهم يتبرعون بالذبح مجانا للفقراء أو الأرامل واليتامى، كما أن الناس الذين ليست لهم أضاحي ينالون الشيء الكثير من أقاربهم وجيرانهم، وتلك هي السُّنة الإسلامية الصحيحة، ومما يجدر ذكره أن الأضحية يلطخ وجهها بالحناء ويبخر لها عند دخولها الدار وهذه من العادات الموجودة في بعض القرى دون بعض.

ومن أشهر الأعياد التي يكثر الاحتفال بها عاشوراء، ففيها يتجمع الناس في المسجد لصلاة مئة ركعة كما سبق الكلام على ليلة النصف من شعبان، ويمتاز عيد عاشوراء بأن الكثير من الناس يجعلون منها وقتا سنويا لموعد زكاتهم، فمحرم أول

شهر في السنة القمرية وفيه من الفضل ما فيه، وهو عندنا يمتاز بعشاء فاخرٍ يقول عنه الأسلاف إنه من لم يشبع في هذا اليوم فلا يشبع طول العام، وتصنع الأمهات خبزة لكل واحد من الأولاد من أفراد العائلة.

ويتركن قطعا من اللحم المُصبَّر من شاة الأضحية عادة، وهذه وإن كانت جزئيات إلا أنها جديرة بالذكر كما التزمنا بذلك في هذه الخلاصة الوجيزة.

وهناك في العطف بالأخص عائلة أو عائلتان لا يتزين أفرادها في عاشوراء ولا يشعلون نارًا وليسوا من عائلات الإباضية، من الممكن أن تكون من بقايا الفاطميين الذين سكنوا شمال إفريقيا وحكموها زمنا غير قصير.

والاكتحال في عاشوراء عادة كانت متبعة، ويسمح بها حتى للرجال في هذه المناسبة.

المولد النبوي الشريف

ومن الأعياد التي تحظى بمكانة ممتازة مولد خير البشر محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، ويمتاز منذ الليلة الأولى من شهر ربيع الأول بإحياء لياليه في الدُّور الخاصة بتلحين البُردة والهُمزية والكثير من القصائد والأناشيد التي يتبارز فيها الفنانون الشباب، وإحياء هذه الليالي في دور العلم وفي المدارس هو تمهيد لليلة المولد التي تبيتُ فيها الحِلق في كل المساجد تُنشد، وتلقى فيها الدروس، وتمتد أغلب السهرات إلى السَّحر، فإذا قرب الفجر انعقد مجلس لتلاوة القرآن حتى طلوع الفجر، وإن كان معظم الحاضرين يخرجون بعد منتصف الليل.

وعند المغرب من ليلة المولد يذهب الأولاد زرافات ووحدانا يحملون أوقاد الزيت إلى المساجد فهناك أوقاف كثيرة معلقة في الدُّور بأن يؤدي لترًا من الزيت ليلة المولد، وهناك من يتبرع على حسب عدد أولاده فيعمر مقدار قنديل لكل واحد، ويُجمع ذلك الزيت في إناء يبعث به إلى المسجد مع الأول، وقد كان هذا

الزيت منذ القديم يجعل للاستصباح، ولكنه الآن يُباع ويصرف ثمنه في تسديد قيمة الكهرباء، ولكن من العادة أن يأخذ الأولاد معهم قنديلاً مضيئًا إذا ما ذهبوا للمسجد بعد المغرب، وتوقد الشموع في كل مكان وفي الشوارع والناس يُصِرُّون على إيقاد الشموع ولو في عصر الكهرباء، وهناك من العادات إشعال المحاريق وإنها لتكوّن صخبًا وضجيجا في كل البلدة، ولقد حاول المسؤولون ما أوتوا من جهد في صرف الأولاد عن هذه العادة ولكن بدون جدوى، ويحتفل الناس بغداء يوم المولد ويعطرون الدار بالبخور، وتزغرد أم العائلة بعد الغداء وتعلن أن نبينا محمد قد ولد هذا اليوم فاسمعوا يا ملائكة الدار أو اسمعي أيتها الدار، وقد كان عيدا يمتاز بإكرام اليتامى وبتزينهم باللباس الجديد، ولكن هذه العادة الآن أصبحت تعم جميع الأولاد.

وقد كان إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية تلاميذ المحاضر يتجولون في البلدة يتتبعون الدور واحدة بعد أخرى ينشدون نشيدًا باللغة الدَّارِجة[1]، وكل ما يجمعونه يأتون به إلى المحضرة ليوزع على جميع الأولاد، فالزرع يُصنع خبزا والدَّراهم تُشترى خبزا من الحانوت، أما الشعير فيُخلط بالبُر ويصنع طعاما، أما البيض فيُقَسَّم على المعلمين، وقد تعطي لهم بعض العائلات نصبًا يقطعون منه الأقلام، وهذه العادة كانت تتكرر في عيد الأضحى كذلك، ولكن نشيدها بَربَرِي[2]، وهذه الجولات تُشيع المرح والفرح في تلاميذ المحاضر ويستمر الخبز يوزع عليهم أكثر من شهرين، وإن كانت العادَة اليوم ألغيت تمامًا، ولكننا ذكرناها لما لها من علاقة بموضوعنا، ونحن ملتزمون أن لا نُفلت الجزيئات.

[1] - مطلع هذا النشيد هو: مُولُود يا مُولُود، مُولُود النَّبِي ÷ لاَلَة حَلِيمَة رَبَّايت النَّبِي..

[2] - لا أدري ما هو، ولعله نشيد صالح باجو الذي مطلعه: إِيلُولَدْ سِيدنَا مُحمَّد ÷ نَضْوَا الدُّنِيتْ اسْ نَنْوَارْ..

ومن العادة كذلك أن تتلقى العروس التي بدار والديها أُضحيةً في سنتها الأولى، وكذا تتلقى في عيد الميلاد هدية من الحلوى والكَاوْكَاوْ والزلابية والشمع والمحاريق وتسمى باللغة البربرية "أَلاَّوْ نَ الْمُلُودْ"، وقد تقدم في الكلام عن رمضان معنى "أَلاَّوْ"، ويحتفل السكان هنا باليوم السابع للمولد بإحياء لياليه بالأناشيد الدينية، وهناك في بعض القرى لا تبدأ الليالي الخاصة إلا بعد عيد الميلاد وتستمر إلى السابع، وهناك من تُحي كل ليلة من ليالي الشهر إلى نهايته ولكن في المسجد، وكما أن دروس الوعظ تتركز في سيرة الرسول وشمائله، وهذا قليل في حقه صلى الله عليه وسلم.

وقد ابتكر الناس بدعةً بعد وجود السيارات وهي زيارة جميع المساجد في هذه الليلة الغرَّاء، فيطوفون على جميع المساجد ويسمعون في كل مسجد نشيدًا ويتبعونها حتى قرب الفجر، وإن كانت البدعة ربما قد تجاوزت حدودها فهي تُكوِّن تشويشات في المسجد بالدخول والخروج والترحيب والاستقبال، علاوة على ما يُحدثه توزيع الحلوى والشاي من الحركة.

ويؤذن للصبيان غير البالغين خاصة في هذه الليلة بدخول المسجد ويُفرش لهم بِساط خاص بهم فوق حَصير الصلاة حفظا للحصير.

وكل القرى تحتفل بعيد الميلاد ولكن أروع قرية تحتفل به هي مدينة يسجن، فإن أهلها يعتنون بهذا العيد أكثر من القرى الأخرى، فهم مثلاً قد لا يحضرون عيد الفطر أو لا يتنقلون من الخارج من أجل العيد ولكنهم ينتقلون من أجل عيد الميلاد ولاسيما مظاهرة "البشير" كما يسمونها[1]، فكل أب عائلة يصحب معه أولاده إلى المسجد وبعضهم يحمل القناديل والشموع فيذهبون إلى المسجد قُبيل المغرب ثم يعودون ويطوفون الشوارع قبل أن يعودوا إلى ديارهم وهم في كل

[1] - يرددون فيها: مُولود النبي، محمد المصطفى ÷ السراج المنير، صلى الله عليه وسلم.

تحركاتهم ينشدون "البشير محمد المصطفى" ولعلنا نُسجل بعض الأناشيد فيما بعد بحول الله[1].







وفود الأطفال والأولياء وهم يُحيون ذكرى المولد النبوي الشريف بتَجنينت (العطف).

[1] - لقد كانت هذه التظاهرة خاصة ببني يسجن أما اليوم فقد بعثها الشباب بالعطف، ومنهم شباب منتدى "أغَرْبَاز"، فقد شرعوا منذ 1426هـ/ 2005م في تنظيم هذه التظاهرة بتقاليدها الأصيلة، بقناديل الزيت المضاءة "إيْنَارَنْ"، كما أضافوا إليها توزيع إكراميات على الأطفال الذين يرافقون جموع المشاركين من ساحة السوق القديم إلى مصلى الشيخ عمي حمو بأعلى البلدة، مَارِّين عبر شوارع البلدة مرددين أناشيد بديعة في الاحتفاء بميلاد الرسول الكريم، وبعد الختمة العامة والدعاء في ذلك المصلى توزع الإكراميات على الأطفال، وقد صارت تلك المبادرة تلقى الاستحسان والمشاركة المتواصلة سنة بعد سنة من الأولياء مع الأطفال خاصة.

عيد الزيـــارة

عيد الزيارة هو عيد الربيع أو شَمِّ النسيم أو عيد الزهور أو ما شئت فسمه وهو العيد الوحيد الذي يحتفل به المزابيون بدون مناسبة دينية كالأعياد التي سبق أن ذكرناها كما أن ليست له مناسبة تتعلق ببعض الأحداث الوطنية كعيد الاستقلال، ويقع هذا العيد في الربيع وفي أوائل إبريل، بل وفي أول إثنين منه بالضبط، وإن كانت بعض القرى قد نقلته إلى الجمعة مراعاة للعطلة الأسبوعية، ويقول سادتنا المشايخ إن اختيار الربيع كان لأسباب زراعية، فالتَّمر وهو أغلب ما يُغرس في وادي ميزاب على العموم، يكون أُبِّر والزرع قد بدأ يُسَبِّلُ[1]، وفواكه الصيف قد بدأت بَواكِيرُها، وكل الأشجار تتفتح براعمها، فلكل ذلك رأى المسلمون أنه من واجبهم أن يخرجوا إلى الله مبتهلين داعين ليحفظ مزروعاتهم ويبلغها حتى توتي أُكلها ويَحفظها من الجوائح والآفات.

وهذا مجمل الأعمال التي يقومون بها: عند طلوع الشمس يتجمع الناس في مصلى الجنائز حيث يؤدون صلاة الاستسقاء، فالصحراء دائما بل الأرض كلها في حاجة إلى الماء وإلى ماء المطر خاصة، والصلاة لابد بعدها بالدعاء، وفي الدعاء والابتهال يدعو الإمام بعد أن يقلب رداءه ويديه كما في صحيح السُّنة، وبعد استغفار الناس مئة مرة يفترقون ويتوزع الناس على جميع المزارات والمشاهد، وعلى كل مجموعة أحد العزَّابة أو بعض كِبار إِرْوَانْ وبعض المُعلمين لمراقبة الصبيان الذين يتسابقون إلى هذه الزيارات، وفي كل مشهد يدعون الله بعد أن يقرءوا ما تيسر من القرآن، ويقطعون الطريق بهذا الدعاء: "بسم الله يا الله يا رحمن" و"يا رحيم يا الله وارحمنا" المسيِّرون يُنادون به أولاً ثم يردد الأولاد، وذلك طول الطريق ولا يتوقفون إلا لضرورة كأن يجدوا بئرا فيتسابقون للشراب من الحوض، وإذا بلغوا إلى آخر

[1] - أي: تستقيم سنابل القمح.

مزارٍ في جولتهم جلسوا وقسموا التمر والحليب والخبز على الجميع، ويشترك في الإتيان بهذه المواد ولا يختلف عن ذلك أحد الحاضرين، وهذه الظاهرة موجودة في كل الختمات كما تقدم، فمشاركة الناس على اختلاف مقاديرهم في هذه الصدقات يجعلهم يعتقدون أنهم قد ساهموا في تجميع هذه الصدقة وإن كانوا جاءوا بأقل من القليل، ويأخذون أضعافه كما تقدم، ثم إن الأغنياء الذين يحضرون لا يردون الصدقة بل يأخذونها معهم إلا إذا لم يكن لأحدهم منديلا، فإنه يأخذها ويعطيها لمن بجانبه أو يمسكها بيده فيمدها للذي بجانبه أو يأكل منها تمرة ثم يرد الباقي في القفة التي يوزعون بها، تلك أخلاق إسلامية رفيعة إذا سادت في المجتمعات أزالت هذه الحواجز المصطنعة بين الناس وجعلتهم لآدم وآدم من تراب..

ولا عجب أن نجد هذه الروح الأخوية عندنا بين الفقراء والأغنياء، ولو ذهبنا نسرد الوقائع التي عشناها في هذا المضمار، لتبين للناس الذين يحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يخلقوا هذه الفجوات بين الناس حتى يصيروا طبقتين يحقد بعضهم على بعض، ولكن في هذه الأماكن لن يستطيع إنسان أن يحققها مهما حاول، فما جمعته يد الله لا تستطيع تفريقه يد الشيطان، كما قال الإمام ابن باديس ــرحمه اللهــ ولنعد لعيد الزيارة فهذا شجن من الحديث لا تكفي فيه صفحة أو صفحتان.

بعد أن يعود الناس من المشاهد البعيدة يتجمعون في مصلى من مصليات المقابر حوالي منتصف النهار، أما بالنسبة للعطف فيكون التجمع في مقام الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر[1] وليس فيه مقبرة ولا قبر ولكنه مصلى فسيح، وفي انتظار التجمع يسأل أحد الفقهاء وهو جمع "فْقِيه" والمقصود بهم معلمو القرآن، يسألون التلاميذ عن رسم القرآن وما هي المواضع التي تكتب فيها تاء سنة مفتوحة، وفي موضع من القرآن نجد "وإذا قال موسى لقومه يا قوم".. إلى غير ذلك من الآيات

[1] - هو الشيخ أبي عبد محمد بن بكر الفرسطائي، واضع نظام العزّابة، توجد روضته في وسط الوادي بتَجْنِينْتْ.

التي تشابه في القرآن والفروق التي قد تكون بينها، وكل تلميذ يُسأل وحده ولكن بمحضر إخوانه ومعلميه، وقد كان هذا الامتحان يخول درجة من الدرجات مثل أن يكون له الحق في حضور مجلس القرآن في المسجد، فقد كانوا لا يقبلون من التلميذ في سن الدراسة الحضور بين الصلوات في مجلس التلاوة بالمسجد بل يُحيلونه إلى المحضرة ليستزيد من القرآن إن كان ما زال لم يُكمله وليعيده باللوح إن كان قد ختمه، وبعد أن يصلوا الظهر ويوزعوا التمر واللبن على كل الحاضرين يذهبون مع أحد المشايخ لتتبع جميع المقابر، وكلما وقفوا على قبرٍ ذكروا صاحب هذا المقام ونبذة تاريخية والكرامة التي تُحفظ عنه إن كانت له كرامة تذكر، والكلام في المرة موجه إلى الطلبة بوجه خاص ليحفظوا تاريخ المشايخ، وبعد صلاة العصر يذهبون إلى دُورهم أما أكثر العامة فتنصرف إلى الدُّور بعد توزيع التمر والحليب بعد الظهر، أما تتبع المقامات فلا يحضره كل الناس، وفي آخر العَشِيَّة يخرج سكان البلدة كلهم إلى الوادي أو إلى أحد المصليات الواسعة حيث تقع الْخَتْمَة وتوزع الصدقات على الجميع، وكل هذه التجمعات سواء كان لصلاة الاستسقاء أو زيارة المشاهد البعيدة في الضُّحى أو تجمع منتصف النهار أو زيارات المشايخ وسرد التاريخ قد يتجاوز فيه الناس ويختلفون فيه على حسب رغبتهم وأعمالهم ونشاطهم وكسلهم، ولكن الخروج الجماعي في آخر العَشِيَّة وهو قد يدوم ساعتين لا تساهل فيه: فأبواب المدينة تُغلق والشيوخ العجزة يتجمعون في دَكَاكِينِ الباب الكبير[1] أو في السوق الخارجي إذا كانوا لا يستطيعون الوصول إلى مكان التجمع العام، ولا يُعفى إلا من كان مريضًا مُزمنًا وهذا بالضرورة لا يُغادر بيته، وبعد الختمة وتوزيع الصدقات يفترق الجميع في أعظم مظاهر الفرح والحُبور، أما حظُّ النساء من عادات عيد الزيارة فهو التَّزَيُّن وكل العرائس التي تزوجن في تلك السنة لابد لهن

[1] - الدُّكَّانة: مرتفع صغير يُبنى بناءً كأنه دَرَج، يجلس عليه الشيوخ عند أبواب البلدة حيث يتسامرون وهم يقظين.

من أن يتزين ولو كان أزواجهن غائبين، فلا يسمح لهن ولا لأي امرأة أن تتحلى بالزينة وزوجها غائب حتى في العرس، نعم تلبس اللباس الجديد ولكنها تتحلى ولا تُزين وجهها بالتَّحمِيرِ ولا بِالتَّنْقِيطِ[1] أما في عيد الزيارة فلا بأس، وتكون عرائس تلك السنة على استعداد لاستقبال أي زائرات من أقاربهن أو من أي عائلة في البلدة، ولابد أن تكون العائلة التي توجد عندها عروس مستعدة لاستضافة الزائرات بالتمر والحليب وهما الأصل، وقد يزاد لهن شيء آخر كالشاي والحلوى أو المشروبات الغازية إلى غير ذلك من الأمور التي تُقدم عادة في الاستقبالات، وتتكاثر النساء في الشوارع بساعة بعد العصر حيث يخرج الرجال وتغلق أبواب البلدة كلها، وغالبا ما تفتح النساء وجوههن وهن يتدفقن على الشوارع ينتقلن من دار إلى دار لزيارة العرائس وزيارة جميع المتزوجات حديثا، لأن العادة تقتضي عندنا أن الفتاة إذا تزوجت لا تخرج في السنتين أو الثلاث السنوات الأولى إلا لدار زوجها أو تعود من دار زوجها لدار أبيها، وليست هناك عقوبة إذا ما خرجت أو انتقلت وهي محتجبة إلى أي دار في البلدة ولكن هذه العادة كانت أساسا لترويضها على الإقامة في البيت، وهذه الحال وإن كانت صعبة عليهن ولكنها تساعدهن على تعلم كثير من الصناعات التقليدية ونسيج كثير من الزرابي، قلنا إن هذا القسم من الشابات المتزوجات سواء كان أزواجهن حاضرين أو غائبين يتلقين زيارات من كثير من نساء البلدة ومن فتياته، وكل ذلك في غيبة الرجال خارج القرية، وكان من عادة كثير من النساء أن يدخلن السوق ويذهبن حتى مكتب "الْقَايَدْ" ـ وهو مركز الحُكم ـ فيضربن بابه بأيديهن وأرجلهن والسوق ملآن بالنساء، ولسنا ندري مصدرها أهو مبالغة في استغلال هذه الحرية التي أعطتهن هذه العادة، وهي المرح والتجوال في شوارع المدينة بدون رقيب ولا حسيب مدة ساعتين في كامل العام؟!

[1] - التحمير معروف، أما التنقيط: فهو وضع خانة سوداء معطرة بعشبة "تَكَّايَه"، وتسمى بالمزابية "تَمَّاسْتْ".

أم هو احتجاج على وجود محل واحد يمثل تسلط الأجنبي؟! وهذا بالضرورة يتعلق على علمنا متى بدأت هذه العادة ولست أدري على وجه التحقيق ما مقدار وجودها في غير العطف، أما في العطف فهو أمر أكيد، ولعلنا سنعرف مصدر العادة إذا تمكنا من تسجيل الكلمات التي يتغنين بها في هذه الرقصة الجماعية وسنعود..

ولا يفوتني أن أذكر عادة تتبع في مدينة القرارة حتى بعد الاستقلال وهي أن الاجتماع الذي يقع قبل الظهر ـ كما ذكرت بالنسبة للعطف في الوادي أمام مقام الشيخ ابن عبد الله محمد بن بكر ـ يقع في القرارة في "النْوَادَرْ"[1] ولكنه بشكل آخر، وهنا كل أب عائلة يكوّن حلقة مع أولاده الذكور والإناث ويهيئ معه نصيبا من التمر والحليب ويستعد لتلقي الزيارات من أي رجل كان أو من أي شاب يسلم فيجلس فيأكل التمر، وهذه العادة ـ فيما قيل ـ هي معرض للأزياء، فقد يكون هناك شاب يريد أن يتزوج ووُصفت له بنت ولكنه لم يرها أو لم يتمكن من رؤيتها قبلُ فتتاح له هذه الفرصة ليختار، وسواء كان ذلك بالنسبة للشباب أو للوالد الذي بدأ التفكير في أمر زواج ابنه، وهذا فيما نرى أمر مشروع ومن السُّنة الصحيحة حين قال لشاب "انظر إليها عسى أن يودم بينكما"، وهذا أمر جائز حتى للثيب المطلقة على شرط أن يكون وليُّها حاضرا ولو كانت هي غير عالمة كما هو مشروع، وهذه العادة إذا صحت ـ ومثيلاتها في بعض المناسبات ـ فقد تختلف المناسبة باختلاف القُرى، ولكنها تحقق السُّنة مع ضمان السلامة في العِرض والدين، ولا بأس أن نذكر نكتة تافهة تقتضيها مِنا أمانة التاريخ وهي أن كثيرين من الجيران وهم غير الإباضية طبعا، يرون أن هذا العيد الذي ليست له مناسبة دينية إنما هو ذكرى مقتل الإمام علي وهذه فيما اعتقد فِرية بثها المُبشرون قطعًا ولا يمكن أن

[1] - هي: أماكن درس الحبوب بعد الحصاد وتكون خارج البلدة، يقال لها بالمزابية "إينُورَارْ".

قطعًا ولا يمكن أن تصدر من مفكر مسلم، لأننا إذا سلّمنا جدلاً أن هناك بعض شيء من هذا، فإن الذكرى يجب أن تكون في رمضان كما هو معلوم في التاريخ، وقد تقدم أن ذكرنا أن جميع أعيادنا دينية إلا الزيارة فإنها تقع تبعا لإبريل الفلاحي، وهو يِنْير ولذلك فمن حقنا أن نسميه عيد الفلاحين.



* مصلى الشيخ باعبد الله بن يحي بالعطف، من الأماكن التي تزار يوم "الزيارة" للدعاء والذكرى ويمتاز بهندسته المعمارية البديعة.

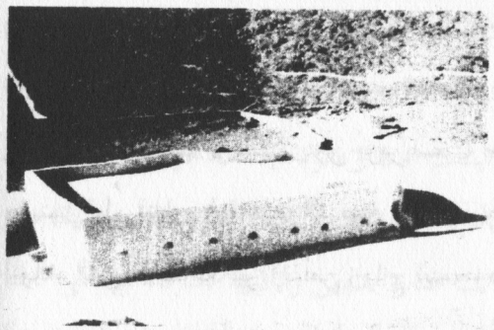

* مصلى الشيخ أمّي إبراهيم بن منّاد الزّناتي من العلماء البارزين المصلحين. ويزار مصلّاه باستمرار، وقد استلهم فنه المعماري المهندسين الأوربيين طيلة عقود من الزمن. (العطف).

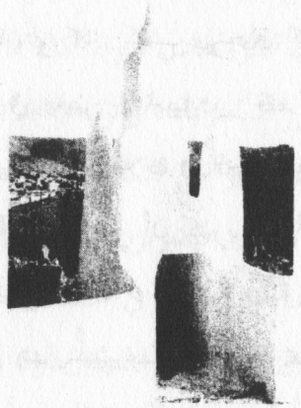

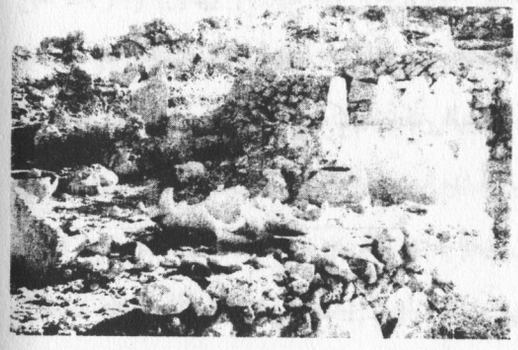

* ضريح الشيخ باحاج بن كاسي القراري (العطف). *ضريح الشيخ بَابَه دَادِّي (العطف).

الأوقـــاف أو الوصايـــا[1]

الأوقاف أو الوصايا في وادي ميزاب موجودة ومتنوعة، ولكنها اتخذت شكلا مغايرا لما يعرف عادة في الأوقاف الإسلامية في مختلف أنحاء العالم، _وإن كُنَّا لا ندعي أننا درسنا أحوال المجتمعات في عصرنا الحاضر_، وعلى ذكر العالم الإسلامي سمعنا من روى عن الأستاذ الحاج أحمد برقاش _وزير الأوقاف المغربي سابقا_ أنه توجد في المغرب في الجنوب على الأخص هذه الطريقة..، فإذا ما صح هذا فمن الجائز أن تكون هناك علاقة بين السكان هناك وهنا، وهي تتلخص في أن أحد المؤمنين يوصي بعرجون في نخلته الكائنة في غابته الفُلانية أو يوصي بنخلة غرسٍ مثلا كانت في غابته الفُلانية بجانب البئر ويترك حُكمها في ملك ورثته دائما، وبعد ذلك يجيء مُنفذ الوصية فيذهب إلى المسجد ويخبر الوكيل لينقل نص الوصية حرفيا في دفاتر المسجد، وتبعا للنص يتفقان على طريقة تنفيذ هذه الوصية، فهناك _وهذا هو الأعم الأغلب_ من يُؤَبِّر النخلة ويُنقص لها في وقت تنقيص العراجين، ويسوِّي العراجين في وقت التَّسوية وهو ما يعبر عنه بِالْحَطْ أو "أَسَرْسِي"[2]، وعند الجُذاذ تأتي الجماعة التي تقطع نخيل المسجد وتأخذ التمر الذي على النخلة كُله وتترك له عُرجون التَّأبير كما يُسمى[3]، وهناك من الوكلاء من يثق بمن يملك الغابة أن يقوم بكل شيء ويوصل التمر للمسجد، أما إذا كانت النخلة لصاحبها وللمسجد فيها عُرجون واحد فإنه هو الذي يوصله إلى المسجد، ومن النادر أن نجد غابة بأكملها ملكا للمسجد إلا في القرارة أو لمساجد ميزاب في وارجلان مثلا.

---

1 - هذا الفصل يدخل في مهام هيئة العزّابة.

2 - هو: وضع عراجين التمر على سعف النخيل حتى لا تنكسر الشماريخ التي تحملها عندما تثقل فتضيع الغلة.

3 - طبعًا هذا من صميم العدالة الإسلامية ذلك لأن صاحب البستان هو من دفع أُجرة الفلاح الذي سعد النخلة وأَبَرهَا أو لقح عراجينها، لأن تلقيح عراجين يكون يدويا وهو يتطلب جهدًا وعناية ووقته معلوم.

وهذه الغابات كلها أُلحقت بصندوق الثورة الزراعية عام 1975[1]، أما النخيل المتفرق أو العراجين فلا تزال على حالها وإن كان إيمان المؤمنين وأريحيتهم قد سدت حاجيات الفقراء من عُمَّار المساجد بما لا مزيد عليه، وإذا قلنا إن الوصايا متنوعة فهناك مثلا "جُبة الإمام" أو "حائك الإمام"[2]، ففي العطف توجد دار معروفة هي مِلك لصاحبها ولكن عُلِّقت فيها وصية بجُبة الإمام، وهي أن يصنع مالك الدار جبة صوف لإمام المسجد كل ثلاث سنوات، وإذا صنعوا له جديدة أخذوا القديمة فقد يلبسها صاحب الدار وقد يبيعها، وهناك دار أخرى عُلقت فيها جبة أخرى للمسجد الثاني، وهناك وصية باستضافة الحجيج كل سنة في بلدة "مْلِيكَة" مثلا، وهناك ما جُعل للمقابر إذا نودي لها في الصيف أو الشتاء وذلك من أنواع الميراث، وهناك من أوصى ببيت لضيف المسجد ينامُ فيه مادام مقيمًا في البلدة، وهناك من أوصى بكل ما تحتاج البلدة من ملحٍ، وإن كان قد علَّق ذلك في دارٍ ذات ريع مهمٍ، وهو على طول السنة يتصدق بالملح لكل من يقصده في تلك الدار، وطبيعي أن الأغنياء لا يسألون ولكن صاحب الدار يعطي الملح لكل من أراد[3]، والملح كما يقال لنا هو مأدبة جدنا الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وهناك من أوصى بِحُلَيٍّ يُعطى على سبيل العارية لكل متزوجة فقيرة تتزين به في عُرسها.

1 - إن كل الناس الذين اغتصبوا تلك الواحات والبساتين من أصحابها تركوها بُورًا إلى تاريخ اليوم، والعجيب في الأمر أن جُلَّ مغتصبيها كانوا يشتغلون أُجراء عند أصحابها، فلما أُعلن القانون سارعوا إلى إخبار السلطات عن أملاك أسيادهم، فاقتُطعت تلك الأراضي لهم، ولكنهم لما كانت نواياهم سيئة ومنطلقاتهم مبنية على حسدٍ وطمعٍ ليس إلاَّ، فإنهم لم يعتنوا بها مثلما كانوا يفعلون وهم أُجراء فيها، فماتت جميعها، ولله الأمر من قبل ومن بعدُ..

2 - هو ما يُعبَّر عنه بالمزابية "أَحُولِي"، أما هذه فلا أثر لها لأن الحولي استغنى عنه العزَّابة حاليا، ولم يبقى إلا في بعض قرى مزاب، وقد يُلبس في المناسبات كالأعياد والجُمع مثلا.

3 - في التنظيمات العرفية المستحدثة، وإشفاقًا على المسلمين صارت مثل هذه الأوقاف تُقوّم وتُدفع نقدًا.

وهناك من العائلات وإذا قُلنا العائلة فنحن نقصد عددا من العائلات التي تحمل اسما واحدًا، وهؤلاء بوصية من جدهم يهيئون عشاءً لكل طلبة المساجد من عزَّابة وإِرْوَانْ في موسم من المواسم، وعلى سبيل المثال أذكر أربع عائلات في العطف، فـ"آل الحاج امحمد"[1] يصنعون فُطورًا وسُحورًا في ليلة السابع عشر من شهر رمضان المعظم، يدعون إليهما طلبة المسجدين سواء كانوا من "العزَّابة" أو "إِرْوَانْ" ومعلمي المدارس الثلاث، ويفوق عدد المدعوين المائة يُفطرون عند المغرب أو يتسحرون في السهرة.

أما "آل الحاج إبراهيم" فيصنعون عشاء أو غداء في منتصف شعبان لكل الطلبة كسابقيهم، وأما "آل الحاج إسماعيل" فيصنعون عشاء ليلة عاشوراء[2]، أما "آل ابن أيوب" فيصنعون طعاما للطلبة يوم عيد الفطر ويوم عيد النحر، ويأكل معهم كل من حضر من الناس وليست هناك دعوة رسمية إليه وذلك بعد أن يخرجوا من المسجد مباشرة، فإذا دخلوا إلى الدار التي يوجد فيها مصلى جدهم الشيخ "أحمد بن موسى، ابن أيوب"[3] يقرؤون سورة المُلك على روحه ثم يأكلون الطعام ثم ينصرفون بعد الدعاء، وكل ما ذكرنا من هذه العشاءات هي وصايا يتوارثها الخلف عن السلف، ولا علاقة للمسجد في تسييرها إلا دور المُشرف، حيث أن أعضاء الحلقة هم على رأس قائمة المدعوين، وهناك وقف آخر في العطف هو لـ"آل حاجو"[4] فإنهم يصنعون طعامًا في يوم معروف من أيام السنة وهي الجمعة الرابعة من مقابر الشتاء، فيدعون العزَّابة للغداء ويحضرون لهم الطعام مهيأً والمقادير المقررة من السمن واللحم، فيخلطه العزَّابة بأيديهم ويبعثون قصعًا كبيرة تحمل على

1 - من عشيرة "آت الحُجَّاج" إحدى أكبر العشائر تِعدادًا بالعطف، وما تزال هذه العادة قائمة إلى تاريخ اليوم.

2 - "آت الحاج اسماعيل"، و"آت الحاج امحمد"، و"آت الحاج إبراهيم"، أصلهم واحد هو عرش "آت الحُجَّاج".

3 - وهو: الشهير بـ"الشيخ المِيغَر" (حي في 1562م)، عالم ورع حارب الفتن والبِدع، وداره التي تُزار كانت مدرسته.

4 - هذه العائلة من عشيرة "آتْ لَمْخَارَجْ".

ظهور الدواب إلى مصلى المقبرة لتوزع هناك، ويأكلون الغداء مع من حضر معهم من الناس، وإذا خرجوا حضر سائر الناس وأكلوا الغداء ويحضره كثير من الفقراء.

ولو ذهبنا نعدد هذه الأنواع من الوصايا المُعلّقة بالدُّور لطال بنا السّرد، وهناك كذلك أدوات للطبخ كالمَراجِل والقِصَعِ الكبار والقدور الرَّاسيات[1] وأدوات المناسج وخيام الأعراس وما إلى ذلك مما ينتفع به الناس، ويردونها لأهل الموصي حتى يجدوها في يوم آخر إذا احتاجوا إليها، وهذا كله لا يُعدُّ شيئا بالنسبة للأوقاف أو الوصايا المسجلة في "كُراس العزَّابة" كما تقدم ذكره، ونحن إذا تصفحنا هذا الكراس وجدنا مثلا: "أوصى فلان بن فلان بعشرين قِربة ماء عذب تُسقى في الصيف للمسجد العتيق بالعطف وعلقها في داره الكائنة في الشارع الفلاني التي دخلت ملكه بالشراء من فلان أو بالإرث من والديه..".

وهذه الوصايا فيها أقسام منها:

أ- الماء الذي يهيأ للمساجد، وأغلبها للصيف أو لرمضان.

ب- ما كان من الزيت للاستصباح، وأغلبه في المولد ورمضان.

ج- قمح أو شعير وهو يُعلّق في أرض حِرَاثِيةٍ، يؤدَّى الوقف إذا حُرثت فقط.

د- قمح أو شعير وهو يُعلّق في أرض حِرَاثِيةٍ، يؤدَّى الوقف ولو لم تحرث.

هـ- ما يصنع طعاما بالسُمن واللحم في بعض ليالي رمضان وفي المقابر، وهذا من أكثرها كمية، وسيأتي الكلام عليه بشيء من التفصيل عند ذكر المقابر.

و- ما كان من الخبز أو التمر لهذه المقابر.

وكل هذه الأوقاف لا تزال مستمرة ـ والحمد لله ـ وليس هناك قوة تقهر الناس لأدائها، بل يكفي أن يُعلَن عن المناسبة في المسجد حتى يستجيب الناس.

[1] - وهو ما يُعبر عنها بالمزابية بـ"إمنَّاسَن".

وقد جرى العُرف أن الدار التي يَتعلق بها وقفٌ أو وصيةٌ تنقصُ قيمتها في السوق، وقد ابتكر المسؤولون عند إدارة تسجيل الأملاك العقارية بعد انتقالها للملكية جديدة قاعدة لطرح قيمة الوصية المعلقة في دار مَّا، بتقييم هذه الكمية الموصى بها ـ فهي دوما تُذكر في عقود البيع ـ ثم إذا توصل إلى قيمة هذا الوقف ضربه في خمسة وعشرين مرة فتجمّع الحاصل ويطرحه من القيمة المذكورة لهذا المُلك لئلا يغبن صاحبه في دفع الضريبة المستخلصة لدى التسجيل، وهذا الاستطراد وإن كان ليس من موضوعنا ولكنه مفيد فيما أرى للقارئ حتى يستكمل نظرته في هذه الوصايا، في الحقيقة في تسميتها بالأوقاف يعد تَجوُّزا، ففيها جانب من الغرر مما لا يجوز، وقبل أن ننهي البحث في الوصايا لابد أن نتحدث عن المقابر.

المقـــابر ومجالسُها القرآنية

تنعقد في جميع القُرى مجالس لتلاوة القرآن كل يوم جمعة من كل أسبوع في فصل الشتاء، ولا نعلم على وجه التحقيق ما هي الأسباب الحقيقية التي جعلتهم يختارون فصل الشتاء لتسيير هذه الصدقات وتلاوة القرآن، ولكننا نظن أنهم اختاروا فصل الشتاء لسببين.

أ- إن الفقير تشتد حاجته إلى الطعام في الشتاء أكثر لأنه يشكوا الجـــوع والـــبرد، والشتاء دائما أقسى على الفقراء من الصيف، حتى قال المثل العامي عندنا بالبربرية "رَبَّ أَدِرْحَمْ الصِّيفْ سَتْغُورْدَمَسْ" أي "رحم الله الصيف بعقاربه".

ب- إن الفلاحة التي هي معظم شغل الرجال سيما الطلبة والعزَّابة لا تحتاج إلى السِّقاية دائما في الشتاء مما لا يمكن في أن يتخلوا عنه في فصل الصيف، ولذلك فإن تخلفهم عن الساقية في يومٍ لا يضرُّ فلاحتهم في الشتاء كما قد يضر بها في الصيف.

وليست كل القرى على وتيرة واحدة في عدد الأسابيع التي يتنقل فيها الطلبة بين هذه المقابر، ففي غرداية والعطف 12 جُمعة في مختلف المقابر[1]، وفي مْلِيكَه 7 وفي بُنورَه 7، وفي بني يسجن 8، وفي القرارة مقبرتان، وفي بريان كذلك جُمعتان، ومجمل ما يقع في هذه الجُمع هو أن يُعلَن قبلها بأسبوع ليهيئ الناس أنفسهم لإعداد الطعام أو الخبز، وفي صبيحة الجمعة المعلن عنها يذهب الطلبة إلى مصلى المقبرة المذكورة ويفتتحون حلقتين أو ثلاث حلق، تبتدئ إحداهما من سورة البقرة، والثانية من سورة مريم، ويبقى المجال مفتوحا لكل من أراد أن يلتحق بالمجلس، فإذا قرءوا ثلاثة أحزاب أُغلق الباب وهذا لضبط الوقت[2]، وبينما المجالس تتلو القرآن يكون الوكيل قد سجل جميع الأفراد الذي أدّوا أوقافهم بعد أن ينظر إلى مطابقة الشيء الذي قُدِّم بما هو مسجل في الدفتر الذي عنده، ثم يقوم العاملون فيجمعون الطعام كله في جِفانٍ كبيرة ثم يوزعونه على الحاضرين ولكن بنِسبٍ متفاوتة، فيأخذ من في المجلس حصة كاملة من الطعام، ويأخذ من خارج المجلس ثُلث حصة الحاضرين في المجلس، أما اللحم فهو خاص لمن في مجلس التلاوة، وأما الخبز فيوزع مثل الطعام ثلث الحصة لمن في خارج المجلس.

وأغلب من في المجلس يشترط عليهم أن يكونوا من عُمار المسجد في أثناء السنة، وممن يواظب على حضور مجالس التلاوة الدائمة في العِشاء والإبكار، ويلتزم من يحضر هذه المجالس بالسِّمتِ الحسن وهو الهيئة الحسنة، واللباس الأبيض النظيف من أُولى مقومات السِّمتِ الحسن، وإذا كان من أعضاء الحلقة وجب عليه أن يلبس "الحائك" وهو رداء خفيف من الصوف ويصنع في بلدة غْرِيسْ قرب مُعسكر

[1] - اختُصرت مقابر العطف من 12 إلى 7 وأدمج بعضها في بعض، وهذا "لكثرة العدد وقلة المدد" كما قال أحد الطلبة، أي لكثرة المقابر وقلة ما يصل إليها من الأوقاف.

[2] - ليس المقصود هنا بالباب ما نعرفه، ولكن المُراد هو أنه مُنع الدخول إلى مجلس الذكر لأن الوقت قد فاته بكثير، ومعظم من يأتي متأخرا فهو يريد الكسكس واللحم فقط، وبما أنه لم يقرأ الكثير، فإنه يجلس خارج الحلقة للسماع.

بالغرب الجزائري، ولذلك سمي "الحايك الَغرِيسِي" وقد يصنع في وادي ميزاب ولكن للباس لا للسوق، تماما مثل "قْنَادَر الَقْيَامْ" التي كانت تصنعها الأمهات للخروج من الحَجبة بعد العرس ـورحم الله ذلك العهدـ[1]...

وكم وددنا والله لو حافظت النساء على هذه الأشياء التي قد تبدو وكأنها من دلائل التخلف ولكنها هي دعامات للأصالة التي نرجو شبابنا أن يبحثوا عنها في تاريخهم المجيد، إن الشجرة التي لم تتمكن جذورها في أرضها لا تستطيع أن تعيش ولو أُغرقت بالماء العذب، ولن تستفيد من الهواء والشمس فهي كلها تتعاون على قتلها ـإذا ما كانت أصولها غير راسخةـ بينما إذا ضربت بجذورها في الأرض فإن الماء والأسمدة والشمس والهواء كلها تتعاون على إمدادها بالقوة والحيوية، وإذًا فلا تفتُّح لغير أصيل!!.

وعلى ذكر السِّمت أو حُسن السِّمت الذي يتمسك به الإباضية والذي يعتبرونه من أكبر مقومات الشخصية والذي يحتقره كثير من شبابنا ـويا للأسفـ ويقولون: "اتق الله والبس ما شئت" و"أن الدين في القلب"..، فنحن نريد أن نُنبه إلى أثر اللباس في وحدة الشعور، فإذا جئت إلى مسجد من المساجد في إحدى المناسبات ورأيت ألف شخص مثلاً كلهم يلبسون جبة بيضاء وطاقية بيضاء في حركة واحدة من القيام والركوع والسجود، ألا تنطق هذه المناظر بدون أي تعليق عليها أن هناك بين هؤلاء الناس وحدة شعور لا يمكن أن تجدها في مجمع تختلف فيه صور الأشخاص تبعا لاختلاف لباسهم؟!! ثم إن مَن يرفض لباسا معروفا لقوم ألا يدل هذا الرفض نفسيا على خوفه من الانتماء إلى أولئك القوم؟!!.

ربما تَجوزنا لإنسان دخل أوروبا وأراد أن لا يثير الاهتمام حوله بلباس مغاير لهم، ولكن مالنا ونحن في بلدنا ووطننا ونحن مستقلون؟!!.. وقد يقول قائل:

[1] - هذا قديمًا أما اليوم فلا وجود للحائك الصوفي الخاص بالغرابة في بلدة تجنينت..

إنه لباس العمل، وهذا القول على ما فيه قد نُسلِّمُ به جدلا، ولكن ما لنا إذن لا نلبس لباسنا القومي يوم الجمعة، فاللهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون.

ونريد أن ننبه إلى نكتة تتعلق بكيفية صنع الطعام الذي يوزع في المقابر، أنه يُفَوَّرُ مرة واحدة فقط _إذا صحَّ هذا التعبير في اللغة العربية_ وذلك ليتمكن الناس من تجفيفه وحفظه لمدة أسابيع، والحصة التي يأخذها الشخص قد تكفيه لمدة أسبوع، ومن هنا يظهر أن المقصود هو تخفيف وطأة الفقر على الناس، ونزيد كلمة وجيزة عن مقابر الصيف والخريف، فهناك أربع مقابر في الصيف وهذه تختلف عن مقابر الشتاء، فإنها تكون بعد عصر يوم الجمعة يجتمع الناس في المقبرة المعلن عنها فيقرأ كل شخص على حِدا حزبين من القرآن، ثم يجتمع كل الذين قرءوا ومن حضر من الطلبة فيختمون الحزبين الأخيرين من القران بتلاوة جماعية، وبعد الدعاء يوزعون الصدقات التي يأتي بها الناس وليس فيها من الوصايا شيء يذكر مثل مقابر الشتاء، وكذلك الحال في مقابر الخريف، ويغلب أن تكون الصدقات بِطِّيخا أو تمرا رَطبًا أو خبزا، وليس فيها من الطعام إلا الشيء القليل، والمقبرة الأولى من الصيف تكون في المسجد الجامع في البلد، أما الجُمع الأخرى وهي بالنسبة للعطف أربع في الصيف وأربع في الخريف فتكون عَشِيَّةً في المقبرة، وإذا قارنا بين مقابر الشتاء والصيف والخريف والوقت الذي اختير لها نتساءل لماذا لم تكن هناك مقابر في الربيع؟!! والجواب كما يبدو لنا أن مراعاة العامل الفلاحي هو السبب، لأن الناس الذين مارسوا الفلاحة يعلمون جيدا أن الواحة تتطلب من الأعمال في الربيع أكثر من الصيف والخريف، وذلك لأن الربيع فيه التَّأبير بالنسبة للنخيل، وفيه تنقيل وغراسة الأشجار وشتل البقول، وفيها الحصاد والدَّرس بالنسبة للقمح والشعير، وفيها سقاية الزرع الذي يجب أن لا تنقطع في شهر مارس على الأخص، أما في

الصيف والخريف فإن الناس يسكنون[1]، وغالبا ما يكونون في العشايا مستريحين وقد أتموا سقاية غراسهم لأن النهار طويل، فبإمكانهم أن يشاركوا في تلاوة القرآن عشية واحدة من كل أسبوع، وكل هذا يؤكد لنا الترابط الموجود بين هذه التقاليد أو العادات أو القوانين وتلاؤمها مع حاجيات الناس وضروراتهم، وإذا ما استطاعت أُمة أو مجموعة من الناس أن تكيف عوامل الطبيعية والزمن وواءمت بينها على حسب حاجيتها فهي مجموعة متحضرة وإن كانت تلبس الخشن وتعيش في البساطة، وإننا لفخورون بالانتساب إلى هذه المجموعة الحضارية اِعتِزازنا بالانتماء جسما وروحا إلى الدين الإسلامي الذي صاغ أساليبها.

النهي عن المنكر

هي مُظاهرة يقوم بها مجلس العزَّابة مرة كل سنة قبل الشروع في تسيير القابر أو التلاوة القرآنية كل أسبوع، وذلك أن العزَّابة إذا قرروا الشروع أعلنوا عن هذه المظاهرة وأنها ستقع بعد صلاة الفجر من يوم السبت، ولا أعلم على وجه التحقيق لماذا اختاروا هذا اليوم بالذات، وسأقص تفاصيل هذه المظاهرة بالنسبة للعطف التي حضرتها عشرات المرات وإن كانت العادة موجودة بالنسبة لكل القرى باستثناء القرارة فقد ألغيت فيها منذ عشرات السنين لاعتبارات سنبينها فيما بعد، يتحرك الموكب من المسجد العتيق يتقدمهم العزَّابة المؤذنون ويترلون حتى "زقاق الحُوش" فيقف الناس والكل يردد بعد العزَّابة "نَنْهَى عن المُنكر" ويتقدم العزَّابة إلى "باب تَرْزُوفْ" ثم يعودون على طريقهم إلى المكان الذي تركوا فيه الموكب وهم في كل ذلك لا يفترون عن المناداة بهذه الكلمات والعامة من بعدهم تُردد، فيسيرون إلى السوق الداخلي والخارجي إلى الباب الكبير ثم يعودون ويصعدون مع "اَلْعَـقْبَه" وهي الشارع الرئيسي حتى يصلوا مسجد أبي سالم، وهناك يجتمع كل

[1] - أي: ينتقلون من البلدة إلى الواحة، فيكونون قرب فلاحتهم، يقومون عليها متى شاءوا.

الناس وتلقى عليهم الكلمة أو الدرس التوجيهي فيما يتعلق بأداء هذه الوصايا، ويُرشدوا إلى استيفاء الكيل وإلى اختيار الجيد من السمن واللحم، وأن المنفذ والموصي مأجوران عند الله على حسب نيتهما، إلى غير ذلك[1]..

وقد كانوا قبل الاحتلال يطبعون الموازين والمكاييل في المسجد على يد أحد الأُمناء، وآخر من عُهد إليه هذا العمل هو المرحوم الحاج إبراهيم بن بكلي وهو من آل بكلي في العطف، ولا تزال هذه المكاييل مستعملة في تنفيذ الأوقاف، وهي المُد القديم، والحِشْيَة، ولكل منهما اسم بالمزابية فالمُد يقال له "أَعْيَارْ" والحِشْيَة وهي اثنا عشر مُدًّا قد كانت تُسمى "تِحْلِي"، وأما كيل السوائل فهو مصنوع من فخَّارٍ تسمى "تَجَدُّوِيْتْ" ويعبرون عنها باللغة العربية "النَّقَّاصَة" ولها نصف وربع لا يزال يجري بهما العمل حتى اليوم، والنَّقَّاصَة عبارة عن 2 كيلو سمن إذا سُخِّن سال وسهل كيله، والمهم أنها تُطبَع يعني تُختَبر وتُجعل عليها علامة تبقى فيها مادامت لم تنكسر، ومن بعد ذلك يفترق الناس وتبدأ الاستعدادات لأداء هذه الأوقاف ابتداء من الجمعة المقبلة، وترتيب المقابر معروف بالبداهة لدى الجميع فإذا أُعلن موعد الابتداء فإن الناس يعلم كل منهم على وجه التحديد مقبرة أجداده فيستعد لها، وهناك من ينتقل من الجزائر أو من غيرها من مدن التل ليُحضِّر عشاء والديه كما يعبرون عنه هنا، ويغلب أن تكون العائلة كلها تُدفن في مقبرة واحدة، وإن كانت لا تختص بعشيرة واحدة، يعني أن هناك مقابر معروفة لعشائر ولكن هذا لا يمنع بحال من الأحوال أن يمنع ميتًا من غير تلك العشيرة من أن يدفن فيها.

---

[1] - تجدر الإشارة إلى أن هذه العادة الحسنة قد توقفت للأسف الشديد وذلك عقب الأزمة الأمنية في الجزائر مطلع التسعينيات أين مُنع التجمهر من دون رخص، ولو علم الناس اليوم ما في هذه التظاهرة من خير لطالبوا بإرجاعها، وقد حضرتها مرّة قبل إلغائها، وعلمت أن فرائس المنحرفين ترتعد في مضاجعها وهي تسمع دوي صوت المسلمين وهم يرددون معًا "تَنْهَى عن المُنكَر"، فكانت سببًا في استقامة الكثيرين منهم وعودتهم إلى طريق الحق وإلى الجماعة.

وهناك مقابر معروفة للغُرباء[1] وفي العطف تُعقد في إحدى الجُمع تلاوة بأوقافها وصدقاتها وكل ما يجرى في المقابر الأخرى في مصلى مقام الشيخ "أبي عبد الله محمد بن بكر" وليس فيه أي قبر كما هو معلوم، ولكن أغلب الصدقات التي فيها هي عن الموتى الذين ماتوا غائبين، ويُسميه الناس "سيدي امحمد الغريب"[2].

وتمتاز هذه المقبرة بكثرة الصدقات فيها، حتى إنه يجوز للأبناء الذين قرأوا إلى سورة الملك أن يدخلوا مجالس التلاوة، بينما لا يُرخص لهم في جميع المقابر إلا إذا بلغوا سورة الرحمن، وإن مقبرة الشيخ "أمي امْحمد" أو "عمي امْحمد" هي أُمنية كل أُمٍّ يعز عليها ولدها وتتمنى أن تراه حافظا للقرآن، حريصا على حضور مجالس القرآن في المسجد والمقبرة على السواء.

ولعل أوائلنا ــ رحمهم الله ــ ميَّزوا هذه المقبرة بهذه الخصوصية، لأن الشيخ أبا عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النَّفُوسي وهو مؤسس حلقة العزَّابة، وهو أول من نشر المذهب الإباضي في العطف، على رأي من يقول إن آل العطف كانوا مُعتزلةً، فلا يوجد له مقام إلا في العطف، لأنه كما يقال كانت له حلقة من الطلبة يُدرِّسهم في ذلك المكان مدة ثلاثة أشهر من كل سنة ثم ينتقل إلى وادي أريغ ووارجلان، ولنعد إلى موضوع النهي عن المنكر ولنتساءل لماذا يفعلون هذا ولماذا يختارون أن تكون المظاهرة قبل بدء المقابر؟! لقد سألنا فقال لنا المشايخ إنهم بذلك يبرِّءُون إلى الله عن كل منكر يقع في الخفاء مما لا يعلمونه، وبذلك يستطيعون أن يطمئنوا الى ما يقدمه لهم الناس من الصدقات، فربما هناك من جمع المال من غير حِلِّه ثم ينفقه على الفقراء فيتقبلونه وهم لا يعلمون شرعية مصدره، فربما كان سُحتًا فهم يفعلون ذلك ليُعذروا إلى الله، وقد ناقش الشيخ بيُّوض ــ حفظه الله ــ

---

[1] - تسمى بالمزابية "أَلْمَكْبَرَةْ نْ إِغْرِيَنْ"، والعادة في مزاب أن تبدل القاف كافًا مرققة في نطق هذه الكلمة بالذات.

[2] - هذه التسمية يطلقها عليه غير الإباضية، ويتبركون عنده فيوقدون الشُّموع مثلما يفعلون بضريح الشيخ أُمّي ابراهيم.

النظرية حين قرر إلغاء هذه المظاهرة في القرارة بأن النهي عن المنكر يجب علينا في كل وقت رأينا فيه منكرًا بل قد يجب علينا تغييره بأيدينا كلما استوجب منكر ذلك وكنا قادرين، هذا فيما عَلمناه أما فيما لا نعلمه مما يقع في الزوايا فالله سبحانه أرأف من أن يكلفنا فوق طاقتنا، فيجب علينا أن نغير المنكر إذا وقع ولا علينا بعد ذلك، ولذلك استمر عزَّابة المسجد في القرارة يغيرون المنكر إذا ظهر ويذهبون إلى المكان الذي ثبت أن به منكرا في مظاهرة تشبه تلك التي ذكرها آنفًا غير خائفين في الله لومة لائم، رغم ما فسرت به السلطة آنئذ من أن هذا خروج عن قوانين الدولة وإن في هذا الباب لصراعات طويلة طيلة عهد الاستعمار، فقد اعتبروا البراءة أو استعمال سلطة العزَّابة الزجرية أو التنديد بهذه المظاهرة في النهي عن المنكر أمام أي دار يقع فيها كل هذه أمور اعتبرها السلطة العسكرية تدخلا صريحا وتعارضا للسلطة، وآخر موقف للسلطة عِشناه هو محاكمة عزَّابة بريان بمحكمة الإجرام في البُليدة لأنهم عزروا رجلاً أُتُّهِم بفاحشةٍ وَأَقَرَّ واعترف ثم تاب أمام الناس في المسجد[1]، ولعلنا سنتعرض للحادثة بكل تفاصيلها في رسالة عن موقف العزَّابة طيلة الاحتلال بحول الله، ونحن نرى أن بقاء هذه العادة الحسنة يُشعر الناس والعزَّابة معا أنه من الممكن أن يقوموا بمثل هذه المظاهرة إذا ما احتيج إليها في ردع المفاسد الاجتماعية، أما أن تكون لها فعالية ما دامت عملاً شكليا أو روتينيا كما يقال الآن فلا جدوى فيها، فهناك كثير من التحديات التي قد يتوجب فيها على العزَّابة أن ينددوا ولكنهم يكتفون ببعض الدروس في المساجد أو في بعض الجنائز، ونحن لا نلومهم على هذا فشيء قليل خير من لا شيء، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

[1] - لقد وقع هذا في سنة 1951م.

هذا ما تيسر ذكره في هذا الموضوع الواسع ولست أدعي أنني أتيت على كل ما يجب أن يقال فيه، وهو يستحق دراسة وافيه ضافية، ولعل الله يَمُنُّ علينا فيقوم أحد أبنائنا الشبان الجامعيين فيكتبون فيه دراسات منهجية في هذا الموضوع، وإنه لشائق مادامت لنا مراجع من بعض مشائخنا الذين قد يوضحون ما قد نجده مشكلا فيما كُتب، وننبه إلى أن جميع العقود التي تسجل أو مكاتب التوثيق تذكر ما تعلق بالملك من الوقف أو الوصية على أصح تعبير.

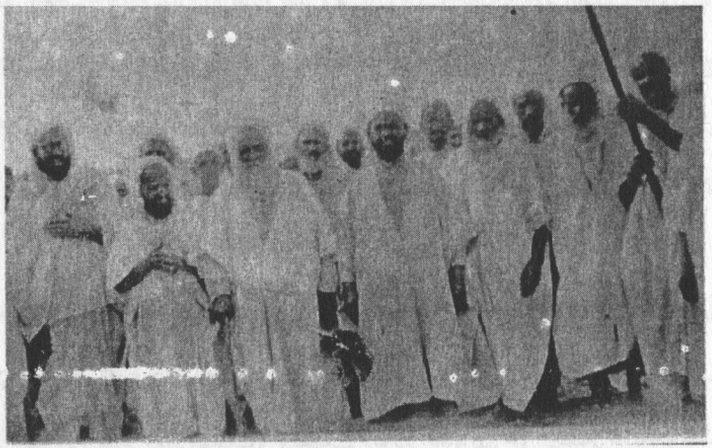



صورتين نادرتين لوفد من حجاج بيت الله الحرام يغادرون البلدة

السُّوق وتقـاليده

يحتل السوق مركزا ممتازا في كل بلدة من بلدان ميزاب من حيث الروعة المعمارية ومن حيث أنه مركز ثقل في القرية، ففيه توجد محلات أو "حُجْـرَات"[1] العشائر وفيها يلتقي الرجال، إما للأعمال التجارية وإما للمراقبة، وبجمل القول أنه مركز ممتاز في جميع الشؤون الدُّنيوية للبلد، فكما أنه من واجب المؤمن أن يحضـر الصلوات الخمس في المساجد فكذلك من واجبه حسب عُرف ميزاب أن يأخـذ مكانه بعد العصر في السوق، هذا هو العرف الذي جرى به العمل حتى الستينيات، وبعد أن استقلت الجزائر حيث شهد المجتمع تحولات جذرية سـيما مـن حيـث الاقتصاد، نرى أن هذه التحولات قد أثرت كثيرا في مركز السوق، ولكن هذا لا يمنعنا أن نذكر بعض ما نحفظه من هذه التقاليد فقد تفيد أجيالنا الصـاعدة كمـا نعتقد..

ولم تكن الدكاكين التجارية موجودة في القديم مثل ما هـي عليـه الآن، فالمواصلات التي تتوفر الآن والطرق المعبدة والمواصلات السلكية واللاسـلكية لم تصل ميزاب إلا منذ الثلاثينيات، ولذلك كان السوق هو مجمع البيع والشـراء في كل يوم وفي كل قرية، المنتوجات الصوفية كانت تبـاع في الأسـواق وكـذلك الدواب والأنعام، وكل التَّركات، وكل ما يأتي به البَدوُ الرُّحَّل من حطـب وبُـرٍّ وشعير وأصوافٍ وألبانٍ وسمنٍ كل هذا كان يوجد في السوق دوما، وإذا لم يوجد في السوق وُجد عند أحد السكان الذين قد يدَّخرون مادة من المواد لوقت الحاجة، ولذلك شُرعت له قوانين أو أعراف أجمع عليها الناس وعملوا بمقتضاها في أغلـب الأحيان، ومنها:

[1] - هي مكتب العشيرة يجتمع فيها أعضائها كل عشيَّةٍ تقريبًا، ولم يبقى أثرها الفعال إلا في بني يسجن، وتنطقُ مُرَقَّقَةً.

يشرف العزَّابة على افتتاحه، وللعزَّابة "دُكَّانٌ" خاص يجلسون فيه، والدكان ليس هو حانوت كما قد يتبادر لذهن القارئ ولكنه مصطبةٌ مرتفعةٌ قلـيلا عـن الأرض تسمى بـ"دُكَّانِ العزَّابَة" فإذا جلسوا في مكانهم قـام "العـون الشـرعي للمحكمة" أو "خادم العزَّابة" فينادي: "اللهُ يَلْعَنَكْ يَا ابْلِيسْ، مَنْ بَاعْ يَرْبَحْ أُو مَـنْ شْرَا يَرْبَحْ أُو مَنْ صَلَّى عْلَى النْبِي يَرْبَحْ"، ثم يتتابع "الدَّلاَّلُون" ابتداء من العزَّابـة ثم يطوفون بكل الجالسين في السوق وهم يُنادون بسعر السلعة التي بأيديهم وهـو في تلك الحال يُنادي بمن أعطاه السعر الأول، وإن لم يكن قد ساومه أحد دار علـى السوق وهو يقول: "اعْلَى بَابْ اللهْ" ومعنى هذا أن الشيء لازال بدون سِعر، فـإذا أعطاه أحد الحاضرين سعرًا نادى به، فإذا زاده الثاني في السعر اتجه من بعيد للأول وهو ينادي بالسعر، فإن أراد الأول أن يزيد حرك رأسـه ثم يلتفـت إلى الآخـر مادامت الزيادة مستمرةً، فإذا توقف أحدهما زاد هو دورانه على السـوق حـتى يستقر السعر النهائي، فإذا استقر مَكَّن ذلك الشيء لمن استقر عنـده السـعر، ثم يذهب ليستشير مالك الشيء، فإن أعجبه السعر واقتنع باع وإن لم يقتنع طلب رد المَبيع، وقد يطلب سعرا أغلى وقد يرد له المَبيع، فالخيار دائما للبائع في كل ما يبيع بالدلالة.

ويأخذ الدَّلاَّلُ أجرة له عشرة في المائة من ثمن المبيع وهو أمر معروف، أما إذا رد المبيع فإنه يأخذ نصف هذه النسبة، ويأخذها من البائع دائما، ولعل هـذه النسبة أقل في بعض القرى مما ذكرت، وقد تكون النسبة بحسب المبيع، فلا يمكـن مثلا في دلالة الدَّار أن يأخذ عشرة في المائة كما في البَرْنُوس، وحيث أن السـوق يبتدئ الدَّلالُ فيه من العزَّابة فقد كانوا دائما يسومون المَبيع وُجوبًا، ولكن أحـد المشايخ أبطل هذه العادة وقال لهم: لا يجوز أن يساومها إلا مـن كـان يقصـد شراءها، أما أن يسوم وهو لا ينوي الشراء فلا، وفي بعض الأسواق تستط الزيادة

الأخيرة من السعر، فالسعر الحقيقي للمبيع هو ما انتهى إليه المبيع قبل الزيادة الأخيرة التي زادها المشتري الأخير، وهناك من لا يُسقط هذه الزيادة لأنه يعتبر أن تلك الزيادة هي التي رجحت البيعة له، ولكل واحد من الطرفين وجهة نظر، وإذا كان في المَبيع عيب قال الدلال على ما فيه..، وهنا ينتبه المشتري فيَحذَر أو يشتري متعمدًا، وإذا كان البائع محتاجا إلى دراهمه حاضرة نَبَّه الدَّلاَّل إلى هذا بقوله أثناء الدلالة مثلا: "بَيع تَرِيكَه لا رْجُوع للدلال، الَعْشَاء مَنُّو" وهذا بالطبع قد يحط من سعر المَبيع إلا أن دراهمه حاضرة، وقد يسأل المشتري الدَّلاَّل هل في المَبيع عيب فيقول له: "أَشْرِ مَا شَافَتْ عِينَكْ"، وأما الدلال فهو رجل مُختار ولابد أن يكون مقبولا من طرف العزَّابة ويشترطون عليه أن يكون له "ضَمِين" يصرح بضمانٍ لدى العزَّابة حتى يضع الناس عنده مبيعاتهم، كما أن له دفترًا يسجل فيه اسم كل بائع واسم المشتري والعدد الذي بِيع به المَبيع، واسم الشيء الذي بيع، وبهذا يتمكن الأمين من مراقبته، والأمين رجل عاقل حافظ للأعراف والقوانين مُعيَّن من طرف العزَّابة أو من جماعة "الَمْقَادِيمْ"[1] ولكنه مقبول ومُزكًّى من طرف العزَّابة، وعمله ينحصر في مراقبة السوق والدَّلالين وفَظّ أي نزاعٍ بين متخاصمين، لأنه يحفظ الأعراف التي يحكم بها، وعدد الدَّلاَّلين مَحصور ولا يستطيع أحد أن يدخل في زُمرتهم إلا بموافقة العزَّابة، ولكل واحد منهم "ضَمِينٌ" كما تقدم، ومن الواجبات العامة التي تتصل بالدَّلاَّلين أن ينظِّفوا السوق مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل، وهم بعد ذلك أحرارٌ في اختيار كيفية التنظيف، ففي بعض الأوقات يعملون معا وفي بعض الأوقات يكلفون أحدهم ليقوم بالعمل بعد أن يتفقوا معه على الأجرة، وإذا ما وقع بين أحدهم وأحد المشترين أو البائعين مُشكل فإن "أمين السوق" هو الذي يفضُّ المشاكل ويراقب دفاترهم، فقد يكون أحدهم باع سلعة

[1] - هم رؤساء العشائر التي تتكون منها البلدة.

بمبلغ وكتب في دفتره أقل، وطبعا سيدفع لصاحب السلعة المذكورة، وتدخُّل الأمين هو أن يبحث المشتري ليتأكد من الثمن الذي دفع، وهذه قضايا من الطبيعي أن تقع ولكنها إن تكررت منع مرتكبها من العمل وأُلزم "الضَّامَنْ" بتسديد العدد المختلس إمَّا من جيبه وإما من جيب الدَّلاَّل وهذا يقع ولكنه قليل.

وتختلف القرى في أيام انعقاد الأسواق وذلك تبعا لأهمية السوق وإن كانت أغلبها تختار العَشِيَّة، فمدينة غرداية ينعقد فيه سوق الدلالة صباحًا، وللنساء فيه زِقاقٌ بجانب السوق يقعدن فيه ويشاركن في الشراء، ويمر الدَّلاَّل أمامهن كما مر أمام الرجال، وهذان أمران يمتاز بهما سوق غرداية لأهميته، وأما سوق بني يسجن فينعقد كل يوم ما عدا الجمعة، ووقته بعد العصر، أما العطف وبنوره ومْلِكَية فينعقد مرتين في الأسبوع، وهذه القُرى الثلاث أسواقها قليلة الأهمية وذلك نظرا لسهولة المواصلات واستقطاب سوق غرداية لجميع المُشترين، وهناك أسباب أخرى ثانوية لا مجال لذكرها هنا.



"الدْلاَلَه" في سوق "لاَلَّة عَشُّو" بـ"بَنِي يَزْجَنْ" عقب صلاة العصر من كل يوم، أما "لاَلَّة عَشُّو" فهي المرأة التي تبرعت بهذه القطعة من الأرض وبئرها، وحُوّلت إلى سوق.

بقيت هناك بعض نقط تتعلق بالسوق، بل بتاريخه في الماضي لا بأس بذكرها إفادة للقارئ الكريم، منها: الزيادة حق لكل المواطنين الحاضرين أو الأجانب، ولكن من أُعلنت عليه البراءة لا تُقبل زيادته في السوق ولا دلالته وإن كان دَلَّالاً حتى يتوب، كما سيأتي الحديث عن البراءة والحكم.

لا يجلس في السوق غير المتزوجين، ولابد بلبس البرنوس وليس معنى هذا أنه يُطرد، ولكن يُرى بعين النقص سيما من طرف عشيرته، وربما وَبَّخوه من أجل هذه السلعة التي تدخل السوق من الخارج كالحطب واللبن والزبدة والصوف، وكل ما يأتي به البدو الرُّحل هي مِلك للجميع ولا حق لأحد أن يشتري بالجملة حتى تمضي مدة معقولة، وبعد أن يأخذ أصحاب التقسيط ما يريدون كل على حسب قدرته، ولا يسمح لتاجر مثلا أن يحتكر سلعة دخلت السوق قبل أن ينتهي أصحاب التفصيل[1].

إذا دَخلَت مثلا شِكوةٌ واحدة من لَبنٍ فلكل من حضر السوق أن يقتسم مع الحاضرين ولو كانوا عشرة، سيما إذا كان ذلك "فَالاً" يعني في أول ظهور اللبن في السوق، وكل هذه القوانين أو الأعراف جُعلت للضرب على أيد المحتكرين كما هو ظاهر.

الحطب أر ـالوَقِيدْـ وهو بَعرُ الجمال كان قديما من أحسن أنواع الوقود، الذي يتبقى بعد فراغ السوق هو مباح، والمباح لمن سبق إليه، لا يجوز لحاكم البلدة أو للأمين أو الدَّلاَّلِين أن يأخذوه لأنفسهم، وهذا أمر قد يبدو تافهًا ولكن له مدلُولُهُ.

[1] - هذه الصورة من أنصع المعاملات العادلة في الإسلام، وكأننا على عهد الصحابة أو الدولة الرُّستمية في تاهرت، وإن منع تلقي الركبان أو بيع بادٍ لحاضر من صميم الشرع الإسلامي الحنيف.

اَلْحُجْرَات[1]: كان من عادة الأجداد أن يجعلوا قرب السوق حجرات مسقفة بقبة مربعة، فلا باب لها إلى السطح الأعلى وهي تنفع لتخزين المواد الغذائية ولضمان أسرارهم، فلقد كان الناس دائما في أحوال تتقلب من حيث الجدب والرخاء، وقد تمر السنوات عجافا إذا تتابع القحط سيما والقحط في القديم يؤثر على الوسيلة الوحيدة للمواصلات وهي الجمال، فإذا لم تجد ما تأكل فلا تستطيع أن تقطع المسافات الطويلة وهي محملة، فقد تكون بعض سنوات الرخاء في التل ولكن وسائل النقل معدومة، ولذلك رأى أجدادنا ـرحمهم اللهـ أن يجعلوا هذه "الْحُجْرَاتْ" لتخزين المواد الأساسية من الغذاء كالقمح والشعير والصوف والتمر، وكان القادرون يعمِّرون وكذلك الفلاحون كانوا يحرثون ويخزنون منتوجاتهم في هذه الحجرات، ولم يكونوا يُطلعون العائلات على ما في تلك المخازن، فقد تكون فارغة في بعض الفترات، ولكن الرجال كانوا حريصين على حفظ أسرارهم لئلا تفقد العائلات الأمل، ومن المعلوم أن النساء قليلا ما يتحملن الفقد والجدب، على عكس الرجال الذين يمرون بأقسى الأزمات ولكنهم بكتمانهم للسر يطمئنون من ناحية العائلات، وكما كانت هذه عادة متبعة بالنسبة للبلدة عامة كانت كذلك بالنسبة للرجل وعائلته، فقد يفتقر بعد أن كان ذا غنًى ولكنه يُبقي مروءته بمفاتيح الْحُجْرَة، فهو وإن كان يشتري من الحانوت بالمدِّ والصَّاع فهو دائما يُشعر عائلته بأنه قد أتى بالمؤونة من الْحُجْرَة، وإذا كانت حجرته ملئ فهو كذلك يأتي معه بمقادير مناسبة لئلا تُسرف العائلة في النفقة، والاقتصاد في النفقة نصف العيش، ولا تزال هذه الْحُجَرُ موجودة ولا تزال الفكرة التي تدعو إلى كتمان سر القدرة الشرائية لدى الرجل بالنسبة لعائلته قاعدة ذهبية يعتمد عليها في التصرف كثير من الناس الذين تقلبت بهم الأحوال بين الشدة والرخاء، وبما أن لكل حُجْرَةٍ مفتاحان

[1] - سبق التعريف بها منذ قليل، وقلنا تنطق مُرَقَّقَةً.

فإنهما يجمعان برباط من جلد بينهما وقد يحملهما فوق كتفه لأن المفتاحين كبيران، وبناء على كل هذا فإنه لا يجوز للرجل أن يلقي مفاتيح حجرته على كتفـــه إلا إذا كانت ملئ بالمؤونة، فإن فعل فقد قال للناس باللسان الفصيح إنه مستعد لأن يحمل الكَلَّ عن البلدة، فإن اعتذر قيل له: "لقد قطعت السوق ومفاتحك فوق كتفـــك، فيجب عليك اليوم أن تتحمل معنا مؤونة الضيوف" مثلا، فكثيرا ما يترل وفدٌ من إحدى القبائل الرُّحل بقرية من هذه القرى، فواجب الجماعة أن تستضيفهم وتعلف دوابهم، وهذا حق من الحقوق لا مزيَّة فيه للقرية، كما أن أهل القرية لو ذهبوا إلى أي نَزلَةٍ في الصحراء فإنهم يدركون على أهلها الضيافة ولا مزية لهم، وهذه مـــن أعرق العادات في الصحراء كما نقرأ ذلك عن العرب في الجزيرة العربيـــة، فـــإن وجدت الجماعة من بين أعضائها من يقوم بالضيافة فذاك، وإلا فإنهم يستعرضـــون الرجال الذي يلقون المفاتيح على الأكتاف وغالبا ما يكونون عند حسن الظـــن، ومن كانت حُجْرَتُه غير ملئ فليأخذ المفتاحين في يده ولا عليه، وقد سردت هـــذه العادة وكم لها من نظائر في تاريخنا الحافل.

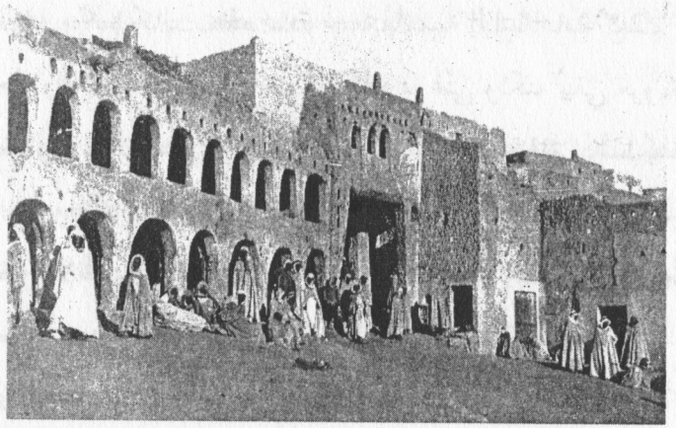

صورة نادرة لسوق "تَجْنِينْتْ" وفيها يظهر الناس بِـــ"البُرنُس" التقليدي وتحت هذه الأقواس التي تحيط بساحة السوق توجد "الحُجْرَاتْ".

وقبل أن نختم الكلام عن السوق وكونه نقطة التقاء للحياة الاقتصادية أزيد كلمة مختصرة عن سوق اللحوم والطريقة التي كانت متبعة إلى سنوات الثورة سيما في القرارة وفي بني يسجن، وفي القرارة على الأخص يُعيِّن أعضاء الحلقة[1] بعض الأُمناء يسمون "العَدَّادِين" وعملهم يتلخص في تنظيم سوق اللحم، بإلغاء كل واسطة بين البَدوِيِّ الذي يسوق غنمه ليبيعها في السوق وبين آباء العائلات، وحيث أن أب العائلة المتوسط الدخل لا يقدر في غالب الأحيان أن يشتري شاة بأكملها، وكما أن البدوي الذي يملك الغنم لا يستطيع أن يبيعها مباشرة بالتفصيل، ابتكر الناس وظيفة العَدَّادِين، يُعلن عن أسماءهم كل سنة، وإذا عُين عدَّاد جديد أُعلن عنه في المسجد وإذا عُزل أحدهم من طرف العزَّابة ـ ولابد أن يكون عن سبب ـ أو اعتَزل بمحض إرادته أُعلن عليه كذلك في المسجد، ولأداء عمله يتقبل طلبات الناس ويسجلها في دفتره على حسب الطلب بترتيب زمني مُحكم وقد تطول قائمته وقد تقصر، ولكنه يبذل مجهوده ليجيب جميع الطلبات، في اليوم المحدد فهناك من يقدم طلبه بأيام قبل الموعد فالسوق لا تستقبل كل يوم بائعي الأغنام، والناس يطلبون شاة لحم أو نصف شاة أو "طَابَـــقْ" وهو عبارة عن ربع الشاة ففي الشاة أربعة "طْوَابَـــقْ"، وهناك من الناس من لا يقدم الطلب ولكنه ينتظر وقت "الدْلاَلَة" ليأخذ ما يريد، وإذا استقرت قائمته دخل سوق الغنم واشترى منها بقدر ما عنده من الطلبات، فإذا كانت قائمته تشتمل على اثني عشر طلبا لطوابـــق، يكون عمله اقتناء ثلاث شياهٍ ويسجل الذي اشترى به في دفتره ثم يبعثها للجزرة، وبعد أن تذبح يأتون بها إلى السوق فتوزع الطوابق على أصحابها، وأما الرأس والجلد والأرجل فتباع "دْلاَلَة" في تلك الصبيحة وكذا "الدَّوَّارَه"[2] وهي

[1] - هي: حلقة العزَّابة.

[2] - هي: الكرش أو المعدة ومعها الأمعاء الغليظة مع شحمها، والرئتين والكبد والقلب، وتسمى أيضا "اَلْغَرْنُوفْ".

ما يحتويه البطن، وكذا "الشَّوَاكِلْ" وبعض أطراف معينة من كل شاة ليس بها عظم وهي من ألذ القطع الموجودة في الغنم، وكلها تُطرح من الشاة وتباع بالدلالة وبالحاضر، فيجمع ما حصل عليه من دلالة الجلد وما في البطن والشَّوَاكِل ثم يطرحه من ثمن الشاة، ويطرح كذلك أجرة الذباحين وأجرته، وهي معينة من طرف المسجد، وبعد ذلك يقسم العدد الباقي على أصحاب الطْوَابَـــق وقد يدفعون شيئا قليلا إذا كانت الشاة سمينة وقد لا يدفعون أي شيء مطلقًا، وأغرب من كل هذا أن بعضهم يأخذ طابقا من اللحم ونصيبًا من الدراهم من فوق هذا، وإن كان الكثير قد لا يصدقونه فهو أمر واقع ومشهور في السنوات التي يكون فيها الربيع مخضرا والصحراء مُعشبة، ولتوضيح الصورة نأخذ مثلا أن أحد "العَدَّادِين" اشترى شاة سمينة وعليها صوف كثيف وكانت بعشرة آلاف فرنك قديمة مثلاً سيما إذا اشترى عددا كبيرا من الشِّياه، فإنه يبيع الرأس والجلد والأرجل بأربعة آلاف، ويبيع "الدَّوَّارَة" مثلا بثلاثة ألاف ويبيع الشواكل بخمسة آلاف فيكون المجموع 12 ألف، ويأخذ ألف فرنك أجرة له وللذابح، وتبقى ألف فرنك يقسمها على أصحاب الطوابق بعد أن يكونوا قد أخذوا اللحم، وهذه الصورة لا تقع إلا نادرًا ولكنها على كل حال صورة واقعية شاهدناها، وقد يأخذون اللحم ولا يدفعون ولا يأخذون، وقد يدفعون ثمنا قليلا وقد يدفعون كثيرا وهذا على حسب ما يباع من أجزاء الشاة، وكل هذه العمليات تسجل حتى يتمكن أمين السوق من أن يراقب إذا ما ارتفعت إليه شكوى، وهذه طريقة من أحسن الطرق ولكن يجب أن تُسند إلى أمناء وحُذَّاق بأساليب البيع والشراء، وأخيرا نرى أن هذه الأسواق أخذت تنقص أهميتها من النواحي العديدة، ولعل أكبر العوامل هي وجود الطرق المعبدة وسهولة المواصلات التي تكون في الغالب لصالح أسواق المدن الكبيرة على حساب المدن الصغيرة، وازدياد عدد الدكاكين في مختلف المواد، وميل الناس إلى

التَّسعيرة المنظمة، ومع كل هذا لا يزال سوق غرداية أروع مثل من حيث العمارة ومن حيث إتباع طريقة الدلالة العمومية والمزايدة العلنية، وسوق بني يسجن وإن كان محافظا على هذه الطريقة ولكنه أقل أهمية من غرداية، وهناك كثير من العوامل لا محل لذكرها بالتفصيل فهي ظاهرة للعيان، منها تناقص الصناعة التقليدية لأنها لا تلقى المكافأة المستحقة من ناحية، وفقدان المواد الأولية من ناحية أخرى، وارتفاع مستوى المعيشة الذي جعل النساء ينسجن لحاجتهن الضرورية والكمالية لا للسوق ومن كانت منهن تعمل مرتزقة فإنها تعمل لطلب قُدِّم إليها من أحد بائعي الزرابي، فيفضلن الربح المحقق المعروف على ما قد ينلنه في السوق الذي قد لا يعطيهن العدد المطلوب، إلى عوامل أخرى اجتماعية، فلم يعد الناس يعتبرون تعمير السوق ضرورة اجتماعية لأن وسائل الإعلام قد نخرت كل البيوت، والشباب توزعهم الأعمال اليومية وميادين الرياضة إلى غير ذلك مما يحدث من تحولات اجتماعية إزاء كل وضع اقتصادي طارئ على مجتمع ما، وبالرغم من زيادة عدد العمال المستقرين في ميزاب وتناقص الهجرة فإن الاستقرار فرض أعمالا يومية يقوم بها الناس بعد إنهائهم العمل الرسمي المقيد، على كل من هناك من القادرين على العمل المضني الشاق[1].

1 - بالنسبة لسوق غرداية فقد تراجع كثيرًا في الآونة الأخيرة، إن لم نقل إنه كاد يتوقف تمامًا بسبب ما ذُكر هنا ولأسباب أخرى عديدة، ولولا توافد السياح على الجنوب الكبير ومنطقة مزاب خاصة، لانتهت الصناعة التقليدية، ثم إن القائمين عليه ما زالوا مقصرين في بعثه وحمايته من الاندثار؛ هذا إذا عرفنا أن السلطة العرفية ليس لها الحق في أن تتدخل في شؤون السوق اليوم والذي صار مكانًا لركن السيارات وللباعة المتجولين والشباب الذي استهوته "قُشور الحضارة الغربية" فأنسته حماية تاريخه وتراثه..، في حين أن الصناعة التقليدية لم يُعنى بها إلا قليل و لم يُروَّج لها مثلما يروّج لغيرها و لم تُحم أساسًا، ونفس الشيء قد عصف بكل أسواق مزاب تقريبًا.

القطـــيع أو "اَلْحَـــرَّاث"

في كل قرية من قرى ميزاب عدد من المَعز بنسبة مَعزَة لكل دار، وحيـــث أنه لا يمكن أن تبقى هذه المعز في داخل الدُّور فقد سنَّ أسلافنا ــ رحمهم الله ــ أن يختاروا راعيا مؤتَمنًا يذهب صباحا بكل معز البلدة ويعود عشية وهذا منذ القديم، ويأخذ الراعي أجرة له في مقابل هذا العمل جملةً من الحقوق، ويظهر أنه كـــان لا يتلقى أجرة مالية بعد أن يستوفي حقوقه المتفق عليها عُرفيًا.

ومن جملة الحقوق التي يأخذها ما يلي:

أ- عُرقُوبًا من كل أُضحية يملك صاحبها معزة في القطيع، ويسمى "كُرَاعْ الرَّاعِي".

ب- كمية تقدر بنصف حِثْيَة من طعام في كل عرس وفي كل مأتم وفي كل مقبرة من مقابر الشتاء، أي من الطعام الذي يُصنع للصدقة في تلك المقبرة.

ج- مُدٌّ من شعير عندما يبشّر أهل الدار بميلاد معزتهم فهو الذي يحمل الجدي إليهم

د- يحلب من كل معزة نصف حليبها في الصيف إذا كان يسقي القطيع.

هـــ- يجيء بجِلد المعزة إن ماتت في حَوزته أو أي أَمارةٍ تدل على صِدقه.

و- أن يقوم بمراقبة التُّيوس وما عساه يلزمهم من أكل من البلدية أو من المســـجد.

ز- يوصل أولاد المعزة إذا ولدت عنده إلى الدار التي تملك المعزة، ويعطونه بشارته مما تيسر كمُدٍّ من تمر أو مُدٍّ من شعير.

ح- إذا ما وقعت أي تعدية على القطيع فعلى البلدة أن تُنجد الراعي.

ولعل لهذه القضية أثر فيما تقدم لنا عن الأعراس أن الناس لا يجيئـــون إلى دار العرس من أجل الخيمة حتى يدخل "اَلْحَرَّاث"، ولا يأتون لطعام وليمة العرس إلا إذا دخل "اَلْحَرَّاث" حين كان الإطعام عشية، إلى غير ذلك من المواعيد، ممـــا يدل على أنه مادام "اَلْحَرَّاث" لم يدخل من البادية فهم غير مطمئنين إلى سلامتهم في القرية، وكثيرًا ما سبق "اَلْحَـــرَّاث" فَيُنتدب الشُّبَّان أو "اَلْمَكَارِيس" فيتبعونـــه

ولو يومين حتى يردُّوه، كما وقع ذلك في عهد عمنا بهون بن الحاج يحي حين أغار "جْرِيبَة" على قطيع العطف فلما تقابلا قال له: "دع القطيع واذهب لحال ســـبيلك فإن معي إخواني وكلهم مستعدون أن يموتوا قبلي، أما أنت فإنك معتمـــد علـــى مرتزقةٍ سينفضُّون عنك عند أول رصاصة.." فتدبر مع كلامه وَلَوى عنان فرســـه وكفى الله المؤمنين القتال، ولربما تساءل الكثير من أبناء اليوم كيف يمكن أن يتقاتل جيشان من أجل قطيع من المعز يعد بمائة أو بخمس مئة، فما شأنه وما قيمته حـــتى يستدعى النفير العام أو ما يشبه ذلك؟!، والجواب: إن هذه القضية تدخل في جملة ما تفرضه الرجولة من الدفاع عن الحِمى وتلك عادة عرفتها كل الشعوب، فقـــد تنشب حرب بين شعبين من أجل قطعة أرض قد لا تُساوي إذا ما بيعـــت ديـــة شخص واحد، ولكن تذهب فيها أرواح وأرواح فمن هان عليه اليسير هان عليـــه الكثير، والأمور بمعناها ومحتواها لا بقيمتها المادية، ولعل مضيق "دَانْزِيـــغ" الـــذي اعتدى عليه الألمان في سنة 1939 كان لا يساوي الحرب العالمية الثانية ولكنـــها اندلعت من أجله، وقديما تحاربت قبيلتان أربعين عاما من أجـــل ناقـــة[1]، وجـــرَّد المعتصم سبعين ألف جندي في حملة تأديبية لعَمُّورِيَّة من أجل امرأة صـــاحت "وَا مُعتَصِمَاه" حين اعتدى الروم عليها، ولذلك فأمور مثل هذه لا دخل لمنطق الأرقام فيها، وهذا ما تسنى ذكره في هذه النقطة وهو إن دل على شيء فإنما يدل علـــى تلك المساواة التي تطبع كل تصرفات الأوائل، وأما اليوم فإن الناس يدفعون عـــددا كل شهر مع وجود تلك المنح التي ذكرناها قبلُ، إلا أن الراعـــي اليـــوم لم يعـــد يستقصي في طلبها فمن أعطاه أخذ منه ومن امتنع فله ذلك[2].

---

1 - يريد: حرب داحسٍ والغبراء.

2 - هذا قديمًا أما اليوم فلا أثر للقطيع يذكر، لأن الناس صاروا يعتبرون تقييد معزاة في الدار من علامات البداوة والتخلف، فأنشاؤوا الحظائر في بساتينهم لرعايتها، ولكنهم في الأخير استغنوا عنها إلا قليلاً.

ويعفى من الأداء كل عضو من حلقة العزّابة أو رؤساء العشائر، وهذا بالنسبة لمعزة واحدة وإن زاد دفع، وهذا باعتبارهم ممن يشتغل بالمسائل بدون مُرتَّب، كما أنه يوجد في بعض مدن ميزاب ثلاثة أو أربعة رعاة لكل قطيعه، والمسجد أو جماعة الضُّمَّان أو الَمْكَارِيسْ يراقبون سيره، كل قرية على حسب نظامها، والدفع يكون عند باب البلد فإن الراعي يُعلن بيوم قبل موعد القبض وفي اليوم المعلوم يحبس القطيع عند مدخل البلدة فيجيء الأولاد ويدفعون ويطلقون المعزة، وهذا أمر معروف لدى الجميع وهذا ما لا يزال يقع إلى اليوم وإن كان الناس اليوم أصبحوا يطمحون إلى أنواع جديدة من المساكن فيها حديقة وحوزة للمعز والدجاج أو الأرانب مما سيفقد هذه الظاهرة أثرها، ونحن إن ذكرناها اليوم فإنما نريد أن نزيدها لجملة التقاليد المتبعة والتي تبين لنا ملامح المجتمع الديمقراطي التعاوني[1].

البَرَاءَة أو الحُكم والعُقوبات[2]

لقد عرف هذا المجتمع منذ تأسيس نُظُمِه جُملةً من العقوبات الفعالة، منها الحرمان من الحقوق المدنية، ومنها التغريب، والتشهير، ومنها الحُكم أو البراءة، ومنها التَّعزير والتأديب، وسنذكر في هذه الخلاصة كيف تطبق هذه العقوبات.

وسنبدأ بالبراءة أو الحكم: وهو ما يُعلن به في المسجد بعد صلاة العشاء، وذلك إذا ثبت على أي شخص مهما كان أنه ارتكب منكرًا من المناكر كأن شرب الخمر مثلاً، فإن مجلس العزّابة بعد أن يثبتوا بشهادة شهود أو إقراره بعد استجوابه، فإنهم يُعلنون البراءة منه أمام الناس في المسجد، ولا يُعفى عنه إلا إذا جاء

[1] - للأسف فإن الحرَّاف ألغي نهائيًا في العطف مطلع التسعينيات، بُعيد وفاة الشيخ الثرادي بقليل.

[2] - هذا الفصل يسميه الإباضية في عقيدة التوحيد "الولاية والبراءة"، وأصل البراءة الشرعي يعود إلى قصة "الثلاثة الذين خُلِّفوا.." عن غزوة تبوك فهجرهم الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ خمسين يومًا، وقصتهم في سورة التوبة.

المسجد وأعلن توبته أمام الناس في خمس صلوات في غالب القُرى، وبعد الاعتراف يُلقي عليه شيخ المسجد درسًا ثم يعفو عليه، وهذا فيما يتعلق في ارتكاب المخالفات من الناحية الشرعية، أما إذا كان الأمر يتعلق بمخالفة أحد الاتفاقات أو مخالفة أمر من أوامر المسجد في قضايا الأعراس مثلاً فإنه يُحكم ويُعلن باسمه في المسجد ويُصرَّح بالمخالفة التي ارتكبها، وإذا أعلن عن اسم المتبرئ به في المسجد فإن هناك جملة من العقوبات تتبع هذه البراءة منها:

1- لا تُقبل زيادته في السوق في الدَّلاَلَة العمومية.

2- لا يحضر العزّابة جنازته أو جنازة من يتصل به من عائلته كزوجته وأولاده.

3- لا يُحمل نعشه على الأكتاف بل يُحمل على الأيدي فقط كما يحمل مريض المستشفى.

4- لا يُحضر له عرسٌ، ومن الطبيعي أن عشيرته لا تحضر عرسه إذا لم يحضر العزّابة وكذا العامة.

5- وإذا كان هذا الشخص دَلاَّلاً في السوق أو ذَبَّاحًا في المجزرة فإنه يُوقف عن عمله حتى يتوب.

وقد يسأل القارئ هل هذه القوانين مطبقة الآن؟ وهو سؤال وجيه يستحق الجواب

ونحن إذا أردنا أن نجيب جوابا موضوعيا صادقا فإننا نقول: إنه لازال بعض ذلك موجودا[1]، ولكنه يختلف باختلاف القُرى تبعا لنفوذ مجلس العزّابة، فكلما وُجدت حلقة قوية برجالها الأقوياء طبقت كل هذه القوانين وكل هذه العقوبات، وهذا أمر طبيعي وعام في كل مكان وزمان، فالقوانين قد تكون واحدة

[1] - يمكن أن أضيف تعليقًا على قول الشيخ، وهو أن نفوذ هذه الأحكام الآن أقوى في المجالس النسوية خاصة، وذلك تحت سلطة الغاسلات "تِمْسِرِدِينْ"، وخاصة ما يتعلق باحترام الاتفاقيات التي تخص المآتم والأعراس، لأن النساء أجرأ من غيرهن على اختراق الاتفاقات، وبـ"الهُجران" تخاف المرأة على سمعتها ومكانتها الاجتماعية، فتسارع بالتوبة والعودة إلى الحق وإلى الجماعة.

ولكن الناس يختلفون على حسب إيمانهم بفعالية هذه القوانين على حسب إلزامهم بتطبيقها، ولقد تضافرت عوامل كثيرة على إضعاف نفوذ البراءة نذكر منها:

1- محاربة السلطة الاستعمارية لنفوذ العزّابة، فقد اعتبرتها مُزاحمةً لسُلطتها، وقد رفعت قضية ضد عزّابة بريان حوكم فيها سنة 1951 أعضاء مجلس العزّابة، لأنهم عزروا أحد المواطنين بعد أن اعترف بجريمته ثم أعلن توبته أمام الناس، وكم لهذه القضية من نظائر.

2- استعمال بعض العزّابة سلاح البراءة ضد كل من خالفهم في الفكرة سيما إبّان الصراع بين الإصلاح والمحافظين، فكان بعض العزّابة يتبرؤون ممن يخالفهم في الفكرة وإن كان لم يقترف ذنبا من الوجهة الشرعية بل عمل بقولٍ أفتى به أحد العلماء مخالفًا بذلك أقوال السابقين، مع أن الأثر المعروف يقول: "من قلد عالما لقي الله سالما"[1].

لمّت

[1] - للثقافة المعرفية وحتى تعم الفائدة فإني أحيل القارئ الكريم على دراسة شافية وافية تحمل الكثير من المعلومات المهمة وهي: العزّابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، أ.صالح بن عمر اسماوي، المطبعة العربية غرداية، ط1، 2005. تقع في ثلاثة أجزاء، وفيها فصل كامل عن هذا الموضوع وغيره، ج2، ص 675 - 726.
وقد استفاد الأستاذ سماوي صالح في دراسته من هذه الرسالة الشيء الكثير كما أشرنا إلى ذلك في التقديم.

خاتمة

عزيزي القارئ ها قد وصلنا إلى نهاية الرحلة الاستكشافية المشوقة، والتي قادنا فيها دليلنا المؤرخ الشيخ إبراهيم القرادي ـرحمه اللهـ، ولعلك مثلي تتمنى أن لو طالت هذه الرحلة أكثر وأكثر، وجابت أندية وفضاءات أبعد وأعمق، لقد أشار الشيخ في عدة مواقع من هذه الرسالة إلى مواضيع جديرة بالبحث داعيًا الطلبة والباحثين الجادين إلى التعمق فيها أكثر في سبيل التعرف عليها والتعريف بها، وقد يشير بنفسه إلى بعضها في أكثر من موضع، كقوله: "..ولعلنا سنعقد فصلا لهذا الموضوع المهم"، أو قوله: .."لعلنا سنعود إليه في فرصة أخرى بحول الله"، لكن لقاء الحق تبارك وتعالى لم يمهل شيخنا حتى ينهي هذا الموضوع أو ليُعد رسائل أخرى، ومع ذلك فإن هذه الرسالة كانت سابقة مميزة في نوعها وحجمها بالنسبة لمنطقة مزاب، فقد تفوق الشيخ ـرحمه اللهـ في جمع وتدوين ما عجز عنه الكثيرين أو غفلوا عنه وتغافلوا، وهم يتمتعون بالصحة والشباب وبالإمكانات المادية المتنوعة.

إن أسلوب الشيخ ـرحمه اللهـ لا يخلوا من طرافةٍ وطلاوة بل وحلاوة أيضا، فأسلوبه السلس يأسر الألباب ويجعل القارئ يسترسل في قراءة فصول الرسالة حتى لا يكاد يشعر إلا وقد أنهى قراءتها، مما يدل على بساطة في الطرح، وعفوية وتلقائية في العرض، فأسلوبه كما يبدوا واضحًا متجهٌ إلى الجماهير العريضة من الناس، فيتلقف الفائدة المتعلم وغير المتعلم والكبير والصغير، وفي أسلوبه تظهر شخصيته المتزنة والحاذقة، تستعرض تجارب حياة ملأها التواضع ورجاحة العقل وسعة الصدر، حتى لقد صدقت فيه شهادة أستاذه الشيخ إبراهيم أبي اليقظان ـرحمه اللهـ رائد الصحافة العربية في الجزائر، حين قال عنه في مُلحق السّير: "..هو أديب أريب، ذكي الفؤاد، كريم الخُلق، راجح العقل، متّزن الفكر، واسع الصدر،

متواضع، لم تستفزّه زهرة الحياة عن الاشتغال بالمفيد المثمر، خصه الله بمميزات ومواهب نادرة قلما يحظى بها شباب عصره، من عفة ورصانة ونزاهة وثبات على مبدإ الحق.."[1].

والحق أقول إن ذاكرة حيّة مثل التي للشيخ الــقرادي لم يعرف مزاب مثيلا لها مند عقود خلت، وإننا _مع قلة ما ترك الشيخ من مدونات_ نتلمس غنى الشروح الضافية والتعاليق الدقيقة الموفقة، رغم أن الشيخ لم يُفصّل في بعض الأشياء كدَور الأُمناء، و لم يذكر عادة ختان الأطفال، ولا استقبال وتوديع المسافرين..، إلا أنه فتح المجال لكل من يريد تقديم المزيد من التعاليق، ومن يريد البحث فيما قيل وما يمكن أن يُقال، فكان عمليا موضوعيًا.

وإن كل العادات والأعراف التي ذكرت هنا سننٌ لا تقاليد بالية، وإن كانت تبدوا لمن ينظر إليها نظرة سطحية أنها كذلك، فليتأكد وليبحث من شاء ليدرك أنها فعلاً نابعة من صميم العقيدة الإسلامية والسنة النبوية المطهرة، بل متعلقة بها صباح مساء، مما يدل دلالة قطعية على التزام أهل مزاب بمذهب أهل السُّنة، وفي الكتاب إشارات عديدة لا حصر لها عُد إليها.

عزيزي القارئ حتى لا أطيل عليك بقيت هناك كلمة أخيرة أود أن أُدرجها هنا لما تحمل من صدق الوفاء من الأبناء نحو الآباء ومن التلاميذ نحو مربيهم، كلمة قالها الدكتور محمد صالح ناصر وهو أحد تلاميذ الشيخ _رحمه الله_ يقول فيها: "استفدت وتعلمت من شيخي إبراهيم الــقرادي: "كُن مؤمنًا بقيمك ليجلّك الآخرون، واثقًا لتبدع في كل الفنون، متفتحًا على عصرك ليستفيد منك العالمون والمتعلمون.."[2]. نفعنا الله وإياكم بما نقرأ وتبثنا على دينه بذكره الحكيم.

---

[1] - الشيخ إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان، ماحق السير (مخ)، ج3، ص521.

[2] - محمد صالح ناصر، مشايخي كما عرفتهم، دار الريام، الجزائر، ط1، 2008، ص168.

ملاحق

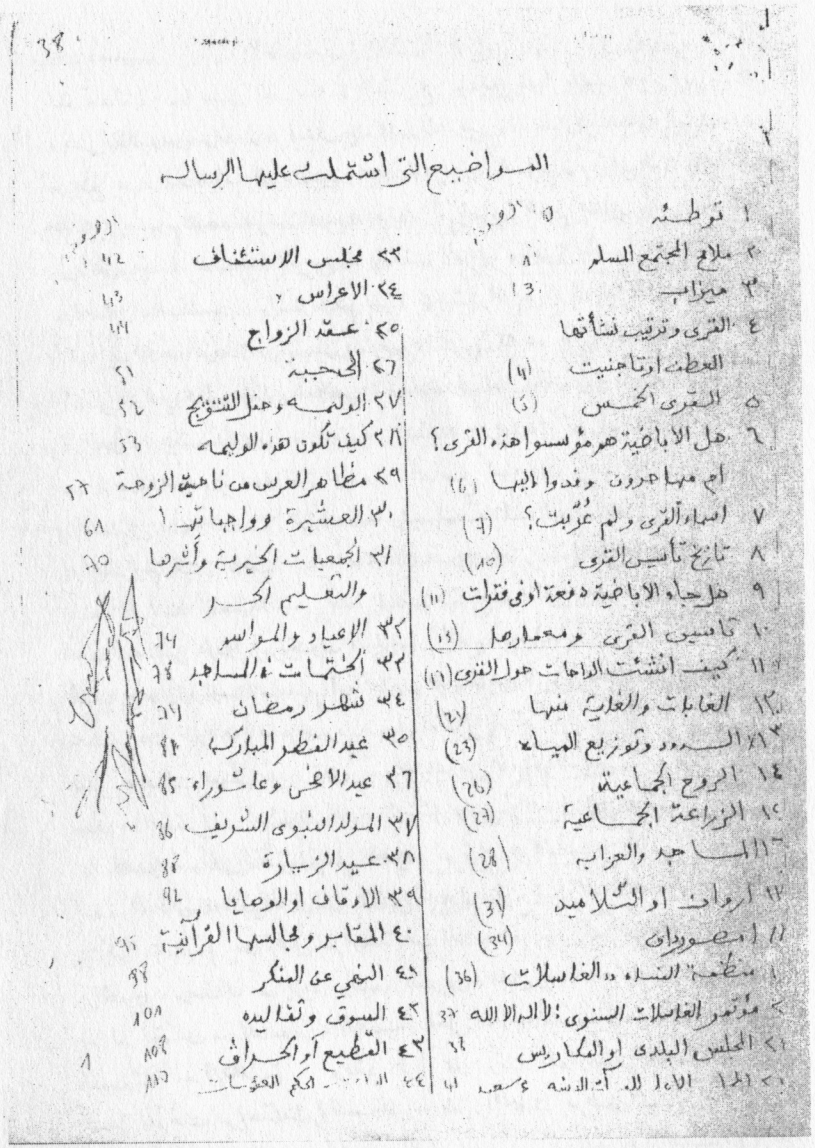

المواضيع التي اشتملت عليها الرسالة

١ توطئة
٢ ملامح المجتمع المسلم
٣ ميزاب
٤ القرى وترتيب نشأتها
العطف او تاجنيت (4)
٥ القرى الخمس (5)
٦ هل الاباضية هم مؤسسوا هذه القرى؟
ام مهاجرون وفدوا اليها (6)
٧ اسماء القرى ولم عُرّبت؟ (7)
٨ تاريخ تأسيس القرى (10)
٩ هل جاء الاباضية دفعة او في فترات (11)
١٠ تأسيس القرى ومعمارها (13)
١١ كيف انشئت الواحات حول القرى (17)
١٢ الغابات والغاية منها (21)
١٣ السدود وتوزيع المياه (23)
١٤ الروح الجماعية (26)
١٥ الزراعة الجماعية (27)
١٦ المساجد والعزابة (28)
١٧ اروان او التلاميذ (31)
١٨ امصوردان (34)
١٩ منظمة النساء «الغاسلات» (36)
٢٠ مؤتمر الغاسلات السنوي: لا اله الا الله 37
٢١ المجلس البلدي او المكاريس 38
٢٢ [illegible] 41
٢٣ مجلس الاستئناف 42
٢٤ الاعراس 43
٢٥ عقد الزواج 44
٢٦ الحجبة 51
٢٧ الوليمة وحفل التتويج 52
٢٨ كيف تكون هذه الوليمة 53
٢٩ مظاهر العرس من ناحية الزوجة 57
٣٠ العشيرة وواجباتها 61
٣١ الجمعيات الخيرية وأثرها والتعليم الحر 70
٣٢ الاعياد والمواسم 74
٣٣ الختمات في المساجد 78
٣٤ شهر رمضان 79
٣٥ عيد الفطر المبارك 81
٣٦ عيد الاضحى وعاشوراء 85
٣٧ المولد النبوي الشريف 86
٣٨ عيد الزيارة 88
٣٩ الاوقاف او الوصايا 92
٤٠ المقابر ومجالسها القرآنية 95
٤١ النهي عن المنكر 98
٤٢ السوق وتقاليده 101
٤٣ القطيع او الحراق 108
٤٤ [illegible] الحكم العشوات 110

الورقة الأولى من المخطوطة.

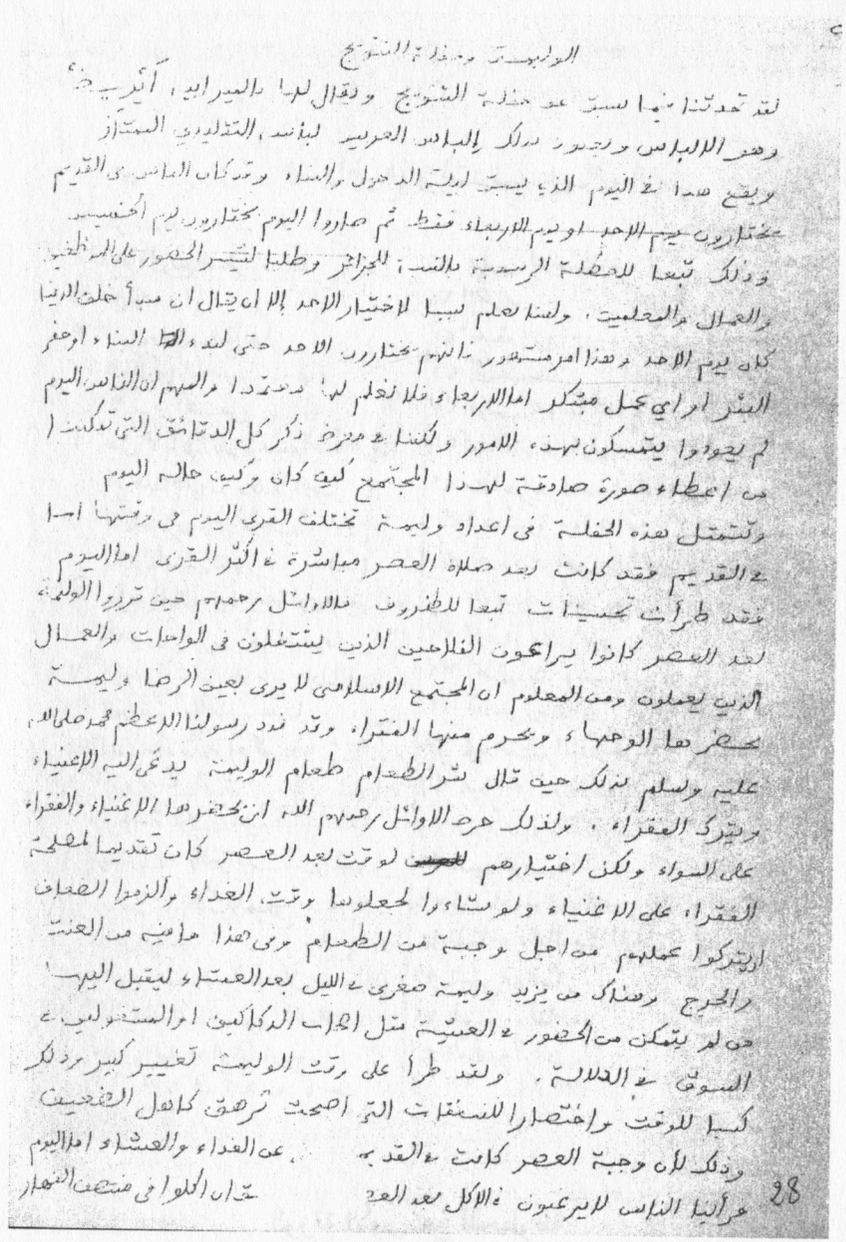

ورقة من وسط المخطوطة.

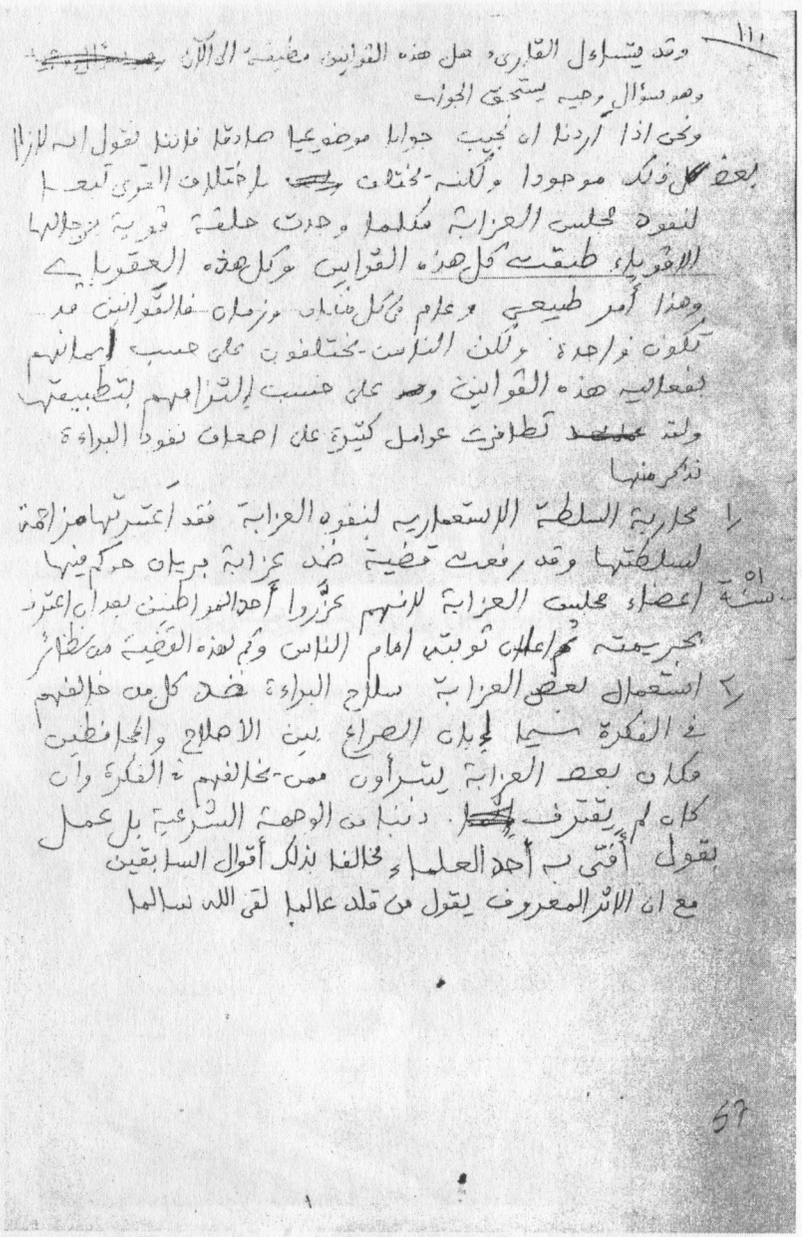

الورقة الأخيرة من المخطوطة.



الشيخ الـــقرادي في ريعان شبابه.

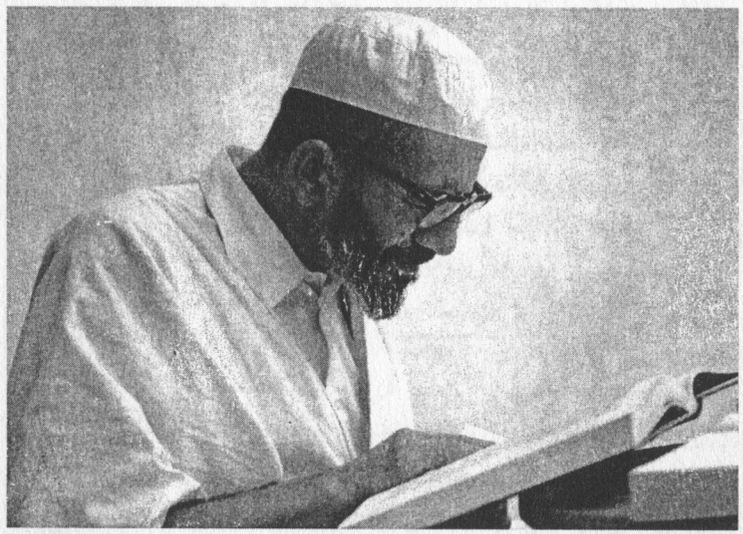

الشيخ الـــقرادي في شيخوخته، وهو يُجيل النظر في كتاب،
وقد أُثر عنه كثرة المطالعة واقتناء الكتب، فقد ترك مكتبة عامرة بالمصادر.

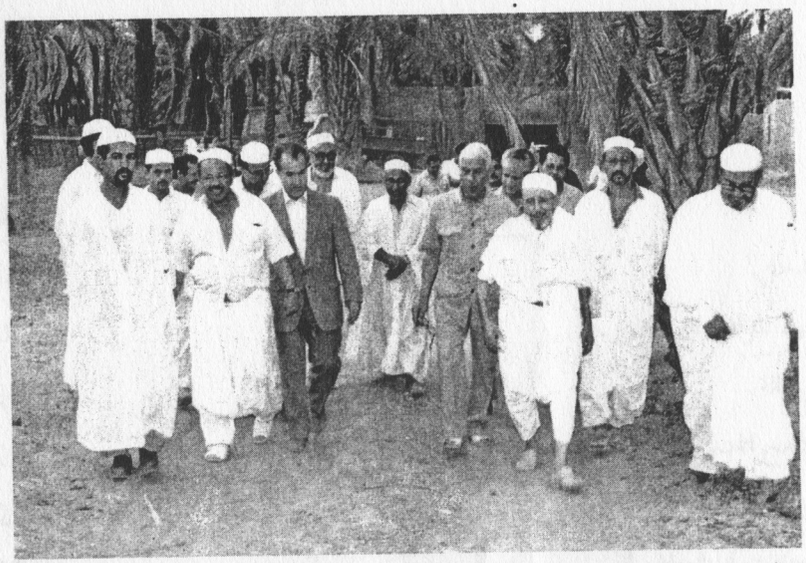

الشيخ الـــقرادي الثالث على يمين الصورة، والمرحوم مولود قاسم الثالث على يسار الصورة،
في جولة سياحية في واحة أَوْلَوَالْ بالعطف على هامش ملتقيات الفكر الإسلامي.

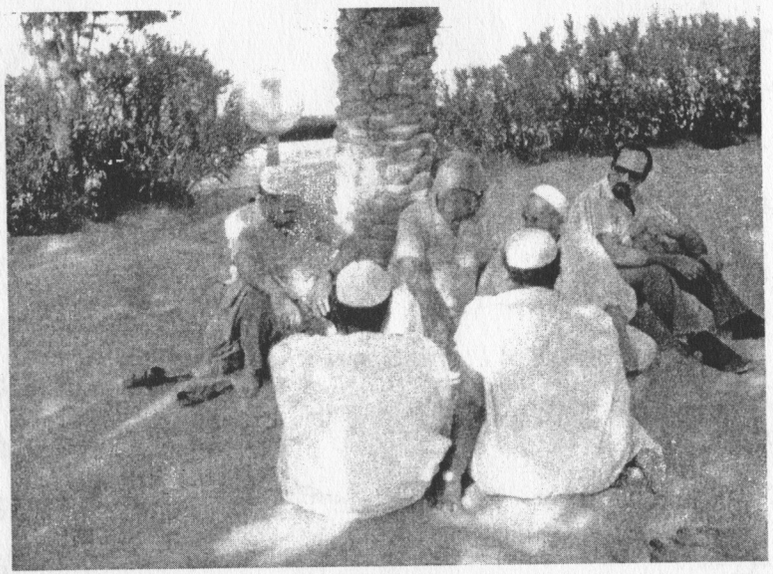

الشيخ الـــقرادي الثاني على اليمين، يتحدث مع الدكتور صالح الخرفي، ويليهما إلى اليسار
الدكتور محمد صالح ناصر (وهو ينظر في ساعته) في جلسة حميمية في بُستان بالعطف.

الفهرس

الموضوعات	الصفحة
- مدخل.	هـ
- حياة المؤلف في سطور.	ط
- الرسالة.	15
- ملامح المجتمع المسلم.	18
- ميزاب.	21
- تاجنينت أو العطف.	22
- أسماء القُرى وتعريبها.	26
- هل جاء المزابيون دفعة واحدة أم في فترات؟!	33
- تأسيس القُرى ومعمارها.	35
- كيف أُنشأت الواحات حول قرى ميزاب.	42
- الواحة أو الأجنَّة والغاية منها.	47
- السدود وتوزيع المياه.	51
- الروح الجماعية.	57
- الزراعة الجماعية.	58
- المساجد وهيأتها.	59
- هيئة "العزَّابة".	60
- "إروَان" أو التلاميذ.	63
- "إمَصُّوردان".	66
- "تِمسرِدِينْ" أو منظمة النساء الغاسلات.	69
- مؤتمر الغاسلات السنوي "لا إله إلاَّ الله".	70

- السوق وتقاليده. 162
- القطيع أو الحرَّاف. 172
- البراءة أو الحكم والعقوبات. 174
- خاتمة. 177
- الملاحق. 179
- الفهرس. 187
- قائمة المصادر والمراجع. 190

قائمة ببعض المصادر والمراجع
التي أثرث التحقيق

- رسالة في بعض عادات وأعراف وادي ميزاب، للشيخ إبراهيم بن يحي القرادي (مخ).
- كتاب الله العزيز (القرآن الكريم)، رواية ورش عن نافع.
- معجم أعلام الإباضية، مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية الجزائر، ط1، 1999.
- حمو عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، دار البعث، قسنطينة، ط2، 2000.
- محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة العربية بالجزائر، ج1، ط1، 1971.
- صالح بن عمر سماوي، العزّابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، المطبعة العربية غرداية، ط1، 2005.
- محمد صالح ناصر، مشايخي كما عرفتهم، دار الريام، الجزائر، ط1، 2008.

EDITION
MONDIAL PRINT SERVICE
Tél : 021 82 02 02

..وبعد فإني لم أر فيما رأيت من المناطق في أرض الجزائر منطقة استأثرت بأقلام الكتاب سيما الأجانب منهم مثل ما رأيت عن ميزاب، هذه الرقعة الضـــيقة التي أثارت إعجاب السُّواح الزائرين أو الحكام المتسلطين أو المـــؤلفين النُّزهاء، الزائرين على اختلاف نزعاتهم وأهدافهم واتجاهاتهم، فلو ذهبنـــا نعدد ما كتب من المؤلفات والمقالات منذ قرن من الزمن لوجدنا ما قد يدهش الإنسان منه كثرة وتنوعًا..

إن هذا المجتمع الإسلامي على قلة عدد سكانه وعلى ضيق الرقعة الضيقة التي يسكنها يختصر حضـــــارة من أعرق الحضارات الإسلامية، فهو يقوم في جميع شؤونه على الدين الإسلامي في إطار المذهب الإبـــاضي ولا يزال إلى يومنا هذا، رغم كثير من التحديات التي تعرض لها منذ وصول الزحف الفرنسي إلى الأغواط سنة (1853) واحتلال الجيش الفرنسي لميزاب سنة (1883) وما أستتبع هذان الحدثان من توالي التحديات والنكبات والضغوط إلى سلسلة من القوانين العرفية اســتمرت إلى سنة (1951) كل هذا بلور في ميزاب كثيرا من أساليب المقاومة، وكون طرقا جديـــدة من الكفاح الدائب المستمر، فلم يزدد هذا المجتمع إلا تمسكًا بالدين وصمودا في الكفاح حتى بعد أن استقلت الجزائر، وتوالي ظلـــم ذوي القربى، واشتملت طرق المقاومة على كثير من ذوي الرأي الحصيف.

بعد كل هذا كما سيأتي بيانه مفصلا، نرى كثيرا من الظواهر التي تدل دلالة صادقة على أنه مجتمع مسلم ومعتز بإسلامه والحمد لله..

فرادي الحاج إبراهيم